رامي أحمد
بث مباشر
Bely
رواية
بيلي
live broadcast
2014 / 2015

بعضَ الأشخاصِ مثلي لا بدّ أن يظلوا مجهولين..
وبعضُ النهاياتِ في رأيي لا بدَّ وأن تبقى مبهمةً..

****

تمهيد

في الغرفةِ الضيقةِ أمامي وقف..
مسح وجهه بدهانٍ أبيض.. وضع أنفًا مستديراً.. ثم ارتدى فوق رأسه الشَّعر المستعار..
بأحمر شفاه في يدي رسمتُ له ابتسامةً أكبر من تلك التي تتسعُ لها شفتاه.. قبل أن أنزوي إلى جنبٍ لتأمل تلك المشاعر التي صدح بها المكانُ برغم السكوت..
صدى الصمتِ كعادته يُحاورني .. فأتسائل..
أحقاً نبدو جميعًا متشابهين من تحت قناع المهرج؟.. أم أن مشاعرنا حينها في ظل ألوان البهجة هي ما يَأتلِف؟
أرقب استناده على الكرسي الخشبي محاذرًا رِجْلاً منه مكسورة..
الشاشة أمامه.. والكاميرا تواجهه ولا ترصد عدستُها سواه..
الآن يتنهد في عمقٍ ويبتسمُ ضاغطًا زِرَّ البث المباشر..
والآن نبدأ..
"الخميس.. الخامس من أغسطس 2015م.. الساعة السابعة مساءً..
أعزائي المتابعين جميعًا..
أهلاً وسهلاً بكم في موعدكم المتجدد مع الفيديو الأسبوعي التاسع للباحثين عن السعادة..
أودُّ تقديم شكرٍ من القلب لكم في البداية على كل ما قدمتموه في سبيل نشر عروضنا بأيِّ وسيلةٍ كانت..
شكرًا لكلِّ ما وصلنا من تعليقاتٍ خصّت أكثر من ثمانمائة ألف متابعٍ على الصفحة..
شكرًا للسعادة.. لكلِّ من بحث عنها.. واقتفى معنا أثرها..
ثم شكرًا للحزن الذي نبهنا يوم فقدناها..".
يبدو مضطربًا بعض الشيء.. صمت قليلاً لالتقاط أنفاسه.. وتابع:
"أعتذر عن المقدمة المملة.. لكنها الوحيدة المناسبة لعرضٍ سيختلف قليلاً عن سابقيه..
لن أحدثكم اليوم عن سببٍ تاسعٍ من أسباب السعادة كما اعتدتم في ثمان حلقاتٍ فائتةٍ..
ليس لأني لا أملكه.. ولكن لأني اكتشفت.. أنه وبرغم كل الأسباب الماضية.. ما زال هنالك شيء مفقود..
شيء ناقصٌ لا أعلمه.. هل تساءلتم عنه مثلي؟..

لماذا فقدت ضحكاتنا بريقا نراه في عين طفلٍ صغيرٍ لا يُدرك من أسباب السعادة واحدًا؟..

أي عائقٍ وقف بنا على حافة الفرح ومنعنا من مواصلة الطريق.. لنرضى فقط بما تسلل لأنفاسنا من عبَقه فيَ الأفق؟..

كأنما رسم العبوس فوق قلوبنا خطوطاً لا تمحى.. فصارت غايتنا السعادة.. ولا ندركها.

رغم أننا اتَّبعنا كل منطقٍ.. والتمسنا بالعقل كل وسيلةٍ.. وتحسسنا السبل لاهثين وراء الأسباب..

لكننا في النهاية لم نجنِ غير نفحاتٍ من الفرح قصير مداها.. يخبو عطرها في ذات لحظات اشتمامه.. ويزول.."

صمتَ مرةً أخرى مستجمعًا شتات أفكاره منسقًا في رأسه الكلمات قبل أن يستمر:

"حسن.. يُخيل لي أن خطأ في طريق البحث أضلَّنا.. لزم علينا التخلي عن قواعده.. تلك التي تربطنا بواقعٍ لا نستشعر تحت نطاقه البهجات المنبعثة من كل ما يُحيط..

علينا اتخاذ سبلٍ جديدةٍ..

نحن نحتفظُ بما لدينا فقط بتقديمه للآخرين.

مقولة طالما آمنت بها..

ثقة بها شاركتكم كل ما عايشته من لمحات سعادتي على اختلاف المراحل..وبمقتضاها اليوم أيضًا.. أشارككم وسيلتي الأخيرة صوب قمتها ببعض ما ملكتم من فضول.. وبأقصى ما ملك قلبي من رغبة وجنونٍ..

لقد قررت أنا.. صاحب الابتسامة المنقوصة من تحت هذا القناع.. ان أنتزع كل مخاوفي على مرأى ومسمع منكم جميعاً..

وأن أخوض تجربة احتراق كاملة, لتحريري كلياً وبشكل نهائي, من كيان مادي صرت أراه اليوم معيقاً..

علها تمنحني الخلاص فيحفظه قلبي.. أو تمنحكم إياه فتحفظني به قلوبكم..

أيًّا كان ما سيكون..

في انتظاركم جميعًا..

من نفس هذا المكان وعبْر ذات القناة..

في فيديو عاشر وأخير سيتم عرضه يوم الخميس القادم..

الثاني عشر من أغسطس 2015م .. الساعة السابعة مساءً..

بتوقيت القاهرة.. ".

****

.. البدايةُ..

الخميس.. الثاني عشر من أغسطس 2015م ..

السادسة صباحًا.. بتوقيت القاهرة..

سماء وسط القاهرة المحملة بنسمات الفجر وما بعده بقليلٍ..

يتسلل نَدى الصبح عبْر أنفاسه..

يقرأ بعينيْه كل شيء في لحظة استيقاظ المفردات..

سائق أجرة إلى جنب الطريق منهمك في غسل سيارته.. وتلميذ محمَّل بحقيبةٍ حنت ظهره في الطريق لمستقبل أسهم في رسمه فاشلون..

الأبواب الجرارة يتوالى صوتُ صعودها من متجرٍ إلى الآخر.. مع همهمات ترنح بها المستيقظون لتوِّهم يبدأون يومًا جديدًا..

ذات الصور المتكررة داخل نفس إطارات الروتين المملة..

لا يتغير شيء فيها سوانا.. دوائر مغلقة منذ الأزل رغم اختلافاتنا نكررها..

وفي خضمِّها كان هو..

فتحي.. عامل المشرحة العجوز..

يسير في طريق رجوعه المعتاد بعد مناوبة عمله الليلية من المشفى العام بخطواته المميزة وهيئته التي تختلف..

ملابسُه منمقةٌ هذا الصباح.. وعيناه الواثقتان تبحثان بين الوجوه أمامه عن شيء مفقودٍ..

البهجة..

تساءل أين هي؟

لماذا لم تصح هي الأخرى من بين ما استيقظ؟

وكيف هجرت كل الوجوه؟

تبدو وجوه الموتى بحكم تعامله معها أكثر استرخاءً ورضا من وجوه أولاء السائرين من حوله يبدأون يومًا جديدًا في عمرٍ ما زالوا يمتلكون منه بقية..

هذه المعادلة الحياتية الشاذة كيف يبدو هو فيها الأكثر غرابةً بقبعةٍ سوداء يعتمرها وعصًا من الخشب قصيرة؟

يستنكرُ نظراتِ تساؤلهم المختلسة عن ماهية شبح شابلن السائر في شوارعهم هذا الصباح.. ويسير غير آبهٍ بها.. يُجيب من داخله عليها بألف لسانٍ..

لستُ أغرب ما في الصورة أيها البائسون..

أشياء عديدة في واقعكم تتخطى غرابةً هيئتي .. غريب أنكم اعتدتموها وانشغلتم هنا عنها بنظرات البلاهة والفضول..

يا كل المستغربين ..

أنا خيطٌ انفلت من بَكرة السعادة قبل انفراطها..

أنا سببٌ من أسباب البهجة.. ودليلُ الساعين وراءها..

أنا فرصةٌ.. لم تنتظر يومًا أحدًا.. ولن يمنحكم الدهرُ إياها ثانية..

استرسلت خواطره الداخلية صادحةً وهو يُواصل الطريق..

تجذبه الشوارع فينحرف من أحدها إلى الآخر..

يعبُر الأزقَّة راسمًا بمساره بين جدران البيوت القديمة عقدة كان حلها في تلك الحارة الضيقة حيث أخيرًا وقف..

صفٌّ من البنايات يُطلُّ على السور نصف المهدم أمامه لما يبدو أنها كانت قديمًا مدرسةً تحوَّلت بفعل الإهمال إلى مكبِّ نفايات..

توقَّف أمام الباب الحديدي الصدئ لواحدةٍ منها تبدو عجوزًا كغيرها..

رمق السلسلة الحديدية الملتفَّة بين ضلفتيْه يجمع بين طرفيْها قفلٌ معدنيٌّ كبيرٌ في المنتصف قبل أن يمدَّ يده في جيبه بحثًا عن مفتاحه:

- يلعن أبو الزهايمر.. نسيت المفتاح..

زفر بالعبارة في حنقٍ وهو يمدُّ يده لهزِّ الباب محاولاً لفت انتباه أحدهم في تلك الساعة المبكرة من الصباح متمتمًا:

- وبعدين؟ ودا مين اللي هيصحالي دلوقتي؟..

صاح بصوتٍ عالٍ:

- يا للي هنا.. حد يفتحلي الباب ياخواننا نسيت مفتاح المدخل..

رجَّ الباب الصدئ مرةً أخرى فأصدر مع احتكاكه بالسلسلة الحديدية ضجيجًا بدا مناسبًا لإيقاظ فيلٍ.. بيد أن الفيلة لا تسكن الحارات..

لحظاتٌ طوالٌ منه انسلّت.. وأناسٌ كثرٌ عليه مروا..

فتى الجرائد فوق دراجته التي عبر بها برعونةٍ مسرعًا من خلفه يُحييه:

- صباح الخير يا عم فتحاااااااي.

رفع يده بدوره:

- صباح الخير.

بائع اللبن..

صاحب الدكان القريب..

وحتى قِط الشارع المتسول.. مرَّ متمسحًا يلعقُ حذاءه قبل أن يدفعه فيرحل منشغلاً بنبش أكياس القمامة

التي ألقيت في إهمالٍ حول سور المدرسة المقابل..

"وبعدين بقى في التعليقة دي؟ أنا هفضل كدا كتير وللا إيه؟".

تمتم بالكلمة في انزعاجٍ يائس.. قبل أن يطل عليه من الداخل ذلك الصغير ذو السنة وبضعة شهور بقميصٍ مفتوح ولا شيءٍ دونَه على عتبة باب الشقة المقابلة.. متطلعًا إليه من خلف البوابة الحديدية الموصَدة أمامَه بنظرةٍ خاويةٍ وجد فيها بشارة أمل وهو يقول:

- حمادة حبيبي.. صباحك جميل يا صغنن.. بابا وماما صاحيين جوة عندك؟

لم يبد على الصغير أنه فهم حرفًا مما قال ونظرته البلهاء ما زالت معلقةً بوجهه.. فاضطر لاستعمال لغة الإشارة وهو يُكرر سؤاله:

- بابا.. ماما.. فينهم يا حمادة؟ ناديلهم عشان عمو فتحي نسي المفتاح وعايز يدخل..

كان يُحرك يديْه على جانبيْ رأسه يمينًا ويسارًا.. راسمًا بوجهه علامات استفهام حاول بها إيصال المعنى إلى الوجه الصغير الذي ظلت نظرته كما هي للحظة أخرى قبل أن تتهلل أساريره ويفترَّ ثغره عن ضحكةٍ طفوليةٍ ساذجةٍ أخذ يتقافز على أثرها مصفقًا يُطالب بمزيدٍ..

مطَّ فتحي شفتيْه متهكمًا على نفسه:

- إيه اليوم اللي باين من أوله دا؟..

لم يكد يُنهي عبارته حتى اختلَّ توازن الصغير إثر قفزاته.. فسقط مرتطمًا رأسه بأرضية المدخل في عنفٍ..

شهق فتحي في انفعالٍ لم ينبس معه ببنت شفة وهو يتابع الجسد المسجَّى أرضًا أمامه في ثباتٍ مُترددًا طنين الارتطام عبر أذنيْه..

تُطل عيناه الصغيرتان عليه بنظرة عدم إدراكٍ سبقت انفجاره في البكاء الهستيري...

تنفَّس فتحي الصُّعداء..

على أية حال هو لم يمت.. وهذا جيد.. ثم أن صراخهِ المزعج قد يوقظ أحدهم.. وهذا ممتاز..

أربعيني مجهدٌ مثله بحاجةٍ لفك احتجازه القهري من وراء تلك البوابة..

أربعيني مجهدٌ مثله بحاجةٍ إلى النوم بعد مناوبة عمل ليلي طويلة..

على صوتِ الصراخ تظهر الأم.. بمنامةٍ صيفيةٍ بدت فوق الجسد البدين المتعرِّق أتعس منه حظًّا..

تنظرُ إلى خامس أبنائها دون مبالاة.. تلكز مؤخرته العارية بقدمها قائلة:

- قوم يا موتتشي.. قوم يا حبيبي ياللا محصلش حاجة.. ياللا يا حبيبي عشان تاخد النني..

ثم ترمق بكل النوم في عينيْها فتحي متفاجئةً بوجوده قائلةً:

- صباح الخير يا عم فتشحي.. لا مؤاخذة طالعة بقميص النوم مش واخدة بالي إنك واقف.. إنت عارف بقى العيال ودوشتهم..

قالتها وهي تتثاءب رافعة بيدها المنامة لتغطيةِ مساحةٍ أكبر من صدرها..

أي فتنةٍ بين أطنان الدهن تَحاول تخبئتها؟

همس محدثًا نفسه:

- يا شيخة اتنيلي.. دوتشي وفتشحي؟

ثم رفع صوته قائلاً:

- ولا يهمك يا ست زهرة.. صباح النور.. معلش بالمرة بعد إذنك ممكن تفتحيلي الباب عشان نسيت المفتاح؟..

تساءلت في فضولٍ:

- إيه هما الجماعة مش بايتشين معاك فوق النهاردة؟

هزَّ رأسه نافيًا وهو يُجيب:

- لا فوق، بس أنا المفتاح مش معايا.. نسيته.. ممكن تفتحيلي بعد إذنك؟..

أومأت برأسها علامة الفهم وهي تتثاءب مرةً أخرى قبل أن ترفع أصبعها مشيرةً كأنما تذكرت شيئًا ما قائلةً:

- لا مؤاخذة يا عم فتشحي في السؤال.. هما مسميينك شابلن عشان الطاقية والعصاية الصغيرة اللي في إيدك دي .. صحّ كدا؟

رفع لها إبهامه محييًا ذكاءها وهو يُتمتم:

- بالضبط كدا برافو عليكي..

ثم بزفرة إرهاقٍ واضحة كرَّر طلبه:

- ممكن تفتحيلي الباب بقى عشان بقالي ربع ساعة واقف؟..

ابتسمتْ في إعجاب بنفسها ثم هزَّت رأسها ثانيةً، مشيرة إليه أن فهمت وهي تدلف عائدةً إلى الداخل لجلب المفتاح المطَلوب بعد لكزةٍ أخرى من قدمها على مؤخرة الصغير الذي كتم صراخه وهي تقول في تكاسلٍ:

- من عينيا.. وإنت قوم بقى كفاية زنّ..

نهض الأخير في صمتٍ يتبعها إلى الداخل رامقًا العجوز بنظرة لوم..

هذا الصغير يُحمله ذنب سقوطه.. كما حمَّلت هي أذنه ذنب عدم تنظيمها للبيت بنشاز صراخها الذي انبعث مرتفعًا من الداخل:

"يا ولاد الكلب مين اللي بيلعب في الحاجة كدا؟ فين مفتشاح القفل الكبير يا عبد الله.. كنت حاطاه بإيدي في الجزامة..".

ربَّاه على كمِّ الحروف العجيبة في كلامها..

استهلكت وقتًا في البحث، تململ خلاله حتى ظهرت مع المفتاح أخيرًا وشرعت تفتح له ملقيةً سؤالاً آخر:

- صحيح يا عم فتشحي عايزة أسألك.. هو الأخ الطويل دا اللي قاعد معاكوا فوق فعلا كان فنان في التلفزيون؟ أصلي الصراحة ولا عمري شفته قبل كدا..

راقب بتلهفٍ لحظة ولوج المفتاح في يدها داخل القفل.. وتمنى لو أنها فتحت له قبل السؤال وهو يُجيب محاولاً اختزال الردّ:

- آه فنان يا ست زهرة.. بس عالراديو مش التلفزيون..

قالها والباب ينفتح على نظرة عدم استيعاب في عينيها حوت سؤالاً آخر حاول بكلمات شكر سريعةٍ تفاديه وهو ينطلق صاعدًا بخطواتٍ نهمةٍ- رغم إجهاده- الدرج..

خطواتٌ سريعةٌ أبطأها العمر والإجهاد تباعًا حتى وصل لسطح البناية..

اتكأ على بابٍ خشبي محى الزمن غالب طلائه وإن بدت برغم ذلك مقروءةً تلك الكلمات المحفورة فوقه..

" ولو في يوم زارك وجع.. اضحك عليه.. خليك جدع ".

قرأها كما تعوَّد.. ثم ابتسم..

لحسن الحظ هو يحمل المفتاح الداخلي..

أخرجه وفتح به الباب..

صوتُ موسيقى السيرك المرتبط بفتحه يرتفع مع أضواء ملونة انعكست على الحوائط للحظاتٍ عبر خلالها إلى الداخل وأعاد الباب مرة أخرى لوضعه المقفول معيدًا للمكان سكونه..

الساعة تقترب من الثامنة..

توقف قليلاً لالتقاط أنفاسٍ فقدها في رحلة الصعود أتته محملةً بزفير النائمين على الأرض أمامه.. وبصره يدور في نواحيٍ المكان وفيهم..

ذلك البدينٍ صاحب الكرش المبالغ في حجمه.. محمود عز الدين.. يكاد خشب الأريكة التي تمدد فوقها يصدر أنينًا من ثقله..

إلى الأسفل منه على الأرضية عصا مقشة استقرت على جنبها ملقبة بـ (بلبل).. المونولوجست المنسي بلال مرزوق.. هو من سألت عنه زهرة منذ دقائق..

على مسافةٍ منهم بلباسٍ رمادي وشخيرٍ يفوق الصادر من حظيرة خراتيت.. رقدت جثةٌ أخرى عملاقة البنية كثة الشارب تُدعى بيومي.. يُطلقونٍ عليه فيما البيْن اسم بارومة..

مساحة من فراغٍ على أرضية المكان كانت بجوار هذا البارومة سيشاركهم هو النوم فوقها..

لم يكن المكان غير صالةٍ صغيرةٍ.. على جانبها الأيسر ممرٌّ ضيقٌ حوى حمامًا ومطبخًا أضيق .. وإلى اليمين منها بابٌ خشبي آخر منغلقٌ على حجرةٍ بدت في اطار المشهد مميزة ..

يقبع خلفها من تحت قناع المهرج آخر أفرادٍ الفريق..

(بيلي)..

****

-1-
السَّبَبُ الأوَّلُ للسَّعَادةِ

شيءٌ كان هنا.. ثم غافلنا رحيله..

***

- (بيلي)

على النداء المتسلل عبر أذنيْه بصوت شقيقته زينب استيقظ.. يبادل وجهها المبتسم تثاؤبه..

نبيل إبراهيم العوضي..

صبيًّا كان حينها.. يعيش مع أختٍ تكبره بعشرةِ أعوامٍ.. وأب منحهما كل حياته بعد وفاة الزوجة.. داخل بيت دافئ..

ينهض استعدادًا ليوم جديدٍ في مدرسةٍ مواجهةٍ تمامًا للمنزل لا يتطلبه الوصول إليها غير أقدامٍ يعبر بها الرصيف المقابل.. ويَدٍ يُعانق بها كف سلوى..

(بلوى)، كما اعتاد أن يُطلق عليها..

جارته ذات الشعر البني المجعد والوجه المستدير.. تلك التي اعتاد وجودها معهم كجزءٍ لا يتجزأ من تفاصيل حياته البسيطة الهادئة كطباعه..

ترك لدفةِ القدرِ مهمة اقتياده فوق بساط العمر في رحلةٍ خطفت منه براءة سنوات الطفولة.. وغافلت سذاجته في فترة المراهقة.. ثم انتقلت به لمرحلة الانطلاق المطوق بحريةٍ متعقلةٍ في أعوام الدراسة الجامعية..

رحلةٌ خاطفةٌ رغم طولها.. تغيرت فيها الأشياء وإن ظلت نسائمها..

ما زال الأب برغم شيبٍ وخَط رأسه يمتلك النظرة الحانية..

ما زالت سلوى.. توءم روحه التي صاغ الزمن أنوثتها فصارت آنسة.. تحتضن بعفويةٍ كفه في طريقهما إلى الجامعة تمامًا كما اعتادت في الصغر..

وكذلك زينب.. ما زالت تؤدي دورها.. برغم مسحةٍ من اليأس تصاحبها إثر خمسة أعوام فقدتها في عَلاقةٍ علقت فيها كل أماني الفتيات على خاتم خطبة حول إصبعها ألقت به مع دموعها فَي النهاية بين راحة شخصٍ عانده في حبها القدر ولم تسعفه الظروف..

تأثرها بالأمر بدا جليًّا في صمتها الحزين الدائم.. وفي ذلك القبول السريع الفوري لأول من طرَق بابهم لخِطبتها فيما بعد..

لقد وافقت مباشرةً حينها.. لم تطلب حتى مهلةً للتفكير.. ولم تشرك أحدًا في قرارها الذي تجاوبوا باستسلامٍ معها فيه..

كذلك لم يحدد نبيل أيهما حينها ساءه.. أكانت موافقتها السريعة غير المبررة لشخصٍ لا تعرفه ولم يشعرْ هو نحوه بأي ارتياح؟..

أم كان الخوف من اقتراب رحيلها ؟..

لطالما اعتبرها بديلًا للأم بالنسبة له.. تلك التي رحلت بعد إنجابه ولم يرها إلا من خلال الصور..

كانوا كل دنياه التي لم يعرف فيها سواهم..

بقاء ثلاثتهم حوله كان يشعره بأمانٍ أفقده منه القدر جزءًا برحيل الأب..

ببساطةٍ مات الموظف الحكومي البسيط..

عاد من عمله بعد يومٍ شاق طويلٍ.. تناول غداءً أعدته له زينب ثم دخل إلى غرفته ليخرج محمولاً منها..

درسٌ قاسٍ أول.. ولقطةٌ من اللقطات النادرة التي كشفت فيها الحياة لنبيل عن وجهها الأوحل..

لم يبك يومها.. رغم الصدمة إلا أن دمعةً واحدةً لم تجسر على الخروج من مقلتيْه في يوم العزاء..

أصبرًا كان أم ألمًا مكتوم ؟.. لا يعرف..

لم يعرف أيضًا لأي الأسباب انهمرت دموعه المكبوتة كلها أمام سلوى في اليوم التالي عند مدخل البناية حين استقبلته متمتمةً بتعاطفٍ حقيقي:

- البقاء لله يا نبيل.. عشان خاطري متزعلش..

حين احتضنت كفَّه ذلك اليوم شعر بكثيرٍ من الدفء..

هو دفءٌ أنساه الألم فعاد الأدراج يتعقب به من جديدٍ خطى الأيام..

قدماه اليتيمتان تتركان فوق الزمن أثرًا أسود.. يخبو بفعل النسيان مع الوقت..

سبعة أشهر مرَّت من بعد الوفاة أتاهم بعدها خطيب أخته غير المريح متلهفًا لإتمام الزيجة..

برغم بقايا من ألم الفراق ما زالت فيهم كان مطلب الرجل منطقيًّا لم يجدوا أمامه بديلاً عن الإذعان..

فلترقد روح والدهم في مثواها بسلامٍ إذن..

ولتخلعْ زينب عباءة الحزن لترتدي فستانها الأبيض أمام عينيه المتأهبتين لرحيلٍ آخر..

****

تهافتت لفحاتُ الهواء الباردة على وجه تلك التي جلست وحيدةً مستندةً إلى قاعدة أحد تماثيل الأسود الرابضة المحيطة بكوبري قصر النيل في ساعةٍ مبكرةٍ من نهار اليوم..

تتطاير خصيلاتُ شعرها المعالجة بلونٍ أصفر فاقع أسفل طرحة أظهرت منه أكثر مما سترت.. مرتديةً عباءة سوداء تطايرت هي الأخرى كاشفةً عن بنطال جينز ضيق مزين بزخرفة ورود ملتمعة..

كان في وضع جلوسها المريب.. وذلك المكياج المبالغ فيه على وجهها دافعٌ لهذين الصبيين حاملي الحقائب المدرسية للاقتراب منها في بطءٍ، يهمس أكثرهما جرأةً وأطولهما قامةً بكلمة تحرش حاول إخراجها واثقةً:

- إيه.. ما تيجي؟

التفتت نحوه في هدوءٍ متطلعة له ولصديقه الذي ارتبك أمامها، ثم قالت:

- آجي يا حبيبي وماله.. فين؟

تلعثم المتكلم وحار لسانه، بينما أشارت هي إليه بسبابتها أن اقترب مائلةً نحوه في ميوعةٍ حتى بات يشعرُ بلفح أنفاسها الساخنة فوق وجهه وهمست:

- إنت مش بتقوللي آجي؟ معاك أنا بقى.. قوللي فين؟

شعر الفتى برأسهِ يغلي وأذنيه المحمرتين تُعلنان عن ذلك، بينما تراجع رفيقه الصامت لمراقبة الموقف و..

"على مدرستك ياللا يا ابني إنت وهو.. وخفوا من سندوتشات الحلاوة".

انطلقت الكلمةُ بصوتٍ أنثوي من خلف الفتى مُحمر الأذنين فارتجف ملتفتًا مع صديقه نحو مصدرها في حين مطّت الجالسة شفتيْها في تهكمٍ لائمةً صاحبة العبارة المقاطعة:

- يا شادية ليه كدا حرام عليكي؟ طيرتي مني الزبون..!!

قالتها ثم انفجرت في ضحكةٍ مرتفعةٍ قصيرةٍ، ابتعد على أثرها الولدان عن تلك الأجواء التي زجَّا بنفسيهما فيها..

بينما ضحكت شادية بدورها وهي ترد:

- زبون إيه يخرب بيت عقلك يا بت إنتي بقيتي بتاعة عيال؟

ضربت كفها بالأخرى، ثم لوحت بهما وهي تهتف:

- يا أختي، وأنا يعني لقيت الكبار وقلت لأ؟ دانا ليلتين بنشّ..

قالتها رافعةً سبابتها للسماء مستطردةً:

- الله يخرب بيت البُعدا.. ضربولنا السياحة في عز الموسم..

صدرت عبر شفتيْ شادية ضحكةٌ أخرى قائلةً:

- يخرب بيت فقرك يا سماح.. قال سياحة قال.. دانتي اللي مشغلاها..

ثم غمزتْ، وهي تستطرد:

- لا والإستايل الخليجي دا كمان لايق عليكي أوي.. وايد حلو..

تقاسما الضحكة بينما سماح تلوح مصرحةً بلغة الغواني:

وحياتك ياختي سفيش مله ساجة حرير.. قال مشغلاها.. أفتحلك البلوتوث حتى أوريهولك.. صحرا.

أشارت لها شادية وهي تتسلق للجلوس جوارها متمتمةً:

- عقبال ربنا ما يتوب عليكي إنتي كمان من السكة دي زي ما تاب عليا..

إلى السماء رفعت سماح كفيها مرةً أخرى، وهي تُغمغم في برودٍ:

- يسمع من بقك ربنا.. دليني بس عالسكة الحلال اللي تجيب قرش وأنا أسيب سكتي دي ..

ابتسمت شادية دون تعليقٍ على العبارة وقد جاورتها في جلستها..

كانت السيارات من حولهم في الشارع قد بدأ عددها في التزايد.. وشعاع الشمس الأصفر يفترش مساحةً أكبر من الطريقِ باعثًا دفئًا رقيقًا في أوصال العابرين.. مع التماعاتٍ ذهبيةٍ فوق سطح حصيرة النيل الممتد جوارهم تُحيط جوانبه بعض مراكب صيد صغيرة ومنشآت مختلفة الحجم والأشكال..

لحظة تأمل عابرة بعين شادية قطعتها سماح وهي تسأل

- وإنتي بقى معدية بالصدفة كدا وللا في مصلحة؟

غمغمت شادية فورًا ودون تردد:

- مصلحة.

اعتدلت سماح متأهبةً، وهي تقول في حماس:

- حبيبتي.. اشجيني.

تابعت شادية في جديةٍ:

- شغلانة تبع محمود باشا.. قاللي إنه هيحتاجنا فيها النهاردة.. وسابلي فلوسها بس مقاللش تفاصيل.. بلّغي إنتي باقي البنات وخلينا على تليفون مع بعض.

ضاقت حدقتا سماح في محاولةٍ لتذكر الاسم وهي تكرره:

- محمود باشا؟ مين محمود باشا يا شادية؟

اندفعت شادية تُذكرها:

- محمود باشا يا بنتي بتاع قعدة (كازينو).

ارتفع حاجبا سماح متذكرةً صاحب الاسم وتراجعت برأسها للوراء تصيح:

- أيوه افتكرته.. الراجل التعبان ده.. هو لسه فيه نَفَس؟

نطقتْ سطرها الأخير بشيءٍ من سخريةٍ انعقد لها حاجبا شادية التي هتفت في حدةٍ:

- بعد إذنك يا سماح.. متتكلميش عن الراجل بالطريقة دي.

لوت شفتيها مستمرةً في تهكمها، وهي تقول:

- ليه يعني؟ وبعدين هو أنا غلطت؟ هو مش دا الراجل اللي وقع في كازينو وجريتي بيه عالمستشفى من كام شهر؟

أومأت شادية برأسها أنْ نعم، قائلةً في إصرارٍ:

- أيوه هو.. وبرضو بكررها.. متتكلميش عليه كدا.

أطلقت سماح ضحكةً قصيرةً أخرى، وهزت كتفيها قائلة:

- ماشي يا ستي.. مش هزعلك.. تأسفاتنا لمحمود باشا.

ثم استطردت:

- مع إني مش عارفة يعني إيه الفرق بينه وبين أي زبون تاني عرفناه؟

تجاهلتْ سؤالها شادية وهي تُخرج من جيبها رزمة أوراق نقدية وضعتها في حِجر زميلتها، قائلة تستعد للرحيل:

- دا العربون اللي دفعه.. خليه معاكي عشان توزعيه عالبنات بمعرفتك والباقي قدَّريه زي ما إنتي عايزة.. المهم تكوني جاهزة لما أقولك.

قالتها ثم ألقت عليها السلام وهبطت راحلةً تتابعها نظراتُ صاحبتها التي جلست تُقلب في الرزمة بين يديْها هامسة في انتعاش :

- مفهوش نفس بس معاه فلوس.

قبل أن تلتفت رامقةً وجه الأسد فوقها مغمغمةً:

- مكشر ليه إنت كمان؟ بتحب محمود باشا برضو؟

نطقت جملتها ثم انفجرت بضحكةٍ عاليةٍ وعيناها ترمقان الرزمة مرةً أخرى..

في استمتاع..

****

الثامنة صباحًا بتوقيت القاهرة..

"جيت؟"

غمغم بها ضخمُ الجثة بعينيْن ناعستيْن وشفتيْن توارت غلظتهما تحت شاربٍ كثٍّ وهو لا يزال ممدًا على أرض المكان يتابعُ فتحي الذي انهمك في تبديل ملابسه فأومأ الأخير برأسه دون ردٍّ، ثم سأل:

- مش مواعيد صحيانك دي يا بيومي.. أنا قلقتك وللا إيه؟

حرَّك بيومي رأسه نافيًا وهو يتثاءب متمتمًا:

- أنا منمتش أصلاً.. مش جايلي نوم من إمبارح.

رفع فتحي أحد حاجبيْه في تعجبٍ وهو يغلق أزرار بيجامته استعدادًا للنوم، ثم غمغم:

- غريبة دي؟ طب وهتبدأ اليوم إزاي دا إنت شغلك في القسم كمان ساعة ونص لسه؟

زفر بيومي في ضيق متلفتًا في المكان حوله بغير قدرةٍ على التركيز في شيء وهو يتساءل:

- الساعة كام معاك؟

أجابه:

- 8 وخمسة.

أنهى عبارته قبل أن يستطرد مستفسرًا:

- وبعدين طالما صاحي كل دا مدخلتلناش الأوضه ليه؟ دا أنا قاعد مع بيلي جوه بقالي شوية حلوين من

ساعة ما رجعت.

بان الشرود على وجه الرجل وهو يُغمغم:

- مش عارف.. مبفهمش حواراتكوا، دي حاجة.. والحاجة التانية إني خايف ودماغي عمالة تودي وتجيب.

أطلق الأخير ضحكةً قصيرةً ساخرًا:

- معقولة دي؟ الأمين بيومي اللي راعب المنطقة كلها بيقوللي أنا حتة التمرجي الغلبان إنه خايف؟!

مطَّ بيومي شفتيْه في عصبيةٍ يُغمغم:

- ومخافش ليه يعني هو أنا مش بني آدم؟

لوَّح بذراعه فتحي وهو يقول:

- بهزر يا عم.

ثم استطرد يسأله:

- إيه اللي شاغل بالك؟ اليوم وللا حاجة تانية؟

أجابه في اقتضابٍ كمن يُلقي الهم بعيدًا عن كاهله:

- اليوم طبعًا موترني.. بس اللي شاغلني أكتر هو محمد.

أدرك فتحي ما يعنيه.. صمت للحظةٍ محاولاً بين ركام الإجاباتِ المنطقية في عقله البحث عن ردٍّ لم يجده.. فاكتفى بمط شفتيه وتحويل الأمر إلى مزحةٍ مرةً ثانية، وهو يتمتم:

- ما له محمد؟ ويشغلك في إيه بس اللي متمش على بعضه تسع سنين ده؟

قالها وهو يتجه نحو الفراغ المتبقي بلا أجسادٍ على أرضية المكان جواره ليتمدد فوقه في حين نهض بيومي من رقدته متجهًا نحو الحمام الصغير وهو يقول في ضيقٍ:

- إنت فايق يا فتحي باين عليك.. فاسيبني في حالي.

اعتدل فتحي من رقدته التي لم ينهها جاعلاً بيومي في نطاق رؤيته، وبملامح كستها الجدية سأل:

- إيه ياعم إنت زعلت من الهزار واللا إيه؟

غمغم بيومي وهو يفتح صنبور المياه في الحمام منتظرًا خيط الماء الرفيع ليغسل به وجهه:

- لا مزعلتش.

ثم تنهَّد مستطردًا بصوتٍ متألمٍ:

- عارف إنك بتحاول تهون عليا.. أنا اللي أعصابي يظهر بايظة النهاردة شويتين.

كانت قطرات الماء النافذة من فوهة الصنبور تتساقط بطيئةً كالدموع مع صوت حشرجةٍ في مواسيرها المغذيةِ تعلن اختناقها بالجفاف.. فأعاد الصنبور لوضعه، واعتدل يُكمل:

- حاسس إن مفيش فايدة يا فتحي.. دماغي بتقوللي يعني هو إيه اللي ممكن يصلح كل اللي حصل ده؟

أنا عكيت الدنيا.. بوظت كل حاجة.. وافتريت على ناس كتير أوي وكأن مفيش عالأرض غيري.

قالها وتنهد ملتقطًا أنفاسه قبل أن يتابع دون توقف:

- مكسرتنيش غير نظرة محمد.. هيا اللي شُفت فيها حقيقتي وعرفت منها حجمي الطبيعي.. فمتستغربنيش لما أقولك إني بجد خايف.

تمتم فتحي:

- حاسس بيك والله يا بيومي.. كتير فعلاً مبيبقاش في إيدينا نصلح كل اللي كسرناه.

صمت بيومي مع كلمة الأخير وأطرق برأسه حزنًا وهو لا يزال يقف أمام الحوض يتطلع إلى وجهه الضخم وعينيْه المنتفختيْن في مرآةٍ قديمةٍ انتشرت بقع الرطوبة فوقها كما انتشر خِزي الماضي فوق ملامحه.

- محتاجين نغير مراية الحمام دي يا فتحي.. شكلنا فيها بقى شبه العفاريت.

قالها محاولاً تغيير دفة الحديث، فأتاه رد الأخير يُعيده إليها قائلاً في شرودٍ :

- احنا اللي محتاجين نتغير ، مش المراية يا صاحبي.

خرج بيومي من الحمام ممسكًا بمنشفةٍ في يده ألقاها على وجه الأخير وهو يهتف بتهكمٍ مريرٍ:

- يا أخي يخرب بيت ردودك..عايز مني إيه يا عم إنت؟ إنت يعني يا تهرج يا تنكد على أهلي؟

قهقه فتحي ضاحكًا وهو يُزيح المنشفة عن وجهه إلى جنبٍ، ثم غمغم معدلاً من وضع رقوده:

- عايز أنام الصراحة.. كفاية عليك كدا.

قالها واستدار برأسه لينام قبل أن يستطرد في بطءٍ:

- على فكرة أنا برضو خايف زيك بالضبط.. بس عايز أقولك إن الخوف ساعات هو اللي بيحركنا ناحية الطريق الصح..

أنا في مشاكل كتير في حياتي كان ممكن الخوف يمنعها.. أو عالأقل يخليني أتحرك عشان ألحقها قبل ما تحصل..

احمد ربنا إن وضعك يا بيومي أحسن من وضعي ..على الأقل خوفك على حاجة لسه مضاعتش.. حاجة لسه قدامك فرصة ترجعها.

تنهَّد..

أغمض عينيه للحظات سكونٍ مع ذكرياته.. ثم أكمل:

- القصد.. خلينا ننسى اللي فات.. ونركز في اللي عايشين عشان نحققه النهاردة.. يجوز نغسل بيه الماضي.

تمتم بيومي وهو يقترب من بذلته الميري البيضاء المعلقة بشكلٍ حاول جعله منظم على ظهر أحد الكراسي المحيطة بطاولة طعامٍ صغيرةٍ في ركن المكان:

- يا ريت يا فتحي.. يا ريت.

رفع فتحي إحدى حاجبيه في تعجبٍ وهو يسأله:

- إنت نازل دلوقتي واللا إيه؟ شغلك لسه كمان ساعة.

شرع في ارتداء البذلة وهو يُجيب:

- مش نازل عالشغل على طول.. هتمشى مع نفسي.. محتاج أشم شوية هوا.

قالها وهو يدور بعينيْه في المكان الضيق بحثًا عن شيء ما قبل أن يشير إلى فتحي هاتفًا:

- ناولني البيريه اللي واقع جنبك دا ونام عشان إنت ابتديت أصلاً تحول وإنت بتكلمني من التعب.

تحسس فتحي الأرض بيده حتى لامست المطلوب فأمسك به وألقاه بالمتبقي له من طاقة على امتداد ذراعه ناحية بيومي متمتمًا في تثاؤبٍ:

أنا فعلاً خلاص مش قادر.. تصبح على خير.

انحنى بيومي يلتقط القبعة التي سقطت أرضًا أمامه، ثم اعتدل يرد:

- وأنت من أهله.

قالها واتجه لفتح الباب الذي أصدر من جديدٍ أنواره وموسيقاه الصاخبة..

وخرج..

***

تثاءب سائق الحافلة المدرسية المتوقفة إلى جنب الطريق في تململٍ من فوق مقعده فاركًا عينيْه وهو يتابع المدرسة المرافقة التي وقفت على عتبة الباب المفتوح منتظرةً التوءمتين الصغيرتين اللتين استعدتا لعبورِ الشارع من الرصيف المقابل تمسك كل واحدةٍ منهما في يدي والدتهما التي قالت في عصبيةٍ جاذبة إحداهن من يدها إلى الخلف:

- قلنا نبص يمين وشمال الأول قبل ما نعدي الشارع يا عاليا.

استسلمت الطفلة للأمرِ لاويةً شفتيْها وهي تتابعُ الطريق الخالي إلى حدٍّ ما من السيارات.. بينما تدخلت الأخرى قائلةً:

- أنا ببص يمين وشمال يا ماما.

هزَّت الأم رأسها، وهي تعبر بهم الشارع في حذرٍ متمتمةً:

- برافو عليكي يا ليلة إنتي شاطرة وبتسمعي الكلام.

أخرجت الطفلة لسانها خلسةً لإغاظة شقيقتها.. ثم قالت تسأل الأم:

- ماما أنا بابا سارة صاحبتي هياخدها النهاردة تتفسح في النادي بعد المدرسة.. ممكن أروح معاها؟

كانت تجذبهم بخطىً واسعةٍ لعبور الطريق في اتجاه المرافقة تلك التي أطلت عليهم بابتسامةٍ من على باب الحافلة فاتحةً ذراعيْها وهي تقول بنبرةِ تشجيعٍ:

- يلا الحلوين ليلة وعاليا.. مين اللي هتدخل الباص الأول؟

هرولت الفتاتان رغم ذراعيْ والدتهما المتشبثة بهما متسلقتيْن بوابة الحافلة لتجذبهما مُدرستهما من حافتها إلى الأعلى، بينما الأم تقول محدثةً ليلة:

- مش سارة دي البنت الشقية اللي عورتك بهزارها في وشك من شهر؟ لا يا ليلة مش هينفع تروحي مع حد.. هتخلصوا المدرسة وترجعوا إنتي وأختك مع بعض في الباص.. ويوم الأجازة أنا هوديكوا النادي بنفسي.

مطت الطفلة شفتيْها تحدثها عبر إحدى النوافذ معترضةً:

- ليه يا ماما؟ أنا عايزة أروح مع سارة.

رمقتها الأم بنظرةٍ محذرةٍ، وهي تقول:

- وبعدين؟

استكانت الطفلةُ دون اقتناعٍ جالسةً إلى جوار أختها، بينما السائق يستعد لإغلاق الباب والتحرك لولا أن استوقفته الأم وهي تهتف:

- لحظة واحدة؟ إنت مين، أنا أول مرة أشوفك؟

رفع الرجل حاجبيْه متعجبًا، بينما تدخلت المدرسة بنفس ابتسامتها توضح للأم:

- دا عم صفي يا دكتورة.. سواق جديد عندنا في المدرسة.. نزل النهاردة معانا بس عشان عم أحمد واخد أجازة مرضي.

ثم التفتت نحو صفي قائلةً:

- دي الدكتورة هناء يا عم صفي.. مامة البناتيت الحلوين دول عليا وليلة.

تدخلتْ إحدى الصغيرتين تهتف:

- اسمي عاليا.. عاااليا.. مش عليا يا ميس.

ثم محدثةً والدتها، قالت:

- دي بتقول اسمي غلط يا ماما.

عنفتها هناء بنظرةٍ، وهي تقول:

- دي؟ اسمها الميس يا عاليا.. خليكي مؤدبة.

ابتسمت لها المُدرسة أنْ لا مشكلة في حين التفتت هي مرةً ثانيةً نحو السائق توصيه:

- خلي بالك من الطريق والنبي يا عم صفي.. امشِ على مهلك.

أومأ الرجل لها أنْ حسنًا، وهو يُطالع ساعته التي أعلنت عقاربها بعض تأخير مغمغمًا:

- متقلقيش يا دكتورة.

ثم ضغط زر الباب الذي تحرَّك منغلقًا أمامها في سرعةٍ كررت خلالها وصاياها للفتاتين:

- امسكوا إيد بعض..

كلوا كل السندوتشات..

اقعدوا مؤدبين في الفصل..

متاخدوش حاجة من حد .. ولو حد اتعرضلكوا من زمايلكم متردوش عليه.. روحوا بلغوا الميس.

تحركت السيارة مع كلماتها مبتعدةً تراقب تلويح الطفلتين لها من داخلها حتى اختفت..

لبرهةٍ وقفت سارحةً مع الأفق قبل أن تتنهد محدثةً نفسها:

- ربنا يحفظكوا.

اتجهت بعد كلماتها عائدةً نحو المنزل..

دلفت إلى المدخل واستقلت المصعد الكهربائي الذي صعد بها إلى طابقها حيث وقفت أمام باب شقتها تطرقه ففتحت لها بجسدها الضئيل خادمتها الآسيوية مفسحةً لها مجال الدخول..

هذا القلقُ الذي بدا جزءًا لا يتجزأ من شخصيتها.. وتلك العصبية المفرطة مع الخوف من كل ما يُحيط لم يكن أبدًا طبيعتها..

كانت أكثر هدوءًا في السابق.. لكن الحياة على وجهٍ قبيحٍ أيقظتها..

لا أمان فوق هذه الأرض.. الخطر يُحيط بجميعنا في كلِّ ثانيةٍ ومن كل الجوانب..

الكلُّ يُكشر عن أنيابه في انتظار فرصةٍ سانحةٍ للانقضاض..

هذا ما أضحت تؤمن به واسترجعه عقلها وهي تدخل إلى المكان وتقف أمام التقويم المُعلق فوق أحد جدران الصالة ..

ذلك التاريخ ..

الثاني عشر من أغسطس.. العام ألفان وخمسة عشر ..

يطالعها بجموده متحدياً ..ويراهن على عدم النسيان ..

معلناً ذكرى مضت منذ عام على يوم تغيرت فيه..

كلياً..

****

-2-

السَّبَبُ الثَّانِي للسَّعَادَةِ

فرحة لمحناها في عيونِ آخرين..

****

تزوجت زينب..

كان زفافًا بسيطًا.. ضمَّته حوائط البيت الصغير..

بعضُ الزينة.. وسلاسل الأنوار المعلقة في المدخل.. مع سماعاتٍ ضخمةٍ تُصدر دبيبًا يعلو فوق صوت الأغاني نفسها..

كراسي المقهى الخشبية استقبلت عددًا لا بأس به من أقارب وأصدقاء العريس طاف صغارهم كنملٍ في أرجاء المكان بقطع الحلوى وزجاجات المياه الغازية..

بضعُ ساعاتٍ من الضجيج انتهى بعدها كل شيء.. مخلفًا الفراغ لنبيل الذي وجد نفسه يقف في المدخل ملوحًا لزينب وهي ترحل..

جميلةً كانت بفستانها الأبيض.. وهذا الفرح البادي على ملامحها لم يره منذ زمنٍ جعلها أجمل..

العروسات جميلات في أفراحهن على أية حالٍ.. لكن جمال زينب في نظره يفوق..

ربما لأنها أخته.. ربما لأنها تستحق.. وربما لأنه لم يجد عزاءً لنفسه من الفراق غير سعادتها..

لوحت له بدورها قبل أن تدلفَ إلى السيارة مع شريكها الجديد مبتعدةً ومن خلفها فوج سيارات ودراجات بخارية ترك قائدوها العنان لصافرات التنبيه الخاصة بهم تعبيرًا عن الفرحة..

لقد رحل الجميع.. وبقي هو..

صعد درج البيت الذي بدا موحشًا برغم الأضواء المبهجة التي انعكس ضيُّها فوق كل الأشياء.. وصوت الأغاني التي لم يزل المكان من بعدِ رحيلهم يصخب بها..

سحب بيده طرفيْ السلك المعلق في صندوق الكهرباء الموجود بجوار باب المدخل فكفت الأغاني وانطفأت الأنوارُ جميعُها، ثم أكمل صعوده بهدوءٍ..

دفع باب الشقة الموارب بقدمه ودار بنظره في المكان المقلوب رأسًا على عقبٍ..

هذه الكراسي الخشبية هنا وهناك سيأتي عاملو المقهى في الصباح لجمعها.. زجاجات المياه الغازية بعضها خالٍ والبعض الآخر مقلوبٌ أفرغ محتوياته فوق الأرضية التي تشربت منها الكثير إلى جوار علب وأطباق طعام فارغةٍ وبقايا قِطع من الحلوى..

يترك كل شيء حوله ويتجه نحو الهاتف ذي القرص الدوار، ذلك الذي أصرَّ والدهم على الاحتفاظ به وفاءً لذكرى قديمةٍ يحملها..

طلب سلوى فأتاه صوتها عبر الأثير..

- كنت مستنية مكالمتك دي.. عارفة إنه شعور غريب..

- "أنا وحيد"..

تمتم لها بالكلمة ناقلاً أصدق شعور يكتنفه ..

لم ينجح في الهروب من حقيقة الأمر التي رددها في نفسه وشعر بها بين حوائط بيتٍ قديمٍ هو كل ما تبقى له..

طمأنته..

أخبرته أن شعوره طبيعي.. تقمصت كعادتها وقت ضعفه دور الحكيم العارف مكتمل الوعي..
لم ينتهِ العالم من حولك.. سيستمر بصورٍ مختلفةٍ.. وستستمر كذلك معه ذكرياتك هنا في البيت الصغير..
تعيش فيه بنصيبٍ من معاش والدك.. مختزنًا جزءًا من ميراثك المستحق..
ستبحث عن وظيفةٍ تُحقق خلالها ذاتك.. وستتكرر زياراتك لزينب وزوجها هذا الذي أعلم أنك لا تطيقه..
ثم وبغضِّ النظر عن كل ما سبق.. سأظل دومًا هنا معك..
أي وحدة تلك التي تحدثني عنها وأنا بالقرب منك؟ بلواك التي لا فرار لك منها..
حدثته بذلك ونفذته على مدى أسابيع ظل خلالها على حاله بنفس الشعور..
حساسية مفرطة تكتنفه وتشوِّش في عينه الرؤية..
رغم مكالماتها.. يستشعر انشغال زينب بزوجها عنه..
رغم محاولاتها.. يستشعر تعاطف سلوى في حديثها معه..
يسكنه الحزن برغم وجودهم مستسلمًا لأشجانه.. مصدقًا هذيان شعوره المختلق..
قلَّت مكالماته وزياراته لزينب..
وتغيَّر مع سلوى أسلوبُه..
برغم احتياجه الشديد لها أصابها بداء الملل.. وكأنما طرح الأسى بذوره فوق أرضٍ كانت تجمعهما..
خسرها باستسلامه للحزن..
آخر لقاء لهما تقاسما فيه الخطى كعادتهما يبحثان عن وظيفةٍ.. تحدثت هي كما اعتادت.. ثم جاء عليه الدور فصمت..
غُصة من الضعف كتمته ولاحظتها..
في بعض الأحيان نجد أنفسنا وقد وقفنا عاجزين مستسلمين أمام ضياع أشياء كان الموت في سبيل بقائها أفضل..
تظل الأنفاس الواهنة تُعاتبنا.. أي شيء سلبنا إرادة الدفاع عنها؟..
لو كان الخوف لقضى عليه خوفنا الأكبر من الفقدان..
ولو كان الضعف.. فالضعف في حضرة المحبين قوة..
ليته شيئًا واحدًا ليقتل.. لكنه خليطٌ من الأشياء..
خليطٌ من المشاعر الجاثمة ضاقت بها أنفاسه فتمتم لها في آخر طريق عودتهما ذات ليلةٍ بصوتٍ مختنقٍ:
- بكره متصحينيش معاكي.. انزلي لوحدك كملي تدوير.. عشان أنا تعبت.
فهمت معنى العبارة التي لم يُدرك نفسه كيف صاغها.. ثم رحلت في حرجٍ متألمٍ لتنفيذ مطلبه..
تركته متفرغًا للوحدة بعدها.. عاكفًا في البيت لا يبرحه وكأنه يستعد لفراقه هو الآخر على يد زوج

شقيقته الذي أتاه ذات يومٍ مطالبًا بنصيبها في الشقة الباقية من التركة لم تَقسم..

لم يعترض نبيل..ٍبدافع استسلامه لكل شيء لم يعترض.. بيعت الشقة وتقاسموا ثمنها الذي استأجر بنصيبه منه غرفةً أصغر على سطح نفس البناية..

غرفة شاركت أنفاسه ضيقها.. وكثير من الأسى على ما تغير من أحوال.. مع ذكرياتٍ اعتاد عقله اجترارها في لحظات ونَسٍ بينه وبين سماء ليالٍ كان يمضيها جالسًا بجوار السور المرتفع أمام بابها الخشبي..

فوق السطح.

****

التاسعة صباحًا بتوقيت القاهرة..

مرتحناش .. من يوم ما سافرت.. واستنينا يجينا الرد..

مرتحناش من يوم ما سافرت.. واستنينا يجينا الرد.. كنا زمان في الهوا دايبي-

.....صمت.. مع زفرة ضيق..

مرتحناش من يوم ما سافرت.. واستنينا يجينا الرد..

مرتحن-...

.....

مرتحناش من يوم ما سافرت.. واستن-..

زفر ثانيةً بلال مرزوق المنولوجست نحيل الجسد طويل القامة في ٍحنقٍ وهو يمد يده للمرة الثالثة ناحية الهاتف الملقى بالقرب من جسده الممدد على أرضية المكان ضاغطًا زرَّ إلغاء المكالمة قبل أن يُمسك به هذه المرة ويلقيه لأعلى نحو صاحب الكرش الضخم صائحًا في غيظٍ:

- عنك ما ارتحت يا بعيد.. اصحى يا عم إنت موبايلك مش مخلينا عارفين نغفّل.

فتح محمود عينيْه بغتةً مع ٍارتطام الهاتف بوجهه ونَدَّت منه آهة حادة لم يهتم لها بلال وهو يُعاود محاولات نومه الفاشلة مرةً أخرى..

لحظات مرَّت استوعب فيها رفيقه الموقف فتمخضت شفتاه لفظًا كاد أن يفصح عنه لولا ارتفاع رنين هاتفه من جديدٍ.. رفعه بيده متطلعًا عبر الشاشة الصغيرة التي قرَّبها من عينه للحد الأقصى يقرأ اسم مُحدثهٍ.. ثم نظر إلى الساعة التي أشارت عقاربها إلى التاسعة وبضع دقائق صباحًا قبل أن ينقله إلى أذنه ضاغطًا زرَّ الإجابة وهو يُغمغم بصوتٍ بدا فيه النعاس هو المسيطر:

- صباح الخير يا شادية.

أتاه صوتٌ أنثوي عبر الأثير من الجانب الآخر مرتفعًا واضحًا في أذنه وكرذاذ حروف على مسامع بلال الراقد بالقرب منه مستفزًا فضوله الذي تغلب عنده على الرغبة في النوم..

صمت محمود مستمعًا قبل أن يُجيب:

- يعني إيه في الشارع من دلوقتي؟ لا أكيد مش بدري أوي كدا.. أساسي كنت هكلمك أول ما أصحى طبعًا.

لحظة صمت أخرى..

- بالذمة دا صوت واحد صاحي؟.. يا بنتي أنا اللي عايزك.. بقولك إيه؟ اقفلي يا شادية وهكلمك لما أصحى كدا وأكون فايق.. سلام.

بادلته شادية بضع كلماتٍ من الجهة الأخرى أنهى على إثرها المكالمة بسرعةٍ بدت طريقتها في نظر بلال غير مباليةٍ فاعتدل بجسده ساندًا ذراعه على الأريكة، وهو يسأل:

- شادية اللي كانت بتكلمك؟

في غير اهتمام تأكد بنفس طريقة الرد مستخدمًا عينًا ضعيفة النظر من إغلاق المكالمة قبل أن يلقي بالهاتف إلى جَواره فوق الأريكة وهو يمطّ شفتيه متمتمًا:

- الله؟!.. دا إنت مركّز مع المكالمة ومش عايز تنام بقى؟!

لوَّح بلال بيده في غيظٍ، قائلاً:

- أنام إزاي وعمرو دياب بتاعك شغال زن جنب وداني كل خمس دقايق؟ دي اتصلت أكتر من خمس مرات..

قال مرتحناش قال يا تسعيناتي يا متصابي.

أشار إليه محمود:

- خليك في حالك طيب يا عم القديم.. الحاجات دي إنت ملكش فيها.

تنهد بلال خافضًا رأسه لوهلةٍ.. قبل أن يعاود رفعها متسائلاً بنفس العصبية:

- يا أخي أنا مش فاهم إنت أي واحدة في الدنيا دي ممكن تعرفك على خيبة إيه؟ إيه اللي ممكن تشوفه مهم يعني فيك واللا مميز أنا مش واخد بالي منه؟

راق اغتياظه الواضح بين الحروف لمحمود وأثار فيه غرورًا وجد نفسه يتمتم به وهو يجيبه متهكمًا:

- إيه يا بلبل إنت غيران وللا حاجة؟

بدت البلاهة على وجه بلال وهو يُعدل من وضعه مؤكدًا التطلع في وجه صديقه الواثق بفمٍ مفتوحٍ ولسانٍ علق اضطرابًا للحظة قبل أن يقول في حدَّةٍ:

- غيران آه.. باصصلك في الكرش والصلعة والحاجة وستين سنة اللي عندك.. يا أخي بلا كلام فاضي.

جاءه ردُّ محمود على هيئة ضحكةٍ طويلةٍ أدرك منها وقوعه في شَرك الاستفزاز الذي نصَبه له، فاستطرد في حنقٍ:

- ماشي يا كتلة الرخامة.. أنا الغلطان أعطل نفسي في كلام فاضي معاك بدل ما أركز في اللقاء المهم اللي هعمله كمان كام ساعة.

قالها وهو يُعيد جسده إلى وضعية الرقود، بينما اعتدل نحوه محمود قائلا في اهتمامٍ:

- خلاص يا عمي متزعلش.. واستنى متنامش عايزك.

سأله بلال متململاً:

- عايز إيه؟

تحسست يد محمود الأريكة على الفور تبحث عن هاتفه الذي ألقاه منذ قليلٍ عليها، قائلاً:

- جاتلي رسالة عالموبايل الساعة 2 الفجر ومعرفتش أقراها عشان نظري زي ما أنت فاهم.. عايزك تشوفهالي.

تمتم له بلال وهو على وضعه دون أن يلتفت:

- طيب يا محمود خليها دلوقتي.. هقراهالك لما أصحى.

اعتدل محمود أكثر ملتفًا بأطنان الشحوم على جسده إلى وضعٍ أقرب للجلوس مادًّا يده يهز بها كتف بلال في إصرارٍ، قائلاً:

- لما تصحى إيه دا أنا كنت ناوي أصحيك أصلاً ساعة ما وصلت.. معلش أنا شاكك إنها من بنتي.. هي الوحيدة اللي بتبعتلي في الأوقات الغريبة دي.

من خلف أثر النعاس المغلف لعبارته أجاب بلال:

- مش شرط يا محمود.. ما يجوز إعلان من شركة الاتصال واللا عرض بامبرز مقدمينه لعملائهم المميزين.

هزَّ محمود رأسه أن لا، وهو يجاوبه محاولاً تحفيزه:

- لا يا بلال "هيا" أنا عارف.. ولولا مشكلة الشبكية اللي في عيني والدكاترة اللي قالولي ماجهدهاش كنت قريتها.. فانجز كدا وخليك جدع عشان أسيبك تنام.

مرَّت لحظة سكون بعد انتهاء عبارته قلب خلالها بلال تهديد الأخير في رأسه قبل أن يعتدل متطلعًا إليه وهو يقول:

- ناولني الموبايل يا رخم خلينا نخلص.

تهللت أسارير محمود وهو يناوله الهاتف في سرعة مراقبًا بتلهف أصابعه التي ضغطت الأزرار استعدادًا للقراءة قبل أن يبتسم الأخير مغمغمًا بشيء من سخريةٍ:

- سبحان الله.. بنتك شكلها عبيطة زيك يا محمود.

قالها، فمال نحوه الأخير بلهفته يتساءل:

- طلعت "هيا"؟

أومأ برأسه قائلاً وهو يُعاود التطلع في الشاشة أمامه:

- مش باعتالك غير بيتين شعر سمعتهم في حتة تقريبًا واللا إيه أنا معرفش.

- ملكش دعوة.. اقراهم بس.

حثه بالكلمة محمود فتثاءب قبل أن يشرع قارئًا بصوتٍ مسموعٍ:

اسمع يا سيدي بتقولك إيه:

عشان خاطري.. تسيب الحب يتعود عليك وحده..

وسيبه لوحده هيغير كتير أوي فيك..

مفيش ولا حلم هيسيبك تموت بعده..

دا حلمك أحلى شيء فيه إنه بيصحيك..

وأنا في البعد مش بعند..

ولا اختارت الف-...

قطع قراءته قبل اكتمالها.. والتفت إلى صوت هنات البكاء التي صدرت عبر أنفاس محمود الذي أخفى وجهه بين راحتيْه للحظاتٍ تمتم بعدها بصوتٍ متهدجٍ:

- كمِّل يا بلال.. سكت ليه؟

تنهَّد بلال في إشفاق وهو يتطلع إليه قائلاً:

- أكمّل إيه ياعم بس! هو أنا كل ما هقرالك رسالة منها هتعيط كدا؟

على حاله ظل محمود لثوانٍ قصارٍ تمالك خلالها بعض الجأش وغمغم:

- وحشتني أوي يا بلال.

ثم عاد ليُخفي دموعه المنهمرة من جديدٍ بين كفيه وهو يكمل:

- اعذرني.. أنا آسف!

راقبه بلال في صمتٍ للحظاتٍ مستشعرًا كمَّ أساه المختزن قبل أن تفصح شفتاه عن عبارةٍ همس بها بصوتٍ خفيضٍ:

- ولا يهمك.

قالها وهو يُعاود تأمل ما تبقى من الكلمات..

كان يعرف سرَّ أوجاع الأخير ويتفهمها..

هو مثله كذلك..

يُدرك أن فراغًا يتركه الغائبون وراءهم لا مالئ له غير الدموع..

ليته ينسى.. وليت رفيقه يفعل..

حتى النسيان يبدو لهم هروبًا صعب المنال..

هم عاشقو ذكرى لا يملكون في الحياة سواها..

رحلت عنه رغبة النوم..

تنهد ثم نهض في هدوءٍ تاركًا لرفيقه خصوصية الحزن..

اتجه إلى حيث حقيبةٍ قماشيةٍ صغيرةٍ ملقاةٍ بركنٍ من أركان المكان مدَّ يده داخلها ملتقطًا بعض أشرطة تسجيل قبعت تحت كمٍّ من الأتربة فيها..

حملها بين كفيه نافثًا عنها الغُبار..

هنا ما تبقى له من ماضٍ يفتقده..

وذكريات تُراود اشتياقه في كل صباح..

****

في آخر نفقِ العدم المحيطِ به رآها..

سيدةً عجوزًا كانت.. تقف متشحةً بعباءةٍ سوداء وتحمل في يدها أكياسًا مُلئت ببعض الحاجيات على ناصية ذلك الشارع الضيق في انتظار إحدى عربات التوكتوك..

بجوارها على الرصيف جلس صبي صغيرٌ بدت على وجههِ أمارات التعب والتأفف، أشارت إليه أن انهض وأنفاسها المجهدة بدورها تسبق كل الحروف قائلةً:

- قوم يا ابني من عالرصيف هتبهدل هدومك.

ضرب الفتى الأرض بقدميْه صائحًا في تذمر:

- أنا تعبت بقى يا تيتة.. بقالنا ساعة بنلف في السوق.

منحته ابتسامةً مشجعةً رغم التعب أخفت وراءها آلام عظامها الروماتيزمية، وهي تقول:

- معلش يا حسام أديك بتساعد تيتة عشان تحضرلك الأكل اللي بتحبه.. مش إنت بتحب المسقعة برضو؟

بنفس التذمر أجاب:

- لا مش بحبها خلاص أنا تعبان أوي ورجلي وجعتني.

قالت له في تعاطفٍ:

- خلاص هانت يا حبيبي.. هنشاور لأي توكتوك نركبه يدخلنا الشارع جوه.. ومش هنمشي كتير.. استحمل معلش.

لم تمضِ دقائق بعد كلامها حتى توقف بالفعل أمامهم أحد التكاتك التي أشارت إليه في حين هتف الصغير مستنجدًا:

- آخر الشارع معاك.

أشار الرجل بالموافقة لهما، فاستقل مع جدته العربة الصغيرة التي انطلقت بهما متقافزةً مرتجةً فوق مقبات الطريق ومطباته..

من حسن الحظ أن حصلوا على توصيلة في مثل تلك الساعة المتأخرة من بعد انتصاف الليل..

الشارعُ مُظلمٌ لدرجةٍ مقلقةٍ.. والكلاب الضالة تنبحُ متراكضة خلف العربة الصغيرة المنطلقة، بينما الصوت الصاخب للأغنية الشعبية التي يرافقهما بها السائق رحلته يصم أذن السيدة الكبيرة ولا يعلو فوقه سوى صوت آلام عظامها المتزايدة مع الارتجاج..

وصلوا إلى البيت أخيرًا، فترجَّلا..

امرأةٌ عجوزٌ منهكةٌ وفتى صغيرٌ يُصارع للبقاء يقظًا..

البنايةُ المستقرة أمامهما بقدرةٍ إلهية رغم قدمها تنتظر..

دلفا بحملهما إلى مدخلها المعتم..

الظلام دامسٌ..

والفتي يُقاوم رغبة النوم المسيطرة حتى كاد لا يقوى على رفع قدميْه عتبةً واحدةً..

نظرت إليه مغمغةً:

- استحمل يا حسام مش هننام عالسلم.. لما نطلع نام براحتك؟

أغلق حسام عينيْه واستند بجسده عليها مغمغمًا:

- عايز أنااااااام.

في اللحظة التي دلف فيها خلفهما إلى المدخل ذلك الجارالذي ما أن تبينها من وسط العتمة حتى ألقى عليها التحية قائلاً:

- حاجّة وداد أخبارك إيه؟

هزَّت هي رأسها وهي تنظر إليه مجيبةً:

- بخير الحمد لله يا إبراهيم.

ثم تركته ينحني نحو الصغير مداعبًا، وهو يقول:

- إزيك ياعم حسام؟ ..ها ؟؟ اتجوزت واللا لسه؟

لم يُجبه صاحب الخمس سنوات، فمدَّ يده يربت على رأسه مرةً أخرى مستفهمًا قبل أن تُشير إليه وهي تمسح بكفها على رأس الصغير متمتمةً:

- لا حسام كدا خلاص بياكل رز مع الملايكة.

ثم تابعت ويدها تتحسس الحائط في الظلام بحثًا عن زرِّ إضاءة السلم:

- لسه صغير يا حبة عيني وأمه مش معوداه عالمرمطة.. خدته معايا السوق ولفينا نجيب حاجات للغدا بكرة عشان عازمة عيالي عندي فراجع زي مانت شايف كدا.

ضحك الجار ضحكة قصيرة وهو يرد:

- ربنا يخليهولكوا ويديكي الصحة.. هو الحفيد الأولاني كدا فأي عيله بيبقى متدلع.. أمال خاله فتحي فين؟

تنهدت قائلة بعد آهة ألمٍ ندّت رغمًا عنها:

- ربنا معاه هو كمان تقريبًا عنده ضغط في المستشفى النهاردة.. كلمته أكتر من مرة عشان يجيبلي اللي محتجاه وهو راجع مردش عليا.

قالتها ثم التفتت تتطلع بعينٍ حاولت بها تبديد الظلام المسيطر نحو السلم القديم الذي بدا أمامها شاهقًا متحديًا وتمتمت:

- إيه العتمة اللي إحنا فيها دي؟

هزَّ الجار رأسه مغمغمًا:

- الكهربا قاطعة بقالها ساعتين ومش هترجع الليلادي.

زفرت في ضيقٍ ثار معه ألمها مغمغمةً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ليه كدا بس؟

هزَّ كتفيه بلا معنى، وقال:

- ولا أعرف.. كلمت المصلحة قالولي إن في عطل في كبل المعرفش إيه وهياخد وقت في تصليحه.. أنا حتى كنت نازل أجيب شمع عشان الجماعة عندي بيخافوا يناموا في الضلمة.

ابتسمت له قائلةً:

- آه ومالـه.. الشموع حلوة بتدي نور ورومانسية في نفس الوقت.

ضحك مرةً أخرى، ثم تقدم بعرض خدماته قائلاً:

- طب هاتي عنك بقى الحاجة اللي إنتي شايلاها دي يا ماما أطلعها معاكي.

أشارت إليه أن لا وهي تتشبث بما في يدها وترد:

- لا سيبلي أنا الحاجة دي خفيفة عليا.. إديني بس شمعتين ماللي جبتهم دول أنور بيهم عندي.. وشيللي حسام بس طلعه معايا عشان تبقى خدمتني.

لم ينتظر الرجل سماع المزيد فأخرج مما في يده اثنين أعطاهما لها ثم همَّ بحمل الصغير الواقع في مرحلة النوم الرمادية ورفعه إلى صدره قائلاً:

- بس كدا ياام فتحي؟ دا إنتي تؤمري.

صعدا السلالم المتهالكة معًا لا يبطئهما سوى خطواتها الثقيلة.. وأنفاسها الأثقل..

يئنُّ الأورطي تحت أطنان شحمها.. وينفرد الروماتيزم بتعذيب مفاصلها..

تقف بين الهينة والأخرى مستندةً إلى السور جوارها لالتقاط الأنفاس، ثم تتابع الصعود حتى وصلا.

فتحت الباب بمفتاحها القديم.. أفسحت للرجل مجالًا دلف خلاله بحمله ووضعه فوق الأريكة الكبيرة في الصالة مغمغمةً تشكره:

- كتر خيرك يا ابني.. معلش تعبتك معايا.

هزّ رأسه لها أنْ لا داعي لمثل تلك العبارات وهو يتمنى لها مساءً سعيدًا عاد معه أدراجه إلى الخارج لتغلق هي الباب من ورائه في هدوء..

***

بأناقته المعهودة.. ووجهه البارد الخالي من أي تعبيرٍ على صوت كعوب المدافع المرتطمة بالأرض والأيادي المرتفعة بتحيةٍ عسكريةٍ على جانبيْه دلف..

تُلاحقه الأقدام المرتبكة إلى داخل مركز الشرطة والأكف المرتعشة بالتحية كأصواتهم بين الحين والآخر..

صباح الخير سعادة الباشا.

صباح الخير يا ياسر باشا.

في الثلاثينيات من عمره كان.. وسيمٌ لدرجةٍ صنعت تباينًا صارخًا بينه وبين ما حوله من وجوه بشوارب ضخمة وأجسام مترهلة..

مغرورٌ بشكلٍ لم يسمح له بالنظر حتى في وجه أحدهم وهو يتابع طريقه المخلى أمامه برغم الازدحام متجهًا إلى مكتبه الخاص الذي استقبله بمعطر الورد المنتشر في أرجائه..

ضاقت حدقتاه للحظةٍ بعد الدخول وهو يقف في منتصف الغرفة مستنشقًا الرائحة الزكية قبل أن يُغمغم في هدوءٍ دون أن يلتفت:

- أنا قلتُ للحمار اللي بيرش المعطر دا إن ريحته بتخنق لو اترش زيادة.

أتته الهمهمات من ورائه، فالتفت بهدوءٍ نحو اثنين من عساكره وعامل الشاي الواقفين خلفه صائحًا:

- ياريت حمار تاني بقى يفتحلنا الشباك عشان ريحة الزفت العالية دي تخف شوية.

سارع أحد العساكر بتنفيذ الأمر.. بينما اندفع الآخر لتعلية درجة التبريد بالمكان.. قبل أن يشير هو لكليْهما بالخروج.. في حين اقترب حمدي عامل الشاي واضعًا فنجانًا من القهوة أمامه متمتمًا:

- صباح النور معاليك.. القهوة المظبوطة بتاعة سيادتك.

قالها وهو يقف كالعادة منتظرًا التمام من سيده عبر رشفة أولى يعلن بعدها عن رضاه.

مدَّ النقيب ياسر يده ممسكًا بالفنجان ثم رفعه نحو شفتيْه مرتشفًا منه القليل في بطءٍ حارقٍ لأعصاب الرجل المنتظر يتأمل في كل تفاصيله..

الشعر المصفف بعناية.. الملابس المهندمة..

ساعة اليد الجذابة بشكلٍ لا يُوصف..

وفنجان القهوة التي أعادها الأخير إلى مكانها معيدًا معها الرجل إلى واقعه وهو يمني نفسه بعدم التعنيف ككل يومٍ قبل أن يتساءل:

- إيه يا باشا؟ أغير لحضرتك القهوة لو مش عاجباك؟

أشار إليه باقتضابٍ خالعًا سترته ليضعها على ظهر كرسيه الجلدي الوثير:

- غيرها آه.. ومتجيبش قهوة أصلاً عشان قريت إنها بتضر الكبد.. هاتلي عصير برتقال.

أومأ حمدي برأسه على الفور أنْ سمعًا وطاعةً رغم عدم توافر البرتقال..

الباشا لا يعنيه في شيء ما إذا كان طلبه متاحًا في المكان أم لا..

حتماً سيأتيه بالبرتقال حتى وإن اضطر لزراعته..

دار ما دار بخاطره في بضع ثوانٍ وهو يرد:

- تحت أمر معاليك.. دقايق ويكون العصير عند سيادتك.

أمال له الآخر طرف شفته مبتسمًا، وهو يقول:

- تقريبًا إنت الوحيد هنا يا حمدي اللي لسه مصابوش النهاردة داء الحمورية.

هزَّ الرجل رأسه بلا معنى، بينما تابع الأخير بنفس الهدوء:

- خدت بالك من الحمار اللي رايح يزودلي التكييف أصلاً وإحنا فاتحين الشبابيك؟.. دا لو جحش صغير مكانش هيعمل كدا.

تساءل الرجل في اهتمامٍ حذرٍ:

- تحب سيادتك أطفيه؟

أشار إليه أنْ لا، قائلاً:

- لا، سيبه وروح شوف اللي وراك.

هزَّ رأسه مرةً أخرى، ثم تمتم:

- تؤمرني بحاجة تانية حضرتك؟

بغير اهتمام أجابه وهو يشير إليه بالرحيل:

- متنساش العصير!

هز رأسه مرةً أخرى ثم خرج من المكان مغلقًا الباب خلفه قبل أن يتنفس الصعداء..

على الفور اقترب منه زميلاه العساكر وأحدهما يسأله:

- ها.. إيه الأخبار؟

أشار إلى أحدهما قائلاً في شماتة:

- قال عليك حمار.

ثم أشار ناحية الآخر.. مكملاً:

- وعليك إنت كمان.

ثم أشار إلى صدره، وتابع:

- وأنا لسه جحش صغير لحد ما أجيبله العصير اللي طلبه.

قالها وانطلق تاركًا الزميلين يحاولان استيعاب كلماته.. متطلعيْن كلاهما نحو الآخر في بلاهةٍ..

***

انتهى بلال من إعداد القهوة خاصته وهو يقف داخل المطبخ الصغير في المكان باحثًا عن فنجانٍ صغيرٍ صبَّ فيه ما صنع قبل أن يخرجَ به متحركًا في بطءٍ بين الجسديْن النائميْن متجهًا إلى الخارج..

بعض هنَّاتٍ صدرت من خلفه فالتفت إلى مصدرها ليجده فتحي وقد تعرَّق جسده بالكامل وهو يرقد مغمضَ العينين يُقاوم كابوسًا ما خلال نومه فوضع الفنجان الساخن جانبًا ومال نحوه يُحاول الاطمئنان عليه:

- فتحي؟ إنت صاحي؟

لم يجبه الغارق في عالمه السرمدي.. بينما ارتفعت في ذات اللحظة بشكلٍ مفاجئ داخل المكان موسيقى السيرك مع تلك الأنوار المختلفة التي صاحبت طرَقات على الباب الخارجي من يدٍ لا تطيق الصبر..

زفر في انزعاجٍ من هذه الضوضاء المفاجئة ثم همَّ متجهًا نحو الباب ليفتحه..

على عتبة الباب ومن خلفها السطح وقفت بعباءتها السوداء شادية.. تذكرها بتلك الوحمة الكبيرة إلى جانب عينها والتي حاولت تغطيتها بقلم تحديد بالغت في استخدامه حول العينين..

بفمٍ يلوك كتلةً ضخمةً من العلكة بدا أنها لا تنتهي خرج سؤالها:

- محمود باشا هنا؟

ظل صامتًا يتطلع لها برهةً فمدَّت هي رأسها إلى داخل المكان تُحاول رؤية ما خلف كتفه، قائلةً:

- إنت مبتردش ليه؟ الباشا موجود واللا لأ؟

امتلك هو في لحظته زمام الكلمات فأشار إليها يتساءل:

- باشا إيه يا بنتي؟

تراجعت واضعةً يدها في وسطها مكررةً مع مللٍ:

الله؟ ما أنا قلت عايزة محمود باشا.. أغنيها؟!

تنبه لطريقتها الفجة في الحديث معه فهم بتوبيخها لولا أن قاطعه صوت محمود الناعس من خلفه يهتف:

- إنتي جيتي يا شادية؟

ما أن سمعتٍ هي الصوت حتى اندفعت إلى داخل المكان مزيحةً بيدها بلال الذي أفسح لها الطريق مرغمًا، قائلةً في لهفةٍ:

- طب ما الباشا جوه أهو.. إوعالي كدا فسّح لي طريق.

ثم استطردت ناظرة إلى محمود الذي ظل مستلقيًا كما هو فوق أريكته يرمقها بعينيْه المنتفختيْن:

- جيت يا باشا.. فوق كدا وكفاية كسل.. الظهر هيأذن وإنت لسه نايم؟

قالتها وهي تتجه نحوه خالعةً عباءتها التي ألقت بها على جنبٍ.. فتمتم وهو يرفع يده في تكاسلٍ دون أن يتحرك من مكانه ممسكًا بيدها يصافحها مازحًا:

- الضهر هيأذن؟.. ماشي يا بنت إمام الزاوية.

ثم أشار إليها بالجلوس، فابتسمت لتهكمه وهي تقول:

- ما تتريقش طيب.. أنا صحيح لسه ملتزمتش بكل الفروض بس أهي بداية.

جلست حيث أشار وتأملت المكان من حولها بعينين خاويتين التقطتا جسد فتحي الراقد بالقرب منهم، مستطردة:

- إيه عشة الفراخ دي يا محمود باشا؟ ومين اللي نايم هناك ده؟ إنت مأجر أوضة شِرك؟

ابتسم لامحًا نظرة الاستنكار المرتسمة على وجه بلال الواقف خلفهما قبل أن يُحدثها قائلاً:

- بطلي أسئلة دلوقتي وقوليلي.. إيه اللي جايبك بدري كدا؟ يا بنتي أنا مش قايلك لما أصحى هكلمك؟

مسحت بيدها فوق صدره قائمةً بما يشبه التدليك وهي ترد:

- عادي يعني أنا ورايا حاجة؟ ما أنت عارف من بعد ما سبت الشغل وأنا فاضية.. وبعدين مش أحسن ما أتأخر عليك؟

ربت فوق يدها الماسحة على صدره قبل أن يحملها بعيدًا عنه احترامًا لنظرة بلال الواقف مشدوهًا وراءها بجوار الباب المفتوح.. ثم قال في امتنانٍ:

- ربنا يخليكي يا شادية.. طول عمرك جدعة وأنا عارف.

ثم دفعها في كتفها يحثها على النهوض مستطردًا:

- بس معلش قومي اقعدي برة كدا ربعاية لحد ما أفوق وأطلعلك.

رمقته هي بعينها في تشككٍ مغمغمةً:

- شكلك هتنام تاني.

هزَّ رأسه وهو يسحب نفسًا عميقًا من الهواء ملأ به صدره قائلاً:

- يعني.. ربعاية كدا وهطلعلك.

ثم استطرد وهو يُحاول الاعتدال في مكانه:

- ناوليني بس إزازة المية اللي جنب رجلك دي الأول عشان ريقي ناشف.. والبسي عبايتك عشان الهوا على سطوحنا هنا بحري.

استمرت في النظر إليه منحنيةً تجلب له زجاجة المياه.. فأخذها منها قبل أن تنهض كما طلب مغادرة المكان إلى الخارج مارة من أمام بلال الواقف على نفس حاله بجوار الباب يتابعها في امتعاضٍ ميزته، فقالت محتدة:

- إيه يا عم إنت بتبصلي بقرف كدا ليه؟

ارتفع حاجبا بلال لأسلوبها في دهشةٍ، فغمغمت:

- هوا إيه أصله دا؟

ندَّت من بين شفتيْ محمود خلفهما ضحكةٌ قصيرةٌ أشار بعدها إلى بلال قائلاً:

- معلش يا بلبل شوف شادية تشرب إيه بس على ما أقوم.

التفت بلال نحوه مستهجنًا الطلب في حين عادت هي إلى الداخل ملتقطةً عباءتها مع فنجان القهوة الذي تركه الأخير لتوه قبل فتح الباب قائلة:

- لا مفيش داعي للتعب.. أنا هشرب كباية البن دي لحد ما تفوق لي.

قالتها.. ثم عادت متجهةً إلى خارج المكان عابرةً مرةً أخرى من أمام بلال الذي انتظر حتى ابتعدت قبل أن يستدير بكل حنقه في وجه محمود صائحًا:

- ميؤمرش البيه أحضر لسيادتها الفطار كمان على ما هو يكمل نومه؟

ملوحًا له بالهدوء أشار محمود وهو يغمغم:

- يا عم بلال متكبرش الدنيا أوي كدا.. دي ضيفة وأخوك اللي طالب منك تقابلها بس بشكل كويس.

ألقى بلال نظرةً عابرةً إلى الخارج ليتأكد من أنها لا تسمعه وهو يقترب من الأخير يجيبه بعصبيةٍ:

- ضيفة إيه ياعم إنت مش واخد بالك من أسلوبها واللا إيه؟ دي داخلة كأنها صاحبة بيت.. وبعدين خدت كباية القهوة اللي عاملها لنفسي من غير استئذان ولا أي حاجة.

تبسم في وجهه محمود محاولًا امتصاص غضبه وهو يوضح:

- دي بت غلبانة يا بلال وإنت عارف.. متاخدش على طريقتها وثقافة التعامل اللي الشارع عودها عليها..

استحملها الشويتين دول معلش بس .. أنا هاخد تعسيلة سريعة كدا واطلعلك.. وبالنسبة للقهوة عليا أنا يا سيدي لما أقوم هعملك غيرها.

لم يجد بلال ما يرد به.. فأطلق همهماتٍ غير مفهومةٍ قبل أن ينصرفَ خارجًا إلى السطح حاملاً معه الكثير من التأفف والحنق..

****

-3-

السَّبَبُ الثَّالِثُ لِلسَّعَادَةِ

كُلُّ مَا طَابَ مِنَ الْوَجَعِ..

****

على السطح هناك..

في مساحةٍ ضيقةٍ.. ومن فوق فراشٍ صغيرٍ يجاوره كرسي خشبي وستارة داكنة لم يجد البتة دافعاً لإزاحتها عن نافذةٍ تقبع خلفها رغم شهورٍ عليه مرَّت في غرفته الجديدة..

صباحٌ آخر مُجدِّد لليأس الذي استوطنه..

مستسلمٌ حدَّ الثمالة لكلِّ ما تغير حوله من أشياء.. راقد يتأمل المروحة المعلقة تدورُ أذرعها الواحدة تلو الأخرى ببطءٍ وكأنما تجرُّ بدورانها اليوم تلو الآخر مع صوت أزيز احتكاكها المعدني الرتيب في سقف المكان الذي بدا أشبه بحظيرة ديوكٍ من فرط قلة تنظيمه..

تحت قيد حالة من الفقد البطيء يحيا منسيًّا بإرادته دون انتظارٍ لشيءٍ..

أمست زياراته لبيت زينب خجلى..

وأمست سلوى.. تلك التي سبقته في الحصول على وظيفةٍ بشركة اتصالات معروفةٍ امرأةً غاب تمامًا عن نطاق وجودها..

كان يُتابعها من فوق سطحه أحيانًا وقت عودتها في ساعة الغروب متواريًا خلف ستار حنقه والانهزامية المسيطرة عليه منهيًا برؤيتها يومًا سيتبعه بنفس الطريقة آخر..

لم يكن ما ترك الوالد كافٍ لمثل حياة الضياع تلك إلى الأبد.. وعلى هذا فقد اضطر نبيل بلا دافعٍ حقيقي لخوض طريق البحث عن عملٍ..

ارتضى عملاً بسيطاً في بقالةٍ صغيرةٍ تكفي فقط لسد احتياجاته اليومية ضاربًا بعرض الحوائط كل طموح..

سارت به الأيام هونًا على وهنٍ حقيقي استفاق منه ذات صباحٍ إثر صرخةٍ عبر هاتفٍ أتاه بصوت زينب..

في عصبيةٍ تشبث بالمحمول فوق أذنه لا يستوعب من صرخاتها شيئًا.. وبتوترٍ هتف:

- زينب في إيه؟ إهدي شوية مش عارف أسمعك.

أجابته بحروفٍ يُمزقها الوجعُ وهنَّات البكاء:

- الحقني يا نبيل أنا بولد.

شعورٌ بالجنون أصابه حينها.. وطاقة من الخوف اكتنفت كل خليةٍ من خلاياه..

وجد نفسه يركض خارج المكان كالملسوع.. وكأنما استيقظت فيه كل أسباب البقاء.. استقل أول سيارة أجرة صادفها وانطلق بها يدفعه الذعر ويتعجله القلق.

لم تكن المسافة الفاصلة بينه وبين منزلها كبيرة.. لكن خوفه ضاعف لديه الشعور بطولها..

صعد السلم بقفزاتٍ واسعةٍ ليجدها وقد سقطت أرضًا فوق بقعةٍ من الدم خلف بابها الموارب تُصارع غيبوبةً كادت أن تفتك بها..

انحنى يحملها دون تفكيرٍ مستعينًا بالأدرينالين المتدفق في جسده هابطًا بها درجات السلم نحو سيارة الأجرة التي انتظرته ويستعد قائدها للتحرك..

تتحامل على الألم بالصراخ وكتم الأنفاس..

دماؤها تَغرق قميصه.. وعبارات التهدئة التي يفتقدها هو ذاته تنهال من بين شفتيْه عليها، بينما السيارة تنطلق بهما في طريقها نحو المشفى..

يتابع وجهها واضح الاصفرار.. ونزيف رحمها غير المتوقف يُغرق المقعد الخلفي الذي تمددت فوقه..

وقفت السيارة بهما أخيرًا أمام البوابة الكبيرة للمشفى فهبط هو منها راكضًا نحو سلم الطوارئ يصيح في انفعالٍ:

- الحقونا يا جماعة.. حالة ولادة مستعجلة.. الحقونا أختي هتضيع.

أتاه من الخلف صوت السائق المتوتر مضيفًا لانفعاله المزيد:

- بسرعة يا أستاذ.. المدام هدومها كلها دم.

توتر نبيل أكثر وعلا صوته مستنجدًا:

- ساعدونا يا إخوانا.. حد يلحقنا.

أسرع نحوه بعض العاملين في المكان بسريرٍ جرارٍ نقلوا جسد زينب فوقه ثم اندفعوا بها وهو وراءهم إلى الداخل يصاحبه ذعره اللامتناهي عليها.

الأفكار تختلطُ في رأسه متحطمةً فوق صخورٍ من الخوف..

زينب..

تماسكي بالله عليك..

تماسكي، فمازالت لشمسِ الغد تحيةٌ على وجهك لم تلقها..

حالة من الارتباك التام أصيب بها المكان..

والقلق العاصف بكيانه يتخبطه بين احتمال واحتمال..

الطبيب؟

أين الطبيب؟

الكل يبحث عنه بلا جدوى..

الوقت ينفد.. والنزف الساحب من نضرة وجهها يدق ناقوس الخطر.

يلجأ لعيونٍ الجميع متوسلاً أيَّ أملٍ .. بينما مال أحدهم بقامته الطويلة نحو شقيقته يحدثها بنبرة مزاحٍ لم تبد متوافقةً مع الحدث:

- إيه كل الدم دا ؟ خلي شوية للبيبي كدا هيطلع دمه خفيف.

لم يفهم نبيل غرض العبارة أو قائلها الذي كان يسعى للفت انتباهها عن الوجع ببساطة .. مع ابتسامة فوق ملامحه استقبلت نظرتها له بوجهٍ متعرقٍ وعينيْن تُجاهدان للبقاء مفتوحتين بينما يعلو صدرها ويهبط بمحاولات التنفس حتى دفعه في كتفه آخر بعصبيةٍ وهو يصيح:

- مش دا وقتك خالص يا بلال.. الست دي كدا مش هتستحمل لحد ما ييجي الدكتور.. ضروري نوقف النزيف حالاً.

التقطت أذنا نبيل العبارة فالتفت إلى صاحبها ليجده ذلك الواقف بين الزحام بقبعةٍ سوداء وعصا قصيرة يرمق المشهد المتوتر..

لم يكن شكله مثيرًا للانتباه بقدر تلك النبرة الصادقة التي نطق بها عبارته.. مع نظرةٍ أطلت من عينيْه على الموقف شعر معها نبيل وكأنه الوحيد في المكان الذي يشاركه على شقيقته الخوف..

- مفيش وقت.

استكمل بها الرجل عبارته، ثم اندفع خلالهم ممسكًا بالسرير الجرار وهي فوقه صائحًا في من حوله من أفراد تمريض بلهجةٍ آمرةٍ:

- حضَّروا العدة والمطهرات ويللا بينا.. الدكتور مش هنا ولازم حد يتصرف.

- هتعمل إيه يا عم فتحي؟ الست عندها نزيف ولو حصلها حاجة هتبقى مسؤلية كبيرة علينا قدام الإدارة.

هتف بالعبارة أحد المحيطين موجهًا كلامه للرجل فأتاه منه الرد مباشرة ودون تفكيرٍ:

- ولو وقفنا وسبناها قدامنا تموت هتبقى مسؤليتنا قدام ربنا أكبر.

اخترق صدق كلماته كيان نبيل فتشبث بذراعه كالطفل متوسلاً:

- اعمل حاجة أرجوك.. اعمل أي حاجة.

دفع فتحي السرير أمامه متمتمًا:

- استعن بالله يا أستاذ وقول يا رب.

ثم هتف ومقلتاه تدوران بحثًا في من حوله:

- حد يشوفلنا الحاجة وداد.. بسرعة.

كان يتحرك دافعًا السرير أمامه على عجلٍ إلى جنب ذلك الطويل نحو غرفة في آخر الممر لا يعيقه عن وصولها غير يد نبيل المتشبثة به في قوةٍ.. وفوق السرير أمامهم امرأة تنازع من فرط الألم كل دقيقة لديها قد تعني الكثير..

لم يشعر نبيل يومًا بمثل هذا الخوف..

انصبَّ جام ارتياعه فوق جسدها المتعرق وجعًا وأنفاسها المتلاحقة..

يراقب الرجل ومن معه ممن دفعهم الفضول ورغبة مد يد العون من حوله يعملون بسرعةٍ وتركيزٍ..

تتناوب على رأسه كل الصور المعتمة ولسان حاله يُردد الكلمة في رجاء ودون توقف..

تماسكي يا زينب..

تماسكي..

****

"كباية عصير كمان هنا يا ابني لأجدع بولوكامين في البلد كلها" ..

همَّ الفتى ساقي العصائر بتنفيذ أمر حمدي عامل الشاي بالقسم الذي هتف بالعبارة وهو يلوح لبيومي الذي استوقفه النداء فالتفت إلى صاحبه الذي رسم فوق وجهه ابتسامةً واسعةً وهو يُكمل:

- صباح الفل يا عم بيومي.

أطل تفاجؤ بيومي من وجوده واضحًا وهو يتطلع إليه من وسط الطريق متحركًا يعبر الرصيف المقابل نحوه بخطواتٍ ثقيلةٍ متباطئةٍ قبل أن يُغمغم:

- إزيك يا حمدي؟ بتعمل إيه هنا؟

رفع حمدي حاجبيْه في تعجب صائحًا:

- بعمل إيه؟ في محل عصير هكون بعمل إيه يعني؟ إنت هتعمل علينا شغل التحريات بتاعك واللا إيه يا سيادة الأمين؟

لم يبدُ بيومي رائقًا لمزاح الأخير..

كان سارحًا يشغله أمرٌ ما.. مدَّ يده يُصافحه مشيرًا بيده للفتى الواقف وهو يقول:

- متصبش يا ابني أنا مش هشرب حاجة.

شد حمدي على كفه في إصرار، هاتفًا:

- لا إيه اللي مش هتشرب؟.. وحياة أمي لنضرب كبايتين قصب مع بعض.. صبلنا اتنين يا ابني اسمع الكلام وسيبك منه.

تحيَّر الفتى ما بين تنفيذ الأمر من عدمه.. بينما غمغم بيومي محاولاً التملص من إلحاح الأخير:

- يا حمدي اسمعني خليها بعدين.. سيبني دلوقتي عشان دماغي مش رايقة.

تحدث بلكنةٍ حادةٍ بعض الشيء أدرك منها الرجل جدية رغبته، فاستجاب لها مغمغمًا:

- خلاص زي ما تحب.. أنا قلت بس تشرب معايا حاجة على حساب الباشا.. أصل يا سيدي مزاجه النهاردة في البرتقال فاجيت أجيبهوله من هنا.

منحه ميلاً فاترًا على طرف شفتيه كابتسامةٍ وهو يسأل:

- هو وصل القسم إمتى؟

أجاب:

- اتأخر شوية النهاردة.. لسه واصل من تلت ساعة.

ثم أشار للفتى بصب كوبٍ واحد له ما أن أتاه حتى تجرع ما به كاملاً في ضربةٍ واحدةٍ قبل أن يتجشأ وهو يُعيده إليه ماسحًا بكُمِّ قميصه شفتيْه، مكملاً:

- مقولتليش صحيح.. إنت بقى إيه اللي جابك هنا؟

لم يُجبه بيومي.. ظل محملقًا في وجهه للحظاتٍ سارحًا.. قبل أن يسأله باهتمامٍ مباغتٍ:

- حمدي إنت مبسوط بجد؟

تعجب حمدي من سؤاله المفاجئ، في حين استطرد بيومي موضحًا:

- بتنزل شغلك مرتاح كل يوم يعني؟ حاسس إن هيا دي حقيقتك؟ وإن هوا دا مكانك؟

لم يحر حمدي جوابًا لسؤاله العجيب.. قليلون هم من يملكون رفاهية البحث في هذا الشأن..

مبسوط؟ مرتاح؟ ما الذي يعنيه حقًّا بأسئلةٍ كتلك؟

نظر إليه وقال:

- مش واصلني القصد بالضبط.. تقصد عشان مبتشوفنيش في المكان غير بالابتسامة واللسان الحلو بتاع تحت أمرك يا ريس وتمام يا باشا؟

هزَّ بيومي رأسه أنْ ربما.. فصمت حمدي لحظة دار خلالها بعينيْه في وجوه المارة هنا وهناك من حوله وهو يلتقط نفسًا عميقًا أكمل به:

- روح وقف حدّ تحري من الناس اللي قدامك دي دلوقتي وقوله بطاقتك.. واسأله ساعتها هيبتسم في وشك ليه؟

تعلقت عينا بيومي بوجهه متفحصًا عمق الإجابة.. قبل أن يُكمل الأخير بابتسامةٍ خبيثةٍ:

- بس خلي بالك أنا مقصدش حاجة.. أنا بحب شغلي يا عم ومبسوط فيه الحمد لله.

بادله بيومي الابتسام على الإجابة المتوارية.. ثم سرح ببصره نحو اللاشيء..

- إنت بقى برضو مقلتليش هنا بتعمل إيه؟

تسلل السؤال بصوت حمدي عبر تأملات وخواطر كان على وشك الخوض فيها، فأشار برأسه ناحية المدرسة المقابلة لمحل العصير قائلاً:

- مستني حد.

جزء من الزمن مرَّ عليه قبل أن يستوعب الإجابة، وهو ينظر إلى حيث أشار.. قبل أن يفهم في اللحظة التي أتاه فيها أحدهم بعصير البرتقال الذي طلبه وهو يقول:

- البرتقال يا باشا.. أي أوامر تاني؟

هزَّ رأسه نافيًا.. وهو يُخرج بعض أوراق نقدية من جيبه دسَّها في كفِّ الرجل مازحًا:

- أهم حاجة يعجب الباشا وإلا هنجيبلكوا ضرفها.

ثم صافح بيومي مرةً أخرى وهو يُتابع:

- عامة ربنا معاك.. هطير أنا بقى عشان متهزأقش النهاردة.

صافحه بيومي بدوره.. ثم أخذ يتابعه ببصره وهو يبتعد عن المكان..

ظل واقفًا بجسده الضخم يسد وبلا هدف جزءًا من مدخل المحل الصغير.. وبرغم ذلك لم يجرؤ أحدٌ من الموجودين على لفت انتباهه..

إنه الخوف، كما أخبره منذ قليلٍ حمدي..

الخوف الذي يُجبرهم في بعض الأحيان على الصمت.. أو الابتسام..

للبذلة البيضاء قدسيتها لا شك أو اعتراض..

الشمس تلقي أشعتها الحارة على كل شيء ..

على السيارات المتزاحمة.. الأسفلت.. وفوق مظلات المحلات التي عكست تحتها ظلالًا على الرصيف صنعت إغراء للفارين من قيظ السماء فساروا يستظلون بها..

هي ساعة الظهيرة المرتبكة في الصيف..

ازدحامٌ وتداخلٌ..

كل الأصوات لديه تشابهت واختلطت.. إلا صوت الجرس الحاد الطويل الذي ارتفع متفردًا خاصًّا في أذنه قادمًا من خلف سور المدرسة المقابلة تمامًا له..

انطلق رنينه فتلاشت في رأسه حينها كل التأملات.. وتبددت كل ملاحظاته دفعةً واحدةً..

إنه جرس الانصراف المتبوع بصوت هتافات وصيحات الفرحة من تلاميذ انفرجت ضلفتا الباب الحديدي الكبير أمامهم آذنةً بالرحيل..

وكفيض ماءٍ يسيل من بين جبلين.. تسارعت مجاميع الطلبة في الخروج عبره..

أحدهم يركض من زميلٍ لطمه على مؤخرة رأسه.. وآخر متشبثٌ بيد أخته الأصغر ينتظر معها لحظةً مناسبةً لعبور الشارع..

هؤلاء يتجهون إلى الكشك.. وهؤلاء يتحدثون..

وهو يتابع كل هذا بعينٍ من قلقٍ.. وقلبٍ عزفت دقاته لحن الترقب..

يبحث بين الوجوه عن واحدٍ مألوفٍ يتوق إليه حتى لمحه..

كان هناك يقف..

يرتدي قميصه المدرسي الأبيض فوق بنطالٍ رمادي.. وعلى ظهره حقيبة يحملها..

بوجهٍ حمل مع براءته الحزن.. وأعوامًا لم تتجاوز التسعة..

كانت الحقيبة مكتنزةً وقف مستندًا بها على السور وراءه الذي امتلأ ببعض رسوماتٍ وعباراتٍ تصف جمال ونظافة وتطور المدرسة..

بخطواتٍ متلهفةٍ مترقبةٍ عبر الشارع في بطءٍ نحوه..

يتابع عينيْه الصغيرتيْن اللتيْن أخذتا تدوران فيما حولهما بعشوائيةٍ حتى وقعتا عليه..

رآه الصغيرُ فتبدلت ملامحه إلى الخوف وهو يتراجع ووراؤه الحائط كأنما يسعى للغوص فيه..

إنها ذات النظرة التي لن ينساها..

تلك التي غيَّرت فيه الكثير ولم يسعه تحملها.. هزَّت قلبه قبل خطواته وهو يشير إلى الخائف أن اهدأ

موسعًا ما بين قدميْه في خطوات اقترابه أكثر..

لم تنجح إشارته في محو النظرة المذعورة من عين الصبي الذي تلفت فيما يُحيط به بحثًا عن ملاذٍ قبل أن يشرع في الركض..

الرصيفُ المزدحمُ بالبشر من حوله يعوق حركته بعض الشيء وهو يُحاول العبور مبتعدًا وسط أكوام اللحم ومن خلفه بخطوات زادها سرعةً يُحاول بيومي اللحاق به..

- استنى يا محمد.

ناداه، فلم يُنصت له الصغير وهو مستمرٌّ في الابتعاد.. والخوف المتملك منه يعبر به الشارع فجأةً غير آبهٍ بصرير الإطارات المتوقفة أمامه وسباب قائديها الذين باغتهم عبوره ومن خلفه بيومي يرد على انفعالهم بالحدة:

- بس يا عم إنت وهو محدش يزعقله.

أخرج أحدهم رأسه من نافذة سيارته صائحًا في غضبٍ:

- عيال ولاد كلب أهاليهم فالتينهم ولما يتخبطوا يحسبوهم علينا بني آدمين..

أشعلت الكلمة فتيلًا قابلًا للاشتعال في رأس بيومي، فالتفت إلى صاحب العبارة ضاربًا سطح سيارته بكفه في غضبٍ هادرٍ وهو يصيح:

- بني آدمين غصب عنك يا حيوان.

ترجَّل الرجل من سيارته بعد السبة ذودًا عن كرامته في استعدادٍ للعراك غير آبهٍ بالبذلة الميري التي يرتديها الأخير.. بينما توقف الصغير على الناحية الأخرى خوفًا من المبالغة في الابتعاد عن حدود المدرسة التي لا يعرف دونها حدودًا..

كان صوت الرجل هو البداية وهو يصيح ممسكًا بذراع بيومي الذي حاول الاستمرار في لحاقه بالصغير:

- مين الحيوان يا باشا إنت؟.. بتكلم مين بالضبط؟

انجذب الأخير مع مسكة الرجل.. فاستدار نحوه يدفعه بيده الحرة في صدره بقوة ردته ليرتطم بالسيارة مفلتًا الذراع قبل أن يرتد مرة أخرى مع يد بيومي التي استقبلت ياقة قميصه تجذبها في عنفٍ مع تحذيرٍ بصوتٍ حاد:

- بكلمك إنت.. وامشي من قدامي بدل ما أشتمك تاني.

كان الرجل يُضاعف بيومي حجمًا.. لكن غضب الأخير وبذلته جعلاه يبدو أقوى في عين أولاء الذين اصطفوا في الشارع حولهم وعلى جانبي الطريق المعطل بفعل فضولهم وترقبهم للحدث..

الفتى الصغير من خلف زحامهم يقبع.. غلب الذعر عينيْه فانهار في صراخٍ باكٍ أشعل توتر بيومي أكثر وهو يدفع الرجل نحو سيارته مرة أخرى ملتفتًا إلى حيث مصدر البكاء:

- اتكل على الله بقولك.

اندفع بعض المحيطين على اختلاف دوافعهم يحاولون الاستفهام عن الأمر:

- فيه إيه بس يا باشا حصل خير إن شاء الله.. وحدوا الله يا جماعة.

بينما الرجل يُحاول استبقاء ما تبقى من كرامته، وهو يصرخ:

- إنت بتضربني؟ إيه البلد دي؟ بتتشطر عليا ببدلتك الميري؟

اختلطت صرخاته وتلويحات ذراعه مع عبارات التهدئة ودفعاتٍ الأجساد المتدخلة له نحو السيارة، بينما بيومي لا يهتم بشيء مما حوله وهو يُحاول إزاحه الأجساد بحثًا عن هدفه الذي ذاب وسطهم محاولاً الاستدلال عنه بصوت بكائه غير المتوقف مرددًا في همسٍ داخلي:

- رحت فين يا محمد؟ رحت فين؟

كان يتمتم بها همساً وعيناه تدوران داخل محجريْهما بحثًا حتى رآه..

ورآها معه..

امرأة ثلاثينية محجبة تعلق بها الفتى وهدأت دموعه بين أحضانها.. رمته بنظرةٍ ناريةٍ يملؤها اللوم قبل أن تستدير بطفلها مبتعدة..

لا شيء مما حوله يعنيه سواهما..

لوهلةٍ بات ما يُحيط به كصورةٍ بطيئةٍ من فيلمٍ مُسجلٍ..

لا ينبغي لهما الرحيل..

همَّ لمناداتهما أنْ انتظرا.. لكنه لم يفعل..

شيء ما داخلي منعه..

هي زوجته المتألمة أسما.. وهو ابنه الوحيد محمد.

يبتعدان تاركيْن له الخزي الذي أسكته..

يناديهما بصوتٍ مكتومٍ مختنقٍ..

تمهَّلا..

انتظرا فما زالت لديَّ أقوالٌ أخرى..

نداءاتٌ على استحياء لم تُفارق ما بين شفتيْه..

وآمالٌ فائرةٌ بداخله لم تساورهما لأجلها لحظة بقاء..

****

تحركت السيارةُ حمراء اللونٍ تعبر البوابة الحديدية المفتوحة للمشفى العام من أمام ذاك الذي رفع يده بتحية لم تلحظها قائدتها هاتفًا:

- حمدلله عالسلامة يا دكتورة.

استمرت في طريقها متجهةً نحو الموقف المخصص لسيارات المكان.. أوقفتها فيه ثم ترجلت منها

بملامح متوترةٍ.. وخطوات سريعة انطلقت بها نحو الجانب الخلفي من المكان حيث ثلاجة حفظ وتغسيل الموتى..

لاحظ سائس المكان توترها فتابعها ببصره قبل أن يعرج بقدم أقصر من الأخرى يُحاول اللحاق بها مناديًا:

- صباح الخير يا دكتورة.

لم تلحظه هو الآخر مكملةً طريقها.. فاستمر يُلاحقها بدافع الفضول وعشق دسِّ الأنف في أي شيء.

وصلت إلى وجهتها في نهاية الطريق أمامه فدفعت الباب المعدني الكبير لينفتحَ باعثًا في وجهها بعض هواء المكان البارد..

دارت ببصرها فيه وقد خلا إلا من عامل نظافة توقف عن رشِّ مياهٍ كان يُغرق بها عبر خرطوم بلاستيكي أرضية المكان والتفت ينظر إليها بدوره متسائلاً:

- دكتورة هناء؟ حمدلله عالسلامة.. حضرتك قطعتي الأجازة واللا إيه؟

تطلعت إليه في شرودٍ للحظة قبل أن تندفع معاودة أدراجها إلى الخارج مرةً أخرى دون ردٍّ لتجد في مواجهتها ذلك الفضولي الذي ارتطمت بها عيناه، وهو يسأل:

- بتدوري على حاجة معينة يا دكتورة؟

أجابته هذه المرة وهي ترمقه بنظرةٍ تائهةٍ:

- لا، مفيش يا عم سيد.. متشغلش بالك.

قالتها وتوترها يفضح كذبًا في كل الحروف.. عيناها الباحثتان في ما يُحيط بدت تؤكده.

ابتعدت بعد عبارتها متجهةً نحو بوابة الأمن التي نهض رجلها من داخل كابينته الخاصة وهو يُرحب بها ثانيةً في احترام قائلاً:

- صبحت عليكي يا دكتورة وإنتي داخلة، بس إنتي مخدتيش بالك.. والله المستشفى بتنور بوجودك.

حرَّكت رأسها للمجاملة مع ابتسامةٍ سريعةٍ رسمتها وهي تقول:

- ربنا يخليك، دا من ذوقك.

تردد الرجل لجزءٍ من الثانية قبل أن يقول:

- المدام صحيح كانت عايزة تسأل حضرتك بخصوص حبوب كدا ظهرت في جسمها بعد الول-...

- بعدين يا سليمان، أنا مش مركزة دلوقتي.. بعدين.

قاطعته بعبارتها السريعة قبل أن تسأله وهي تمسح بعينيها المكان:

- هيا دفاتر الإمضا بتاعت حضور وانصراف عمال المستشفى مش بتبقى عندك هنا؟

أجابها ببلى، وهو يمد يده نحو أحد أدراج مكتبه مخرجًا لها دفترًا كبيرًا وضعه أمامها وهي تستطرد:

- خليني أبص على شيفتات امبارح والنهاردة.. محتاجة أتأكد من حاجة ضروري.

غمغم الرجل وهو يفتح الدفتر على ما طلبت، مشيرًا إليها بأصبعه نحوه:

- إنتي تؤمري يا دكتورة طبعًا.. منقدرش نتأخر وحضرتك عارفة.

هزت له رأسها في عصبيةٍ وهي تلتقط منه الدفتر عابرةً بأصابعها على الأسماء قبل أن تتوقف عند أحدها..

كانت تكتم قلقًا عاصفًا بكيانها لم تُفصح عنه لأحدٍ بدا أن شيئًا ما على الورق أمامها أكده..

أغلقت الدفتر مرةً أخرى وهي تزفر زفرةً حارةً حاولت بها إفراغ القليل من التوتر..

شكرته على المساعدة بكلماتٍ مقتضبة ثم عادت أدراجها إلى حيث تركت سيارتها التي انتظر جوارها ذلك الفضول الأعرج مدعيًا الانشغال بمسحها..

تطلع نحوها مبتسمًا تقرأ على وجهه الفضول العاصف وهو يتمتم:

- متأكدة إنك مبتدوريش على حاجة يا دكتورة؟

نظرت إليه حانقةً.. قبل أن تتخذ ببعض التفكير قرارها وهي تسأله بشكلٍ مباشرٍ:

- أنا عايزة فتحي.. أوصله إزاي؟

ارتبك المغزى في عقله، فتراجع لحظة عاقدًا حاجبيْه بغير استيعابٍ، بينما استدركت هي موضحةً:

- شابلن يا عم سيد.. شابلن عامل التلاجة..

ألاقيه فين؟

***

والآن بالبسمة يتجدد لقاؤكم الأسبوعي أعزائي مستمعي الإذاعة العامة مع الفنان الكوميدي بلال مرزوق وبرنامج

((ضحكة ونص **))..**

تمنياتنا بقضاء سهرة ضاحكة**..**

***

الثانية عشرة ظهرًا.. بتوقيت القاهرة..

شعاع الشمس يفترشُ أسطح البنايات القديمة أمامها..

صوتُ هديل ثلاث حماماتٍ رفرفت بجناحيْها إحداهن محلقةً تبتعد عن ذلك القفص الخشبي القريب الذي حطَّ عليه رفاقها في لحظةٍ تماشت وصوت التنهيدات الصادرة عبر مكبرات الصوت التي احتلت مئذنة قريبة استعدادًا لرفع أذان الظهر..

أدفء الشمس هذا الذي يكتفها، أم أنه دفء شعورها بالأمان؟

لطالما افتقدت هذا الشعور وهي التي ألقتها الأيام بين أنياب شوارع لا ترحم..

أعياها الفقر وجرَّدها من أسمال مبادئ تكسوها فباتت متعريةً تسكُن أحضان رجال لا تسكَن أبدًا شهواتهم..

تائهة تتخبطها السبل.. ضائعة بين قدَر واختيار حتى التقته..

هذا الذي يكبرها بعشرات الأعوام..

هذا الذي احتواها دون ذراعين.. لتدرك معه وحده معنى احتضان القلب..

محمود..

محمود باشا، كما اعتادت أن تُناديه..

رأته مرتادًا في بادئ الأمر لعالم المتعة..

كان يجلس على مائدته الخاصة داخل الملهى الليلي الذي تعمل به وحيدًا يتجرع كؤوسًا من الخمر..

أدركت منذ اللحظة الأولى التي اقتربت فيها منه متمايلةً بجسدها المثير لتجاوره الجلوس، إنه رجل يختلف..

ليس ككل المحيطين السكارى العابثين حولها..

كان الوحيد من دونهم جميعًا يُسكره البؤس..

جاء به الحزن عبثًا يبحث عن خلاص هو ذاته الذي أتى بها الفقر يأسًا تبحث عنه..

المشهد في ذاكرتها محفورٌ.. يتسلل عبره مشوشاً ذلك الصوت المنبعث من مصدر قريب ..

"إيه اللي إنت بتسمعه ده؟"

ألقت السؤال وقد انتزعها الصوت من خواطرها وهي لاتزال جالسة فوق الأريكة على سطح البناية .. تُحيط فنجان القهوة الفارغ بكفيها محدثة بلال الذي جاورها مرتدياً جلباباً بدا قصيراً بعض الشيء فوق هيكله الطويل ..واضعاً جهاز تسجيل صغير الى جواره انهمك في الانصات الى ما يصدر منه ..

فصل انهماكه سؤالها فالتفت نحوها يرمقها بنظرةٍ خاويةٍ.. قبل أن يضغط زر إيقاف التشغيل في جهازه متمتمًا:

- عايزة إيه؟

كررت سؤالها:

- بسألك بتسمع إيه؟

أمال طرف شفتيه في استخفافٍ بالسؤال، ثم قال:

- إنتي شايفه إيه؟

لوَّحت بكفها غير راضيةٍ عن إجابة سؤالها باستفهامٍ آخر، وقالت:

- ولا شايفة حاجة.. تسجيل قديم لواحد عمَّال يقول في نكت بايخة وكلام بايخ مضحكتش على ولا حاجة

منها.

بدا شيء من الغيظ في قسَماته وهو يردُّ ضاغطًا على الحروف:

- لا والله؟ طيب خليكي في حالك بقى.. وكويس إنها مضحكتكيش..

ثم تابع بلهجةٍ واضحة الحدة:

- وبعدين إنتي مالك أصلاً أنا بسمع إيه؟

ابتسمت منتبهةً لغيظه، ثم التفتت بنظرها إلى بعيدٍ بلا اهتمامٍ قائلةً:

- مليش دعوة صحيح.. خد راحتك ومتشيلش في نفسك إنت بس.

زاد برودها في الرد من اغتياظه فخرجت كلماته بشكلٍ أكبر حدة وهو يقول:

- وأشيل في نفسي أنا ليه وللا أحط كلامك في بالي ليه أصلًا؟.. إنتي يدوب ضيفة جاية تقعد شوية لحد ما محمود يصحى وهتتكل على الله.

ارتفع صوت ضحكتها دون أن تنظر نحوه، ثم قالت:

- على رأيك صحيح يا عم بلبل.. أنا ضيفة هنا شوية وهتمشي.

صمت لحظةً مفكرًا قبل أن يسألها في حنقٍ:

- وإيه بلبل دي كمان؟ جبتيها منين؟

أجابته هي بكل بساطةٍ:

- هجيبها منين يعني؟ محمود باشا نداك بيها وهو بيوصيك عليا لحد ما يقوم.. سلامة الدماغ.

ثم تابعت مبتسمةً في خبثٍ:

- شفت بقى إزاي الحاجات البايخة اللي بتسمعها دي مأثرة عليك وعلى تركيزك؟

كانت تتوقع منه ثورة احتداد أخرى إثر عبارتها المستفزة.. لكنه خالف توقعاتها بوهلة أمضاها في الصمت وقد أطرق رأسه قبل أن يعتدل متطلعًا نحوها في تأثرٍ، وهو يغمغم:

- معاكي حق.

قرأت في عبارته مسحةً من الحزن استلت أطراف تعاطفها وهي تعاود النظر لما حولها متمتمةً:

- طب على فكرة أنا بهزر.

تنهد مزيحًا الكاسيت عن يده إلى جنب قبل أن يكمل مفرغًا ما فيه:

- عارفة يا....

كان يبحث عن اسمها الذي تاه في عقله فناولته إياه بسرعة المهتم للإنصات، قائلةً:

- شادية.. اسمي شادية.

أفصح لها وجهه عن نصف ابتسامةٍ، وهو يقول:

- على اسم شادية الممثلة يعني.. مع إنك مفكيش منها ببصلة.

ارتفع حاجباها في دهشةٍ، وهي تهتف:

- لا والله؟ محسسني يعني إنك كنت معاشرها.

أومأ برأسه متمتمًا بغير اكتراثٍ:

- عملت مشهد صامت في فيلم من أفلامها قبل كدا.. ومرة بعتتلي حد يقوللي إنها معجبة بالبرنامج اللي بقدمه ومتابعاه.

تراجعت متعجبةً تسأله وهي تدقق النظر في ملامحه:

- عشان كدا من الأول حسيت إني بشبهه عليك.. إنت كنت بتقدم برنامج إيه؟

أشار إليها برأسه نحو جهاز الكاسيت الصامت، موضحًا في هدوءٍ:

- البرنامج اللي كنت بسمعه دا.. أنا البايخ اللي بيقول النكت البايخة.

احمرَّت وجنتاها خجلًا وهي تنظر إليه محاولةً البحث عن ردٍّ ما بغير جدوى، بينما بلال يكمل بنفس الهدوء:

- الكلام ده كان زمان.. تقريبًا أوائل التمانينات..

كنت اتعرفت شوية بعد كام دور قصير عملته في كذا فيلم..

الواحد ساعتها كان لسه صغير والحياة فاتحاله أوسع أبوابها..

شاب موهوب ليه ربع ساعة مونولوج كاملة يقدمها على الراديو بصوته كل أسبوع..

متخيلة إن العجوز اللي قاعد جنبك بجلابية بيتي دلوقتي دا كان لما بينزل الشارع بيوقفه جمهور وناس عايزينه يمضيلهم أوتوجرافات؟

توقف عن متابعة حديثه متبينًا عدم جدواه قبل أن يستطرد فاقدًا الرغبة في الاستمرار:

- بس خلاص.. أيام وراحت لحالها.. مجرد ماضي غبي مكنتش عامل حسابي إن هييجي عليه يوم ويتغير..

قالها ثم تطلع نحوها يسألها في اهتمامٍ صادقٍ:

- تفتكري سبب وجود الماضي دا زمان كان بس عشان النهاردة أتحسر عليه؟

نظرت إليه مشفقة.. لا ردَّ في جعبتها تقوله..

يتلاعب الإحراج بلعثمةٍ خرجت من بين شفتيها بطيئةً متقطعةً:

- بص.. هيا الدنيا يمكن مبتتحسبش كدا يا عم....؟

تأملها بعينٍ تتفهم ارتباكها محاولاً رسم الابتسامة على ملامحه وهو يتمتم:

- بلبل.. اسمي عم بلبل.. شفتي بقى إن تسجيلاتي مش هيا الحاجة الوحيدة اللي بتنسي؟ سلامة الدماغ.

التقطت سخريته كطوق نجاةٍ تعلقت به مغمغمةً:

- ومين قال إن النسيان في كل حالاته مرض؟.. دا في ناس بتاخده علاج.

همَّ بالرد عليها قبل أن يلتفت كلاهما في حركةٍ سريعةٍ إثر صوت ارتطام بالأرض أتى من مصدرٍ ما خلف الباب الخشبي المغلق أمامهما على أثره صاحت بصوتٍ مرتفعٍ:

- محمود باشا؟

تكرر ذات الصوت مرةً أخرى خلال صيحتها فكررت النداء بصوتٍ أعلى، وهي تنهض من فوق الأريكة متجهةً نحو الباب:

- محمود باشا إنت كويس؟

استوقفتها يد بلال التي تشبثت بمعصمها، وهو يقول:

- اطمني.. مفيش حاجة.. دا مش محمود أصلاً.

التفتت نحوه بغير فهمٍ، فاستطرد:

- دي تمارين بيلي بتاعة كل يوم الصبح.

- بيلي؟

رددت الاسم باستغرابٍ وعلى وجهها التساؤل فأومأ برأسه لها أن نعم دون توضيحٍ وهو يتأملها للحظةٍ طالت قبل أن يخفف من قوة تشبثه بذراعها في بطءٍ..

شيء ما في ارتياعها على محمود لفت انتباهه..

شيء ما وجد نفسه يُفصح عنه على هيئة سؤالٍ خرج عبر شفتيه:

- هو إيه يا شادية اللي يخلي واحدة في العشرينات زيك تتخض على واحد معدي الستين زي محمود؟

استوقفها سؤاله.. ربما لحنق من فضوله أو تعجب له لا يدري أيهما أدق، لكنه استطرد:

- أنا آسف إني سألت السؤال دا بس أصلي استغربت إن-..

قاطعته مجيبةً في ثقةٍ وصوت الارتطام القادم من وراء الباب الخشبي يتكرر للمرة الثالثة:

- إنه يكون السبب في حريتها.

رفع أحد حاجبيه متطلعًا نحوها في محاولةٍ لاستشفاف المغزى وهي تتابع موضحةً..:

- اللي يخلي واحدة في العشرينات زيي تتخض على واحد معدي الستين زي محمود إنه يكون سبب في حريتها.

صمتت تلتقط شهيقًا من الهواء المحيط، ثم أكملت بنبرةٍ حملت الكثير من الامتنان:

- محمود باشا يا عم بلبل هو البني آدم الوحيد اللي بجد ومن أول لحظة عرفته فيها..

حررني..

***

ذات السيدة العجوز.. يراها عبر ذات العدم القابع هو فيه..

تدلفُ مع هالة الضي المحيطة بالشمعة المتوهجة في يدها إلى الداخلِ.. الضوء المتراقص منها يعكس من ظلال الأشياء حولها على الحوائط الصماء أشكالاً وخيالاتٍ موحيةً.. لكنها لا تهتم..

برغم نشأتها في بيئةِ تخصيبٍ للخرافات.. ألا أنها كانت تدرك أن أي عفريتٍ بكل تأكيد.. لن يكون بالتفاهة أوالفراغ اللازم للعبثً مع عجوزٍ مثلها تتخطى السبعين..

انتقلت بالأكياس في يدها إلى المطبخ.. وضعتها فوق الرخامة الخضراء داخله.. ثم وقفت تُفكر..

هذه الأطعمة لن تنتظر طويلاً بلا تبريد.. ثم إن بعضًا منها يجب تحضيره للغد..

عليها إعداد العشاء لفتحي القادم من عمله بعد ساعات..

ولذلك فلربما عليها أيضاً إغفال تعبها لبعض الوقت..

فتحت الأكياس.. والتقطت السكين.. وعلى ضوء الشمعة المهتز ظلت في المكان ما يربو على الساعة تعمل بخبرة صقلتها السنين..

تُغافلها بين البرهة والأخرى غفوةٌ مختلسةٌ تستفيق منها لتستمر فيما بدأت حتى انتهت منه..

العَرق يتصبب من جبينها.. وعباءتها التي استخدمتها كمنشفةٍ له أثناء العمل تلقي بها فوق كومة ملابس على جنب قبعت تنتظر دورها في الغسيل..

خرجت من مطبخها أخيرًا متجهةً نحو إحدى الغرف التي طلعت بعد قليلٍ منها تحمل بطانيةً غطت بها الصبي النائم على الأريكة في الصالة ثم ألقت بجسدها المنهك على الجزء المتبقي فوقها خاليًا بجانبه..

عليها تذكير نفسها بقطع اللحم الموضوعة فوق نار الموقد الهادئة لم يبق على نضوجها سوى ربع ساعة..

الجبن مُعد في طبقه للعشاء.. والطماطم لم تقطعها إلى جواره بعد..

دورق المياه نصف البارد كما يُحبه فتحي يجب أن تُخرجه من الثلاجة بعد قليل..

نفثت في الشمعة تطفئها.. ستحتاج إليها بعد برهةٍ من الراحة لأنفاسها..

لا لن تنام..

تُحدث عينيْها الناعستين بذلك، وتتثاءب..

لن.. ت.. ن.. ا.. م..

تُظلم الدنيا رويدًا رويدًا من حول نقطة اللاوجود الواقف هو في منتصفها يُراقب المشهد..

الآن استسلمت للنوم..

الآن هو وحده بلا كيانٍ يقف وسط ظلام بدون نهاية..

يسود من حوله سوادٌ دامسٌ لا حدود له..

وحيدًا كان.. يتسلل برويةٍ من مكانٍ ما عبر أنفاسه ذلك الهواء البارد الذي بدا له مألوفًا..

البرودة المتزايدة من حوله تؤكد له الظن برغم الظلام المحيط..

إنها المشرحة.. ثلاجة الموتى.. مكانه المعتاد..

مدَّ يديه على امتدادهما جانبه يمشي ملامسًا أدراج الحفظ الحاوية لجثثٍ هامدةٍ دام ما استشعر شيئًا من الألفة بينها..

لطالما ارتأى في عيون الموتى وفاءً لا أثر للخيانة فيه..

هم آخر القادرين على رد الأذى.. يكفيهم انتقامٌ وقت رحيلهم رغم صمته بليغ..

كان يسير على غير هدى وسط العتمة الكاملة يمينًا ويسارًا أينما رحل لا يُفارق يديْه ملمسُ الأدراج الباردة..

يزداد صقيعها من حوله كلما تعمق..

بدت وكأنها دوامة تبتلعه ويدور هو في فلكها..

متتالية من حوله لا تنتهي.. ويداه تعبر فوقها منزلقةً في سلاسةٍ حتى علقتا بغتةً فوق درجين متقابلين..

يداه اللتان تعلقتا عنوةً فوق مقبضيهما بات، وكأن قوةً ما تربطهما بهما..

البرد يشتد على جسده قساوةً والأبخرة تتصاعد من هنا وهناك مع خوفٍ داخلي دبَّ فيه وهو يُصارع لتخليص نفسه..

يُحاول الصراخ فلا تُجدي محاولته.. تبدو الأنفاس وكأنما تتجمد بمجرد خروجها من فمه..

أنفاسه تختنق شيئًا فشيئًا، ثم فجأة يسطع الضوء في المكان وينفلت ذراعاه فيجذبهما نحوه في لحظة انفتاح الدرجيْن..

وجه الصغير الشاحب يُطل عليه من أحدهما بنظرةٍ بائسةٍ تراجع أمامها مرتعدًا قبل أن تتسع عيناه وهو يُطالع وجهها العجوز الذي اعتدلت به من مرقدها داخل الدرج المقابل وصوتها القادم من أعماق كل ما حوله يهمس:

"ملحقتناش ليه؟.."

يواصل محاولاته المستميتة للصراخ بينما السؤال يتردد..

"ملحقتناش ليه؟"

أخيرًا تخرج عبر حلقهِ الصرخة وهو يهبُّ من رقدته بغتةً متعرقًا جاحظ العينين تتلاحق أنفاسه بين شهيقٍ وزفيرٍ.. مستقبلاً وجه محمود الناظر إليه في قلقٍ يسأله:

- فتحي إنت بخير؟

لحظةً من الصمت عليه مرَّت تطلع خلالها إلى موقظه بنفس العينيْن الجاحظتيْن في شيءٍ من عدم استيعاب قبل أن تهدأ أنفاسُه بإدراك ما حوله وهو يتمتم:

- بخير يا محمود.. أنا بخير، الحمد لله.

تنهد الرجل وقد اطمأن.. قبل أن يعتدل ماسحًا وجهه المبتل بمنشفةٍ كان يضعها فوق كتفه قائلاً وهو

يستعد لتبديل ملابسه:

- نفس الكابوس إياه؟

هزَّ فتحي رأسه أنْ نعم مكتفيًا بذلك.. في حين أضاف الأخير مغمغمًا:

- ربنا يرحمهم ويصبرك.

ارتفع في تلك اللحظة صوتُ أذان الظهر عبر المآذن المحيطة بالمنطقة، فصمت كلاهما منصتًا حتى انتهى، ثم تساءل فتحي وهو ما زال راقدًا في مكانه على الأرض يُتابع محمود:

- إنت نازل وللا حاجة؟

أجابه نافيًا بهزة رأس وهو يقول:

- شادية جت الصبح ومستنياني برة بس هطلع أقعد معاها.

مرَّت على عينيه لحظة تساؤل أخرى قبل أن يستوعب، ثم غمغم وهو يدور بعينيْه في المكان:

- وبلال فين؟

ردَّ مكملاً ارتداء قميصه:

- بره معاها.. كان صاحي من بدري هو بيسمع في الشرايط القديمة بتاعته.

شرد فتحي ببصره في الفراغ للحظة وهو يأخذ نفسًا عميقًا من الهواء ملأ به صدره محاولًا تنظيم أنفاسه ثم اعتدل استعدادًا للنهوض وهو يقول:

- معتقدش إنه نام الليلادي أصلاً.. موضوع اللقاء التلفزيوني بتاع النهاردة دا أكيد شاغل باله.

أتته إجابة صديقه على هيئة ضحكةٍ قصيرةٍ قال بعدها:

- أكيد دا برضو سبب.. بس الصراحة موبايلي هو اللي صحاه.

ثم التفت يبحث عن قداحته التي أشعل بها لفافة تبغ كان قد دسها بين شفتيه، وهو يتابع:

- مش ندى امبارح بعتتلي رسالة صحيح؟

هم فتحي بالاستفهام متحمسًا عن الأمر لولا أن ارتفع في نفس اللحظة صوت رنين هاتفه الملقى جواره، فالتفت نحوه ومدَّ إليه يدا تلتقطه قبل أن يشير لمحمود بالصمت وهو يُجيب محدثه..

انتظر محمود إلى جواره صامتًا للحظات يُراقب انفعالاته في المكالمة مع انعقاد حاجبيه حتى أنهاها، فاقترب يسأل:

- خير فيه إيه؟

زفر فتحي متمتمًا في اقتضاب بعين شاردة وقبضته ما زالت تمسك بالهاتف:

- دكتورة هناء.

اندفع محمود يسأله في اهتمامٍ حذر:

- هي اللي اتصلت؟

ردّ في سرعة:

- لأ.. دا واحد زميلي في المستشفى.. بيقول إنه شافها النهاردة هناك.. كانت رايحة تدور عليا.

ثم صمت ليزفر مرةً أخرى زفرةً حارةً حملت بكل ما في نفسه من قلقٍ استطرد به:

- وبيقولي إن سيد السايس إداها العنوان.

قالها فانتقل انعقاد الحاجبين إلى وجه محمود بدوره وهو يتساءل:

- تفتكر فهمت؟

مفكرًا أجابه وهو يهز رأسه ببطءٍ:

- معتقدش.

ثم دار بعينه في المكان حوله متابعًا:

- بس الأكيد إنها شاكة.. دا السبب الوحيد اللي يخليها تقطع أجازة مخصوص وتنزل المستشفى النهاردة بالذات عشان تسأل عني.

انعقد حاجبا محمود أكثر وهو يحك ذقنه بسبابته ويشير برأسه ناحية الباب الداخلي المغلق أمامهم متمتمًا:

- في الحالة دي يبقى ميصحش أبدًا تشوف بيلي.

تمتم الأخير في اقتضابٍ مؤيدًا:

- بالضبط.

انفتح الباب في تلك اللحظة دالفًا من خلاله بلال الذي انفغر فاه استنكارًا وهو يتطلع إلى محمود الواقف أمامه قبل أن يقول:

- إنت صاحي؟ طب يا عم ما تطلع تشوف البني آدمة اللي إنت لاطعها بقالك ساعة برة دي.

أتاه الرد من فتحي قبل الأخير وهو يُخبره:

- دكتورة هناء عرفت العنوان وزمانها جاية على هنا.. هنتصرف إزاي؟

ارتسم التوتر على ملامحه وهو يُغلق الباب موقفًا صوت الموسيقى المنبعثة هاتفًا:

- إيه الكلام دا؟

لوَّح فتحي بيده في عصبيةٍ، وهو يقول:

- اللي حصل بقى.. كلموني من هناك قالولي دلوقتي.

وقف بجسده النحيل أمامهم مفكرًا قبل أن يهتف في اندفاع:

- خلاص لو جت منفتحلهاش.. نسيبها تخبط عالباب وكأننا مش موجودين.

هزَّ فتحي رأسه بغير اقتناعٍ، وهو يقول:

- لا طبعًا دا مش حل.. متعرفش إنت الدكتورة هناء زيي.. لما بتبقى في حاجة شاغلاها مبتسيبهاش..

ولو هتقف قدام الباب سنة مستنية إن حد يفتحلها هتعملها.. خلي بالك إني مبردش على تليفوناتها بقالي فترة.. فا دا بالنسبالها الخيط الأخير.

فكر بلال مرةً أخرى قبل أن يتمتم:

- يبقى تنزل تقابلها برة.. خدها وانزلوا اقعدوا في أي حتة.. المهم متطلعلناش هنا.

بدا شيء من استحسانٍ للفكرة على ملامح فتحي، بينما تدخل محمود معترضًا:

- غلط.. أولاً إحنا مش عارفين هتيجي إمتى.. ثانيًا لو لاحظت أي محاولة حجب بتتعمل عليها هتتأكد شكوكها بشكل أكبر.. وبكدا نبقى كبرنا العقدة محلياهاش.

نطق بالعبارة وسبابته ما زالت تحك ذقنه في محاولة منه للتركيز بينما تدخل بلال قائلًا في عصبيةٍ:

- طب ماإنت كدا بتقفلها في وشنا.. نستنى يعني وإحنا مفيش قدامنا حل واللا إيه أنا مش فاهم قصدك؟

صمت في لحظة تفكير تطلع خلالها إليه محاولاً شحذ المعطيات في عقله وهو يتمتم ببطءٍ:

- لأ برضو.. أكيد في حل.

قالها ثم استطرد مكررًا نفس الجملة كأنما يُحدث نفسه وببطءٍ أكبر:

- أكيد طبعًا في حل.

****

-4-

السَّبَبُ الرَّابِعُ لِلسَّعَادَةِ

أَنْ يَظَلُّوا فِي انْتِظَارَكْ..

****

نحو بابِ شقتها على صوت طرقاتٍ هادئةٍ فوقه نهضت زينب.. تضم طفلتها الصغيرة إلى صدرها في حنانٍ وتمدُّ يدها لتفتحه..

لم تُصدق عينيْها حين رأته.. تنفس قلبها ابتهاجًا ثم ارتمت بين أحضانه في لهفةٍ وهي تصيح:

- نبيل؟

لم يرَ في حياته سعادة قدر تلك التي رآها في عين أخته ذلك اليوم..

مضت شهورٌ منذ أنجبت لم يزرها خلالها مرةً..

كذلك هو لم يُصدق عينه حين رآها..

ما هذا النحول الذي أصابها؟

هزيلة برزت عظام وجهها وبدا سوادٌ حول عينيْها مع كدمة مزرقة على جنب خدها الأيمن..

زينب ماذا جرى لك؟ تلك النضرة على وجهك مَن محاها؟ وجمالك أين راح؟

أشاحت بوجهها عن عينيهِ متهربةً.. تحججت بمتاعب الولادة وطمأنته أنها بخير.. ثم شاغلته بالرضيعة التي رفعتها أمامه متمتمةً:

- سلمي على خالو يا شمس.

بابتسامةٍ حملت الكثير من المشاعر نظر إلى ذات الشهور أمامه قبل أن ينحني مُقبلاً جبهتها برفقٍ وهو يسأل:

- صحتها عاملة إيه؟

أجابته أن بخيرٍ رغم الصمم الذي وُلدت به..

جاءت الطفلة الصغيرة الى عالمها صماء بعيبٍ في العصب السمعي أخبر الأطباء زينب أن لا أمل في علاجه..

أزعجها الأمر في بدايته.. لكنها ارتضت قضاء الله فيه من بعد ذلك..

جلسا على مدى ساعات لم يشعر هو بمضيها.. انشغل فيها بتأملهما كأنما يملأ بهما فراغ احتياجه..

كان يفتقدهما كثيرًا..

ضحكا معًا على ذكرياتٍ قديمةٍ.. وغلبتهما الدموع فوق الشواهد..

سألته عن سلوى.. فهز رأسه بلا معنى وتفادى ذكر الحقيقة..

لم يُخبرها بأمر ابتعادهما..

لم يُفصح لها عن تلك الفجوة التي صنعها بينهما صمته وهروبه واستسلامه لليأس الذي لمحته في عينيه..

- اتخطبت؟

- معرفش.

كشفت نبرته في نطقها الحقيقة.. فتمتمت مربتةً على كتفه:

- مبتكلمهاش خالص؟

- معنديش وقت.. ولا هيا كمان بقى عندها وقت.. عادي يا زينب.

قالها في شيء من كبرياء منهار.. ثم تنهد بعدها متمتمًا في ألمٍ وبنبرةٍ أقل حدة:

- الدنيا بتتغير.

تطلعت عبر عينيْه إلى قلبه ثم قرأت:

- بس إنت متغيرتش معاها يا نبيل.

قالتها تقصد الدنيا مُحطمة كل حواجز اللامبالاة التي أحاط بها مشاعره..

كانت تفهمه وتشعر به بدافع الإنسانية أولاً قبل الأخوة.. لكنه تهرباً من نظراتها الكاشفة.. نقل دفة الحوار إلى محور جديدٍ وهو يسأل:

- إنتي عاملة إيه في حياتك يا زينب؟

لم تجبه.. فقط مطت شفتيها ومنحته نظرة أدرك هو أيضًا مغزاها..

نظرة تحمل بين ثناياها يأسًا يألفه عن ظهر قلب..

يبدو أنها مثله.. تحيا فقط..

لم تمنحه المساحة حينها لاستيضاح الأمور..

ودَّ لو سألها عن كل ما يجول في نفسه من علامات استفهام..

عن ذلك الضعف البادي في ملامحها والنحول الشديد..

عن زوجها.. ذلك الذي تغيب عن يوم ولادتها.. والذي دلف إلى المكان مطلاً عليهما في منتصف الحوار بعينٍ محمرة.. ووجهٍ مسودٍ باهتٍ حياهما به على مضضٍ قبل أن يرحل عائدًا للداخل بعد نظرةٍ مختلسةٍ مترقّبةٍ رمقته بها..

يبدو المرض واضحاً على قسماته تمامًا كما يبدو عليها..

كانت نظراته تنضح بكل أسئلته التي جاوبتها هي بالصمت وعينٍ مطرقةٍ..

خدي بالك من صحتك يا زينب.. عالأقل عشان خاطر شمس..

بعينٍ توقفت على حدودها العبرات همست:

- هتيجي تزورني تاني؟

أومأ برأسه أن نعم وهي تستطرد محاولة تمالك مشاعرها:

- هنستناك أنا وشمس دايمًا يا نبيل.. متبقاش تغيب علينا.

غمغم في هدوءٍ:

- بإذن الله يا زينب.. بإذن الله.

هتفت بغتةً وكأنما تذكرت شيئًا ما:

- نسيت أقولك.. عم فتحي وبلال بيسلموا عليك.. بيكلموني الاتنين يتطمنوا على شمس كل أسبوع.

ارتفع حاجباه بشيء من الدهشة متذكرًا أولاء الذين التقاهم يوم الولادة في المستشفى مغمغمًا:

- الله يسلمهم.

قالها في نهاية لقائهما وهو واقف على عتبة الباب يُصافحها بعد عناقٍ بينهما دافيءٍ دام لأطول من دقيقةٍ.. تمتمت خلالها بين أحضانه قبل أن يرحل:

- متستسلمش ليأسك يا نبيل.. متعملش زيي.. امسك في الحاجة اللي بتفرحك.. واوعى تسيبها تضيع منك.

وكأن عبارتها الأخيرة أيقظته من جمود.. ترددت في عقله يتأملها طوال طريق العودة الذي سلكه..

أي شيء كانت تقصد؟ أي شيء هذا القادر على إخماد شعلة اليأس المتقدة في كيانه؟

يصعد درج السلم حتى سطح بنايته التي توقف مستنِدًا إلى سورها منهمرًا بداخله فيضٌ من الأسئلة طالع بها الحارة الضيقة من تحته وكل المارين فيها جيئةً وذهابًا من بينهم تلك العائدة من عملها ليلاً بخطواتٍ رقيقةٍ يألفها سرح مع أثرها لساعات امتدت حتى مطلع النسمات الأولى من الفجر..

سلوى.. ذلك السر المحير المتواثب ما بين عقله والقلب..

أهي العادة التي أدمنها.. أم أنها الحب المتنامي فيه منذ الصغر؟..

ما سرُّ احتياجه لها بهذا الشكل؟

لماذا يشعره غيابها دومًا بالوجع؟

أسئلة طالما تهرب من إجابتها حتى بات وكأن الجواب عنها مستحيل..

بدى الشروق الطالع يومها كأنما يروي نبتة الإصرار التي ذبلت في روحه .. فاعتدل بها متجهاً نحو غرفته الصغيرة ..

ربما تحركه كلمات زينب.. وربما هو ملٌّ أصابه بعد شهورٍ من الكآبة والحزن جعله ينهض متخذًا قراره..

سيتمسك بشيء يُفرحه..

لن تنفلت منه الأمور بتلك البساطة..

لن يستسلم ليأسه.. ولن تنساه سلوى..

جزءٌ منه فيها عليه أن يبقى.. بأية وسيلةٍ وبأي شكلٍ من الأشكال..

مدَّ يده ممسكًا بالكرسي الخشبي الوحيد في المكان.. رفعه عاليًا ثم ألقى به فوق الأرض بكل عنفٍ وقوةٍ..

تحطمت إحدى أقدامه محدثةً جلبةً عاليةً شاركت صوت ارتطامه بأرضية المكان..

سلوى تسكن تحته..

يتخيلها ترمق سقفها إثر الضجيج وتتساءل عن سببه..

مؤكد أنها سترمق سقفها إثر الضجيج كلما تكرر.. مؤكد أنها ستفعل كما فعلت في صغرها ذات أيام تبادلا فيها رسائلهما عبر طرقات فوق جدارٍ كان يفصل بينهما..

لا يعلم إن كانت تتذكر شيئًا كهذا مرَّت أعوامٌ على ذكراه لكنه سيحاول إحياءه من جديدٍ..

يكفيه أن تراودها لمحةٌ عنه في يومها ولو مارقةً..

يكفيه أن يطل على ركنٍ من عقلها برغم الغياب..

سيُذكرها به الضجيج.. وستفهم منه النداء..

نعم.. هذا ما يأمل فيه..

نعم.. هذا ما سيحدث..

ترك الكرسي المكسور على حاله أرضًا وقفز بقدميه فوق الأرض بكل قوةٍ..

الصوت جيدٌ، لكنه لا يكفي..

صعد بقدميه فوق السرير ومنه بقفزةٍ أعلى للأرض محدثًا دبيبًا آخر..

ها هو ذا اليائس يتعلق بقشة أملٍ تُعيد منه جزءًا للحياة التي طالما أرادته مهمشًا على أطرافها..

سيتمسك بالطرف المتبقي له منها حتى الرمق الأخير..

وسيعيد كرَّة النداء بقفزاته فوق الأرض على سقفها كل صباح دون يأسٍ..

علها تفهم..

ولعلها -هي أيضاً- تنتظره..

****

((أنا أول مرة شفتك فيها عرفت إنك غيرهم...

كنت قاعد في الكازينو بتشرب زيك زي كل اللي حواليك.. بس عنيك كان فيها حزن مشفتوش في عين أي حد..

حسيته يمكن عشان شبه الحزن اللي كنت بشوفه في عيني وأنا واقفة قدام مراية البيت لوحدي بعد كل ليلة شغل..

أنا فاكرة لحد النهاردة أول حاجة عملتها لما قربت منك..

حطيت الفلوس قدامك عالترابيزة وقلتلي لو اللي جايبك مدير مكان عايزك تظبطي زباينه خدي الفلوس دي وروحيله بيها.. ولو اللي جايبك حاجة تانية جواكي خدي الفلوس برضو.. واقعدي كلميني عنها..

ساعتها بصراحة أنا بصيت عالفلوس.. بس عمري ما حسيت إني بكرهها قد ما كرهتها وهي قدامك في اللحظة دي..

إنت خليتني في لحظة أكتشف إن الحاجة اللي طول عمري بجري وراها هيا نفسها الطوق اللي بلفه على رقبتي وخانقني..

طول عمري بقنع نفسي بالكدب إن الفقر مشكلتي .. بس الحقيقة أصلاً غير كدا..

أنا مشكلتي مكانتش أبدًا في فقر الفلوس.. أنا مشكلتي كانت نفسي اللي رخصتها وسبتها لعبة في إيد اختيارات وقرارات كل من هب ودب..

معرفتش آخد الفلوس من قدامك.. ولا عرفت أقعد وأقولك إني كنت جاية بكامل اختياري الحر.. لأني قبل كلامك دا مكنتش أعرف أصلاً يعني ايه حرية..

لقيتني ببعد.. دخلت حمام المكان وفضلت جواه أعيط بحرقة على الحال اللي وصَّلت نفسي ليه..

أنا ليه اخترت لنفسي كل ده؟

ليه سبت الناس هما اللي يختاروليِ ؟..

ليه معشتش يوم واحد من عمري بنفسي لنفسي؟..

حتى دموعي اللي نازله ساعتها حسيت كأنها بتسيل على جلد غيري..

جلد حسس عليه كل الكلاب..

لعنت الإحساس اللي فيا ألف مرة.. وفي نفس الوقت خفت عليه ألف مرة..

كانت أول مرة أحس.. كانت فعلاً أول مرة أحس.. وكلامك كان هو السبب..

عشان كدا أنا لما سمعت صوت الترابيزة وهي بتتقلب برة وطلعت لقيتك واقع قدامي على الأرض محسبتهاش ولا حسيت بنفسي إلا وأنا بسندك وبجري بيك عالمستشفى..

وعشان كدا برضو النهاردة بقولك إن أي حاجة هتطلبها مني أنا هعملها.. من غير حتى ما أعرف ليها سبب..

إنت غيرت فيا حاجات كتير أوي يا محمود باشا..

وصحيت جوايا حاجات أكتر..))

****

بالبذلة الميري التي احتوت خزيه وقف مستترًا إلى جنبٍ أمام باب خشبي طرقه عدة طرقات..

مبتعدًا عن مجال العين السحرية المترقبة في منتصفه..

كان يعلم أن أحدًا من الداخل ربما لن يفتح له إن أفصح عن هويته..

انفتح الباب على وجه ذلك الذي أطل بفانلةٍ داخليةٍ بيضاء مع رأسه يطالع الطارق المتواري قبل أن يعقد حاجبيه في شيءٍ من توترٍ، قائلًا:

- بيومي؟ عايز إيه بالضبط؟..

سأله بيومي في بطءٍ غير آبهٍ لسؤاله:

- أختك هنا؟

تردد سعيد شقيق زوجته وهو يُكرر سؤاله:

- عايز منها إيه يا بيومي؟ ورايح ليه تقف لمحمد قدام مدرسته النهاردة ؟؟ احنا مش قلنا خلاص بقى نفضها سيرة ومشاكلنا مع بعض نحلها في المحاكم؟

قالها وهو يُحاول رد الباب في وجه هذا الأخير الذي مدَّ يده يمنعه وهو يقول في شيءٍ من حِدةٍ:

- أختك لسه على ذمتي يا سعيد ومحصلش طلاق.. ومش من حقك تمنعني أشوفها أو أشوف محمد ابني.

نطق بها قبل أن تمتزج نبرته مع لمحة توسل مكملاً:

- أرجوك يا سعيد عايز أشوفها.. أنا جايلك بصفتي جوز أختك بس ومش طالب غير دقيقتين من وقتها مش أكتر.

تردد الرجل في إجابته بعض الشيء، بينما هو يكرر:

- أرجوك !..

تنهَّد في صمتٍ قبل أن يُتمتم:

- مش عارف والله أقولك إيه يا بيومي.. مش هكدب عليك الصراحة إنت اللي عملته في ابنك مخليها مش طايقة تشوفك.

سأله في حزنٍ:

- هو عامل إيه دلوقتي؟

تنهَّد مرةً أخرى وهو يُجيب وقد شعر نحوه بشيء من الشفقة جعله يُعيد الباب إلى وضعه المفتوح متمتمًا:

- مش كويس للأسف.. ابنك بقى على طول خايف.. صدمته فيك مكانتش بسيطة.. وأختي في الأول والآخر أم.. مينفعش أبدًا تطلب منها إنها تسامحك وهيا شايفة حال ابنها بالشكل ده.

أوجعته الكلمات التي يُدرك مدى صدقها.. صمت لوهلةٍ، ثم قال له:

- دخلني أكلمها يا سيد.. بحق العشرة.. عندي كلمتين من حقها تعرفهم.. متخلينيش أنزل بيهم تاني بالله عليك.

تطلع سيد إليه مفكرًا.. ثم التفت إلى ما وراءه بالداخل قبل أن يفتح الباب متخذًا قرار دعوته للدخول.

دلف بيومي بخطواتٍ ثقيلةٍ إلى المكان متوقفًا حيث أشار إليه الرجل الذي سبقه نحو باب غرفةٍ مغلقةٍ طرَق بابها مرتين ثم نادى على ساكنتها بصوتٍ مرتفعٍ:

- أسما.. بيومي هنا وعايز يقولك كلمتين.

برهة من الصمت مرَّت.. احتبست فيها أنفاس بيومي المترقب في بذلته الميري قبل أن يأتيه صوتها المحتد من الداخل:

- عايز إيه يا بيومي؟.. امشي بقى يا أخي.. امشي كفاية علينا اللي عملته.. كلمتين إيه تاني اللي جي وعايز تقولهم؟

- أسما..

نطق الكلمة بصعوبةٍ بالغةٍ..

وبحروفٍ خرجت ثقيلةً من بين شفتيه استطرد:

- أنا مش جي النهاردة أبرر.. أنا جي أقولك بس إن معاكي حق في كل اللي عملتيه وبتعمليه.. جي أقولك إني مش قادر أسامح نفسي..

أنا دلوقتي عرفت حجمي الطبيعي.. وعرفت إن عمري ما كنت البني آدم اللي يستاهل يعيش مع ست محترمة زيك ولا يبقى مسئول عن تربية طفل زي محمد..

أنا محافظتش عالنعمة اللي ربنا اكرمني بيها فيكوا يا أسما.. وعارف إني مهما حكيتلك عن اللي حاسس بيه في اللحظة دي مش هتصدقيني..

أنا بتعاقب بيك..

- "بعد إيه؟"

قاطعته بالتساؤل المقتضب في مرارةٍ:

- إيه فايدة فوقانك وكلامك دا بعد ما كسرت بإيدك أحلى حاجة بنيناها مع بعض؟

أنا ياما حذرتك من ظلم الناس.. ياما قلتلك خلي بالك.. كنت بتتجبر على إيه وإنت حياالله مخلوق من مخاليق ربنا ومحتاج رضاه زي ما كلنا محتاجينه؟..

إنت متعرفش إنت كسرت إيه بإديك في قلب ابنك..

متعرفش هزيته إزاي من جوا وخليته معدوم الثقة في كل شيء حواليه..

ابننا اللي مكانش البيت بيفضى من صوت ضحكته.. بقى يصحى طول الليل يعيط مفزوع خايف يلاقيك داخل عليه..

بقى بيشوف الدم اللي شافه على إديك يومها في كل حاجة حواليه..

الحيطة.. سريره.. حتى فأكله..

إنت السلطة اللي معاك خلتك للأسف تدوس على حاجات كتير أوي عمرها ما هترجع أبدًا زي ما كانت..

قضيت على طفولته وبراءته والصورة اللي المفروض كان يرسمها جواه للأب..

أرجوك امشي وكفاية عليا وعليه اللي حصل.. خليني أحاول مع الزمن أصلح اللي إنت بإديك بوظته.. يمكن نسيانك يكون هو الحل..

ابنك نايم دلوقتي يا بيومي ومن فضلك مش عايزاه يصحى وإنت موجود..

غمغم دون جدالٍ يترجاها:

- حاضر يا أسما.. أنا همشي.. أنا جي أقولك إني من غير قضايا هطلقك وهعملك كل اللي إنتي عايزاه.. بس طلبي الأخير تفتحي تخليني أشوفه ولو لمرة أخيرة وهو نايم.

صمتت.. في حين تبادل شقيقها النظرات معه ومع الباب قبل أن يقول مستشعرًا صدق الأخير:

افتحيله الباب يا أسما.. الراجل من حقه يشوف ابنه.

لحظات عدم اقتناع راودتها فتحت بعدها بها الباب متفادية النظر اليه .

سبقه سعيد يشير لها بالتنحي إلى جنبٍ.. ثم تبعه هو ملقيًا النظر على الجسد الصغير النائم مقتربًا منه، فهمست:

- ياريت متلمسوش.. مش عايزاه يصحى بالله عليك ويشوفك.

قالتها وهي لا تزال مشيحةً عنه بوجهها.. فرمقها بشيء من الأسى.. ثم اقترب برأسه من الفتى يشتمُّ أنفاسه دون لمس كما طلبت..

يا ليت لحظة من الماضي تعود..

وأشياء فيه ليتها لم تحدث..

التهم وجهه بعينيْه كأنما يُحاول الاحتفاظ به.. يلتقط له صورةً هي المتاحة لسد شوقه النهم إليه..

عيناه اللتان لم تغلب هذه المرة دموعًا حاول كتمها..

وشفتاه اللتان اهتزتا ناطقةً بكلماتٍ قصارٍ:

- سامحني يا محمد..

سامحنى عشان ربنا يسامحني..

أنا فقت على إديك يا ابني.. وكل اللي بتمناه من ربنا إنك تفهم في يوم من الأيام إن أبوك اتغير بجد.. وإنه هيحاول يعمل أي حاجة عشان يصلح كل غلطة كبيرة عملها في حياته.

قالها ثم اعتدل متجهًا إلى الخارج بعد جذبةٍ من يد سعيد أمام عينيْها التي تجرأت أخيرًا بالنظر إليه..

شيء ما في دموعه التي تراها على وجنتيْه لأول مرة في حياتها ربما منحها بعضًا من الشفقة نحوه..

توقف على عتبة الباب والتفت إليها، ثم غمغم:

- شكرًا يا أسما.. وياريت تحاولي تسامحيني إنتي كمان.

جذبه سعيد مرةٍ أخرى من ذراعه برفق إلى الخارج فتبعه دون مقاومةٍ قبل أن تستوقفهما هي بإشارةٍ من يدها قائلةً بوجعٍ تكتمه:

نفذ وعدك!

رفع نحوها عينيْه ثم أخفضهما بسرعة غير القادر على مواجهتها متمتمًا:

- حاضر يا أسما..

إنتي طالق.

نطق بها ثم خرج مغلقةً هي الباب عليها في ظهره تاركةً لدموعها حرية الانهمار..

بكل الألم.

****

الثانية عصرًا بتوقيت القاهرة..

طرَقات فوق الباب الخشبي..

نغمات موسيقى السيرك..

وأضواء انعكس ضيها فوق كل الأشياء..

اعتدل فتحي إثرها بحركةٍ حادةٍ مستديرًا ناحية الباب.. في حين جرَّ بلال كرسيه إلى الخلف من أمام

المائدة الصغيرة في المكان لينهض متجهًا نحوه وهو يرمقه بنظرةٍ خاصةٍ هامسًا:

- شكلها وصلت.

قالها ثم أدار مقبض الباب ليفتحه قبل أن يتوقف أمام الزائرة التي تطلعت في اندهاشٍ لرؤيته قائلةً:

- عم بلال؟

تأهب فتحي بالداخل مع سماع صوتها.. واشرأب بعنقه قليلاً ليراها.. بينما أتى الرد من بين شفتيْ بلال المرتبكتين:

- دكتورة هناء؟ إنتي إيه اللي جابك؟

ثم استدرك مافي عبارته من فظاظة قائلاً:

- أقصد يعني عرفتي العنوان هنا إزاي؟

أمضت في النظر إليه لحظة صمت لم تتعد الثانيتين أهملت خلالهما سؤاله قبل أن تسأل:

- عم فتحي عندك؟

وقف ممسكًا بالباب الموارب كحائلٍ بين حدود رؤيتها والداخل.. وتردد في الإجابة بعضًا من اللحظات قبل أن ينطق بها:

- آه موجود.

ثم فتحه لها على اتساعه مفسحًا الطريق، وهو يكمل:

- اتفضلي يا دكتورة.. البيت بيتك.

دلفت بكم من الفضول في عينيها رمقت به فتحي الكائن في مكانه يرمقها بدوره في ترقبٍ حاول مداراته خلف قناعٍ من الترحيب وهو ينهض من مكانه لاستقبالها، هاتفًا:

- إيه دا فعلاً مش حلم؟ دكتورة هناء بنفسها جاية تزورنا؟ والله لو نعرف كنا فرشنا الحارة ورد.

كانت مبالغته في الترحيب مريبةً بشكلٍ كبيرٍ.. شعر هو بذلك في نظرتها المتحفزة التي استقبلت بها كلماته وهي تستفسر:

- مبتردش ليه على تليفوناتي يا عم فتحي؟

ارتفع حاجباه في استنكار مصطنع، وهو يرد:

- تليفوناتك؟

استدارت غير آبهةٍ بإنكاره على الفور مواجهة بلال الذي تأهب فور تطلعها إليه وهي تسأله بشكلٍ مباشرٍ:

- إنت اللي متصور في الفيديو بتاع اليوتيوب يا عم بلال.. صح كدا؟

ارتجفت الحروف على طرف شفتيه وتراجعت متخبطةً لا تهديه إلى جواب..

لقد بدأت مواجهتهم مباشرةً..

تلك المرأة تعرف جيدًا فيم أتت..

أصابه التلعثم بتمتماتٍ خرجت من بين شفتيه بلا معنى.. على حين استمرت هي في مواجهته مستطردةً بإصرارٍ:

- هاتلي مليون يأكدولي إنه مش صوتك وبرضو مش هصدقهم.

ضيَّقت عليه الخناق فاستسلم بين حوائط الضغط النفسي الذي صنعته له متمتمًا برأسٍ مُطرقٍ:

- أيوه يا دكتورة.. كان صوتي.. أنا اللي صورت الفيديو ده..

صمتت وهي تنظر إليه..

بقدر ما توقعت أنه صاحب الفيديو.. بقدر ما اندهشت لحظة تأكيده للأمر..

شيء بداخلها كان يتمنى أن تكون مخطئةً..

في أي أمر لا تعلم.. لكنها إشارة الإنذار الحمراء التي أضاءت ركنًا ما من أركان عقلها يوم شاهدت الفيديو هي التي حركتها..

أخرجت هاتفها المحمول أمامهم وضغطت الأزرار لتشغيله قبل أن تمرر جزءًا منه ثم ترفع الشاشة في مواجهة الأخير..

وجه المهرج الجالس أمام الكاميرا.. وصوته الواضح..

" وبمقتضاها اليوم أيضًا.. أشارككم وسيلتي الأخيرة صوب قمتها ببعض ما ملكتم من فضول.. وبأقصى ما ملك قلبي من رغبة وجنونٍ..

لقد قررت أنا.. صاحب الابتسامة المنقوصة من تحت هذا القناع.. ان أنتزع كل مخاوفي على مرأى ومسمع منكم جميعاً..

وأن أخوض تجربة احتراق كاملة, لتحريري كلياً وبشكل نهائي, من كيان مادي صرت أراه اليوم معيقاً..

علها تمنحني الخلاص..".

أوقفت العرض عند هذه النقطة ويدها لا تزال معلقةً بالهاتف المحمول أمامه للحظة.. قبل أن تخفضها متسائلة:

- ممكن أفهم بقى تفسير الكلام دا إيه؟

أشاح بلال بوجهه هربًا من مواجهتها في حين تدخل فتحي هذه المرة قائلاً في سرعةٍ:

- تفسيره إنه حلم يا دكتورة.. حلم وبنحققه.

التفتت له في استنكار فهبَّ من مقعده هاتفًا بحماسٍ لم تعهده منذ أعوامٍ فيه:

- أيوه يا دكتورة حلم.. مستغربة ليه؟ بصي بنفسك شوفي الفيديو جاب كام مشاهدة في أسبوع واحد... بصي على كم التعليقات اللي اتكتبت..

إنتي عارفة كام قناة النهاردة بتدور على صاحب الفيديو دا عشان تعمل معاه لقاء حصري؟

متخيلة كم العروض والمكاسب اللي ممكن تتحقق من ورا دا؟

كانت تستمع إليه مراقبة حماسه في الحديث وعينيْها تتسعان في اندهاشٍ قبل أن تقول:

- إيه كل اللي بتقوله دا؟ حلم إيه اللي إنت بتتكلم عنه؟ مفيش حلم بيتصنع بكدبة.

قالتها وهي تنقل بصرها بينهم..

بلال الذي بات في نظرته شيء من ثباتٍ وهو يتطلع بدوره إلى فتحي الذي أشار إليها بأصبعه قائلاً بنفس الانفعال:

- لأ.. في يا دكتورة..

في زمننا اللي احنا فيه دا أحلام كتير أوي اتبنت على كدبة..

بصي حواليكي شوفي إحنا اتسرقنا كام مرة ورا كام حلم كداب؟..

عديلي كم الأوهام اللي اتباعت واتدفع فيها طموحات وفلوس وأعمار؟..

صمت لحظةً ليلتقط أنفاسه وليتأكد من أن كلماته تترك أثرها المطلوب على ملامحها قبل أن يتابع:

- يا دكتورة إحنا في بلدٍ ظروفها الاقتصادية بتتقلب بإشاعة.. دي صناعتنا الوحيدة اللي إحنا ناجحين فيها..

جاية النهاردة بتلومي الراجل عشان كدبة؟

قالها مشيرًا نحو بلال الذي التمعت عيناه في تأثرٍ، وهو يُكمل:

- ما هو بلال قدامك أهو.. اسأليه خمسة وعشرين سنة صدق ومجهود وضمير في حاجة هو ناجح فيها وصلوه لإيه؟ مونولوجست كان بيقدم للناس عالراديو ضحكة صافية حقيقية في اسكتشات متعوب عليها ساعات وأيام ومتذاكرة كويس أوي..

واحد يمكن لو كان اختار ساعتها الضحكة التافهة والإيحاءات الرخيصة كان حقق شهرة أكبر.. أو كان اتعمله النهاردة برنامج خاص يقدمه عالتليفزيون..

صدقيني.. مكانش أبدًا هينتهي بيه الحال كدا مجرد نقطة على شمال الواحد ملهاش أي لازمة..

راجل كبير مجهول محدش يعرفه.. ضيع شبابه في وهم إنه بيعمل حاجة تعيش.. بس لا هي عاشت.. ولا هو للأسف عرف يكملها..

أشفقت الدكتورة هناء على بلال من كلمات فتحي التي استشعرتها قاسية.. فتمتمت محاولةً تجميل الأمور:

- كلامك مش صح يا عم فتحي.. مين اللي قال إن عم بلال فشل؟.. عم بلال نجاحه في إنه لسه بيحاول.. لسه بيعمل شيء في ناس محتاجاه.. على الأقل عمل منكوا فرقة ناجحة إنت نفسك لسه بتكلمني عن أعداد متابعينها.

أجابتها ضحكته المتهكمة القصيرة وهو يقول:

- نجاح؟.. أنهي نجاح دا اللي تقصديه؟ فيديوهات اليوتيوب؟ وللا قصدك مشروع العلاج بالضحك؟

يا دكتورة أنا مبحاربش بلال.. اسأليه هو نفسه هيقولك إن كل اللي بنعمله دا قصر ديل.. حيلة الضعيف.. نفس أخير ملوش لازمة نحس بيه بس إننا لسه عايشين.

قالها ثم واجه بلال بكلماته قائلاً:

- قوللها انت يا بلال.. فهمها لما جيت المستشفى من سنتين عشان تعرض الفكرة كان إيه هدفك..؟ وفكرها الإدارة هناك في الأول اتعاملت معاك إزاي؟

ابتسم بلال ابتسامةً مريرةً للذكرى التي أطلت مغمغمًا:

- هي الإدارة بس يا فتحي؟ الدنيا كلها كانت بتبصلي على إني مجنون.. واحد عبيط مش عايش معاهم على نفس الأرض.

قالها ثم نظر إلى هناء، وأكمل:

- أنا جيت أعرض الفكرة يا دكتورة لما لقيت إني رخصت..

الحياة فجأة غدرت بيا واكتشفت بعد سنين إنها غفلتني..

لما فقرتي على الراديو من سنين قالولي إنها وقفت.. افتكرت في الأول ساعتها إن دا طبيعي..

حالة طارئة مؤقتة وهتمر.. وهبدأ من تاني في مكان جديد..

كانت كل ما الفترة تطول أقول لنفسي أحسن.. خليك إنت بس مستعد بتكتب اسكتشاتك وبتجهزها عشان الفرصة اللي أكيد فيوم هتيجي..

أتاريها سنة بتاخد وراها سنة.. وأتاريني أنا العبيط الوحيد اللي مش فاهم إن متطلبات السوق اتغيرت..

متطلبات السوق دي اللي أهم عندهم من متطلبات الإنسانية نفسها.. واحدة واحدة لقيت نفسي بعد الشهرة والمجد إنسان تقيل عاللي حواليه..

التليفون اللي مكانش بيبطل رن كأنه مات ..

الفلوس قلت..

بقيت أنزل أمشي في الشارع بالساعات وأقعد عالقهاوي محدش يعبرني غير الصبي اللي بينزللي الشاي.. بس في ساعة الطلب والحساب..

لما جتلي الفكرة كان عشان أعرف أعيش يا دكتورة..

أنا مش ناجح في حاجة غير أني بعرف أضحك الناس..

زمان كان ليا جمهور وثقافة بتحترمني وبتقدر وجودي وشغلي..

لكن النهاردة إحنا بنعمل دا ببواقي حياة.. عشان كام قرش يتكرمشوا ويتحطوا في إيدينا من عيلة العيان اللي اتبسط على شكل صدقة..

كان انفعاله حقيقيًّا إلى الحد الذي أقلق فتحي ذاته.. فاقترب منه مربتًا على كتفه، وهو يقول:

- بلال.. أنا آسف.

أشاح بلال بعينيه المحمرتين مشيرًا له أن لا شيء.. في حين تنهدت الدكتورة هناء في شيء من التأثر

نفضته عن رأسها بعد برهة وهي تقول:

- أنا برضو مش لاقية المنطق.. في حاجة ناقصة.

تحفز فتحي وبلال لعبارتها وهي تدور باحثة فيما حولها وتُكرر:

فيه جزء في الحدوتة مش منطقي.. مش عارفة هو إيه.. ولا فين..

ما زالت تتبع حدسها..

ذلك الضوء الأحمر في عقلها لا زال يضيء..

نظرت نحوهم.. يتراءى لها واضحًا الارتباك البادي على ملامحهم..

سألتهم في حدةٍ عما يجول حقيقة في ذهنها:

- طب اشمعنى النهاردة يا عم فتحي؟ ليه اختارتوا اليوم ده بالذات؟

لم يُحر أحدهم أمامها جوابًا وباتت أسوار فتحي الحصينة على وشك الانهيار، وهي تتمتم متحدثةً إليه:

- عم فتحي.. أنا متأكدة إنك مخبي حاجة عليا.. وبرجوك تصارحني بيها.

تمتم فتحي قائلاً:

- مفيش حاجة يا دكتورة.. إنتي بس اللي م-..

بتر عبارته بغتة في قلقٍ.. مع نظرتها نحو باب الغرفة المغلقة في المكان وإشارة يدها إليها وهي تسأل:

- مين اللي جوا هنا؟

انعقد لسان فتحي في توترٍ، في حين اندفع بلال هذه المرة يقول:

- مفيش حد.. دي أوضة خزين مش أكتر.

لم تضِف لها عبارته غير الشك.. وبدافع فضولها الداخلي اقتربت من الباب ومدت يدها نحو مقبضه قائلة:

- كده؟ طب خلينا نشوف بقى مخزنين فيها إيه.

وقبل أن تكتمل عبارتها.. فتحته..

موسيقى السيرك المرتفعة..

الأضواء الملونة..

ثم شهقة صدرت من بين شفتيها مع تراجع خطوتين إلى الوراء..

فأمامها فوق الفراش داخل الحجرة الصغيرة الضيقة كان محمود يرقد بقميصٍ مفتوحٍ تحت ملاءةٍ تشاركها مع شادية التي سارعت بالغوص أسفلها..

مشهدٌ فاضحٌ احتقن له وجهها وهي تُتمتم في دهشةٍ واستنكارٍ:

- أستاذ محمود؟

قالتها ثم أشاحت بوجهها مبتعدة تصحبها لعثمات محمود الذي انهمك في إغلاق أزرار قميصه المفتوح :

- دكتورة هناء.. إستني.. هشرحلك..

لم تمنحه فرصة المحاولة وهي تلتقط حقيبتها وتبتعد بخطواتٍ واسعةٍ مصدومةً فيهم جميعًا إلى خارج المكان..

لثوانٍ تجمد المشهد في أعين الواقفين.. قبل أن يكسره فتحي الذي تحرَّك بعد لكزةٍ من يد بلال على كتفه يُحاول اللحاق بها على السلم الذي التهمت قدماها درجاته في عجلٍ..

ثوانٍ أخرى من الصمت أفرجت فيها شفتا بلال عن ابتسامةٍ مستترةٍ رمق بها محمود الذي تطلع إليه بدوره متابعًا إغلاق ما تبقى في قميصه من أزرارٍ وهو يقول متهكمًا:

- عاجباك إنت الفضيحة دي طبعًا؟

تمتم بلال قائلاً:

- هيا مش فكرتك؟

في حين انطلقت من بين شفتيْ شادية ضحكةٌ متحمسةٌ وهي تنهض من أسفل الملاءة بملابسها كاملةً وتصيح:

- إيه الدماغ اللي تتوزن بالدهب دي يا محمود باشا؟.. شفت يا عم بلبل خلى الولية تخلع من المكان موهومة إزاي؟

نظر إليها بلال في اندهاشٍ، بينما قهقه محمود وهو ينهض من فوق الفراش قائلاً:

- " ولية " إيه يا عبيطة إنتي؟ دي الدكتورة هناء يا شادية اللي كانت متابعة حالتي في المستشفى.

تراجعت شادية برأسها إلى الوراء وهي تنظر نحوه قاطبةً ما بين حاجبيها قبل أن يفترَّ ثغرها عن دهشة ، وهي تهتف:

- تصدق فعلاً؟ حسيت والله إني شفتها قبل كدا.

ابتسم لها محمود قبل أن يتدخل بلال قائلاً:

- طب وأنا افتكرتيني وللا لسه؟

هزَّت كتفيها متمتمةً:

- ما إنت قلتلي إنك كنت بتمثل في الأفلام زمان.

اتسعت ابتسامته مفسحًا لمحمود مجال الرد وهو يُخبرها:

- بلال برضو إنتي شفتيه معايا في المستشفى يا شادية.

نظرت إليه بغير استيعابٍ، فاستطرد يُحاول تذكيرها:

- إزاي بس مش فاكراه؟ عم بلبل.. كان بيجيلي الأوضة كتير هو وفتحي.. الراجل أبو طاقية غريبة دا اللي كنتي بتستغربي لبسه وكانوا مسميينه في المستشفى شابلن.

بدا الأمر بالنسبة لها مربكًا وعقلها يستعيد صورًا مشوشة لتلك الفترة فوقفت بينهم وسط الغرفة

الصغيرة حائرة غير قادرةٍ على الفهم..

تتضح الأشياء لها شيئًا فشيء..

الآن تفهم سر شعورها المبدئي نحوهم بالألفة.. لكنها لا تُدرك شيئًا دونه..

تمتمت بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا مبقيتش فاهمة حاجة.. إنت لخبطتني كدا يا محمود باشا.

تحرك مربتًا على كتفها في عفويةٍ، وهو يقول:

- متتلخبطيش.. ادخلي دلوقتي بس عالمطبخ حضريلنا لقمة من التلاجة نفطر بيها سوا وتعالي نقعد أفهمك كل حاجة عشان لسه أنا مقلتلكيش إيه اللي مطلوب منك بالضبط..

همت من فوق الفراش جواره وهي تهتف في حماسٍ:

- من عنيا.. وبالمرة هروح أنده على صاحبكوا البلياتشو اللي مخبيينه في الحمام ده.

أشار إليها:

- لا ملكيش دعوة سيبيلي إنتي بيلي.

ثم عاد ملتفتًا نحو بلال وهو يستطرد:

- وإنت روح عشان يا دوب تحضر نفسك.. المشكلة خلاص اتحلت وكله هيمشي بإذن الله زي ما خططنا.

قالها بنبرةٍ حملت الكثير من الثقة..

والأمل..

****

-5-

السَّبَبُ الخَامِسُ لِلسَّعَادَةِ

ما اجتهدنا لتحقيقه.. فكان..

****

أخيرًا نجح الأمر.. تمامًا كما توقع..

أخيرًا تلقت سلوى الرسالة.. ربما بعد وقتٍ طال ولكنها هنا الآن وطرقات يدها فوق الباب الخشبي تباغته..

رآها بلهفة الانتظار قبل أن يفتح..

لم يكن مستعدًا رغم ذلك للقاء الذي طالما خطط له وانتظره..

الغرفة غير مرتبة.. ملابسه الملقاة هنا وهناك.. أطباق الطعام مع الكتب وأوراق العمل منتشرة في كل الأركان..

حاول على عجلٍ أن يلملم ما وقع تحت طائلته..

يُسابق الوقت الكافي لجعل الأمر منطقيًا لا تأخير فيه..

أخبرته مرآته في لحظة وقوف أمامها أن هيئته تبدو مناسبةً.. فقط إن تغاضى عن شعره غير المصفف وذلك الإجهاد البادي على وجهه..

عن كل التفاصيل تغاضى ويده المتشوقة للقائها تمتد لفتح الباب..

وجدها أمامه تقف.. ترمق وجهه المحمر تعرقًا ولهاثه الذي أخفاه خلف عبارة ترحيب خرجت محملةً بشوقٍ لم يرغب حتى في اخفائه:

- سلوى؟

ابتسمت..

فقط وهي تتطلع إلى وجهه ابتسمت وظلت واقفةً بلا تعليقٍ..

وكذلك تجمد الشوق فوق ملامحه على مرِّ ثوانٍ بدت له طويلةً فتمتم به:

- هتفضلي واقفة تبصيلي كدا؟

ظلت كما هي مبتسمة للحظةٍ قبل أن تسأل:

- وانت هتفضل تدبدب فوق أوضتي كتير؟

فاجأته العبارة.. تلعثم أمامها مبتسمًا لا يهتدي للرد..

انفعاله يكتمه وسعادته أمام اللحظة تبدو بلا حدود..

ما زالت سلوى تقرأه؟

ما زال كتابًا مفتوحًا رغم الغيبة أمامها؟

لقد ترجمت حروف طرقاته.. وأدركت معناها..

لم يغيرها الزمن ولم يُنسها..

غمغم ضاحكًا من خلف الرضا المتسلل إلى قلبه:

لو هي اللي هتخليني أشوفك فأنا مش هقدر أبدًا أبطلها..

احمرت وجنتاها خجلًا أمام كلماته متغاضية عن كل صحائف اللوم المختزنة بداخلها..

- ((بلوى)).

نطق بالاسم القديم مجردًا فرفعت عينيْها بروح الطفلة الصغيرة نحوه وهو يتابع:

- أنا مبسوط أوي إني شفتك.

بادلته النظرة قائلة:

- أنا اللي مبسوطة أكتر يا بيلي.

هز رأسه وهو يتأملها، قائلًا بنبرةٍ صادقةٍ:

- شكرًا.

سعيد أنا بحضورك أخيرًا.. فلا تحرميني ابتسامة مشرقة عدتِ بها إلى صباحي..

حين يُراجع تفاصيل تلك الفترة في ذاكرته.. يجد أن الحياة أعادت له فيها ابتساماتٍ ظن أنه وأدها..

صادفته فيها اللحظات المبهجة.. فألقت على روحه السلام.. ومنحته شعور امتنان حفر الطريق مهتديًا إلى قلبه ومستقرًّا فيه..

ها هي ذي سلوى قد عادت.. وعاد الاهتمام المصاحب لحضورها من جديد..

سعادة تهديها إليه الأيام.. وابتسامة قرَّر عدم التفريط فيها..

ربما اختلفت بعض ظروفهما.. لكن دفئًا كان يستشعره سابقًا في احتضان كفها ما زال يعاوده في كل لمسة يد بينهما عبرا من جديد بها الطريق..

كل الأشياء من حوله بدت وكأنها تبارك هذه العودة..

رسم خياله الوجوه جميعها تبتسم.. والشوارع تضحك.. والأرض من أسفل خطاويهم تتقافز طربًا وبهجةً..

اتفقا على لقاء في نهاية كل أسبوع.. يحكي فيه لها عن أحواله.. وتحكي له عن أحوالها التي بدت مستقرةً لا يؤرقه فيها غير شيء واحدٍ وقف كحائلٍ بين لسانه وقلبه كلما استشعر الرغبة في مصارحتها بحبه الذي بات أكيدًا فيه..

شيء واحدٌ منعه من نطق الإجابة التي طالما بحث عنها..

الفارق الاجتماعي..

تلك الفجوة التي اتسعت بينهما في سنوات يأسٍ أمضاها دون هدفٍ..

في فترة افتراقهما السابقة.. لم تجد هي بديلًا لما تركه لها من فراغٍ سوى العمل.. اجتهدت فيه وتطورت.. بينما أمسى هو مستسلمًا خاضعًا في عزلةٍ بات يلعن فيها كل لحظةٍ..

في إحدى شركات الاتصال هي تعمل على تطوير مستواها.. بينما هو لا يزال في بقالته الصغيرة يقطع جبنًا..

تلك هي غصته التي كانت تؤرقه.. تمنعه في لحظات اللقاء من الانجراف..

على الخط الفاصل بين صداقتهم والحب وقف..

يسعى في صمتٍ لإيجاد الحلول..

****

"سبعة قتلى.. حصيلة محاولة الاقتحام الفاشلة لقسم القصر العيني.."

عنوانٌ رنانٌ بخطٍّ عريضٍ على صفحات جريدةٍ مهترئةٍ انهمك بيومي في مطالعة نصه مكررًا قراءته ربما للمرة العاشرة بعينٍ ثابتةٍ ووجهٍ جامدٍ غير مكترثٍ لما حوله من ضجيجٍ وهو يجلس خلف مكتبه الخشبي وسط حفنةٍ من زملائه الأمناء وبعض المواطنين في حجرة تسجيل المحاضر داخل القسم..

يقرأ اسمه المكتوب في نص الخبر تكريمًا للدور الذي ادعوا أنه قام به فيبتسم ابتسامةً مريرةً..

كان يحفظ السطور المكتوبة عن ظهر قلب..

لا شيء من هذا حقيقي.. كل الحروف هنا تكذب..

وبمنتهى الوقاحة..

الأحداث الحقيقية ما زال يذكرها..

انتزعته من خواطره تأوهات مكبل الحركة المحاط بمجموعةٍ من المواطنين انهالوا عليه بالركل والصفعات أمام مكتب زميل يجاوره جلس مستمعًا لحديث أحدهم في برودٍ:

- يا باشا قفشناه متلبس بيفك البطارية من عربية الراجل الطيب دا..

قالها المتحدث مشيرًا إلى (الراجل الطيب) الذي التفت بدوره يكيل لوجه المقصود لكمةً أودعها كل القوة والغضب قائلاً:

- عايز تاخد بطاريتي ليه يا ابن الكلب؟ إحنا لاقيين فلوسنا دي في الشارع؟

ارتد الرجل الملطوم دون تأوه إثر اللكمة بعقل تفصله العقاقير المخدرة تمامًا عن كل ما يُحيط.. لا يبدو على وجهه أي تأثر.. في حين هزّ الأمين الجالس أمامهم رأسه في هدوءٍ وهو يسأل محدثه:

- طب بالراحة كدا وواحدة واحدة عليا عشان أفهم قبل ما أفتح المحضر.. يعني هو الراجل سرق البطارية فعلاً وللا كان لسه هيسرقها؟

هتف الرجل وهو يصفع اللص بدوره:

- يا باشا كان بيسرقها يا باشا.. لقيناه فاتح الكبوت وشغال بيفك فيها.. والـم..

أشار إليه الأمين بنفاد صبرٍ، وهو يكرر:

- يا عمي أنا عايز إجابة واضحة عالسؤال متقعدش تحكيلي في تفاصيل.. البطارية فين دلوقتي؟

ابتلع الرجل جملته وتراجع لا يفهم المقصد.. قبل أن يجاوبه ببطء:

- في العربية لسه.. ما إحنا قفشناه قبل ما يفكها زي ما بقول لحضرتك..

قلب الأمين كفيه أمامهم فوق بعضهما البعض وهو يقول:

- طب يا عمي لا حول ولا قوة إلا بالله.. يعني إنتوا الحمد لله ربنا كرمكوا والبطارية مراحتش.. جاينلي تعملوا محضر على إيه بقى؟

تدخل آخر في عدم استيعاب يتساءل:

- لا مؤاخذة يا باشا إيه اللي حضرتك بتقوله دا بس عشان إحنا مش فاهمين؟

هم الرجل بإجابته وبيومي الجالس جواره يتابع المشهد التقليدي في فتورٍ قبل أن يفتح درجه الخاص ويعيد دس الجريدة القديمة داخله ملتقطا من جوارها بعض الأوراق و..

"عملت إيه في الموضوع إياه؟"

ألقى عليه السؤال زميل آخر اقترب جالسًا على سطح المكتب أمامه فالتفت نحوه بعينٍ مشتتةٍ يسأل:

- موضوع إيه؟

رمقه الرجل بنظرة استنكار، ثم مال نحوه موضحًا:

- موضوع المحضر يا بيومي اللي مراتك عاملاهولك.

تهرب بيومي من النظر إليه وهو يتمتم:

- متشغلش بالك.. خلاص الموضوع انتهى.

ارتفع حاجبا الرجل وهو يهتف:

- لا والله طب تمام... خلصته على إيه بقى احكيلي؟

أشار إليه بيومي بكفه في غير اهتمامٍ مغمغمًا بشيء من صرامةٍ:

- أحكيلك إيه؟.. انتهى وخلاص.. يا ريت بقى كل واحد يخليه في حاله ومتشغلوش بالكوا بالموضوع ده.. مش حدوتة هيا.

تسلل الإحراج محاولاً الولوج إلى وجه الرجل فتصدت له اللامبالاة وهو يقول:

- بشوقك يا عم بيومي.. بشوق شوقك كمان.. إحنا مش صعبان علينا إلا حالك مش أكتر.. بس في الأول والآخر فعلاً الحدوتة كلها بتاعتك.

قالها في امتعاضٍ من غموض الأخير وعناده الذي منع عنه التسلية قبل أن يرحل منصرفًا عنه..

لا يرغب بيومي في الحديث..

لقد منحها حقها أخيرًا..

وبرغم وجعه الداخلي شاطر الحزن في روحه شيء من رضا..

علام كان انتظاره الطويل لعفو لا يستحقه؟

عن أي رحمةٍ بحث وراهن وهو الذي لم يقدم سوى القسوة؟

هو ذكرى فاسدةٌ خيرٌ لها أن تُمحى..

صورةٌ شوهها في عين كليهما بيديه ولا ذنب لهما فيها..

وحشٌ دميمٌ لا يخشى اليوم سوى نفسه.. ولم تُكتب له الجنة..

لقد اختار بداية الطريق ولم يُفكر في نهايته..

محاورًا ضميره الذي استيقظ بعد فوات الأوان.. تجول صورتها في خياله وهي جالسة على نفس الكرسي الخالي أمامه هنا حيث كانت في نفس تلك الحجرة يومها منذ عامٍ تنتظره..

يستعيد وضع صغيرهما فوق قدميها ممسكًا بزجاجة مياه غازيةٍ بكلتا يديه يشرب منها.. بينما هو على بعد منهما عند مدخل القسم يرتكب الجريمة..

وجوه تلوثت قبضته بدمائها.. عيون تباكت بالقهر قبل الألم..

ثم تلك الصرخة التي انطلقت في المكان..

صرخة من بين شفتي ابنه سمعها رغم ضجيج الصيحات من حوله..

هذا الذي خرج بالفضول مفلتًا يد والدته التي اندفعت بدورها خلفه مذعورةً.. ليقفا في منتصف الممر الواسع وراءه يرتعشان كورقتي شجرٍ مصفرتين أوشكتا على توديع غصنيهما في فصل خريف..

عينا البراءة المتسعتان على وجه الصغير لا تريان غير اليد المخضبة بالدم..

تلك النظرة التي رآها في عين صغيره ما زال حتى اللحظة يذكرها..

تلك النظرة التي ستظل ما بقي له من العمر تؤنبه..

لقد كان هو السبب فيها..

ولا أحدُ غيره..

****

بالصدمة التي حملت بها انطلقت الدكتورة هناء مبتعدة عن المكان..

تهبط الدرج عدوًا للأسفل يُحاول اللحاق بها فتحي..

- دكتورة هناء.. استني.

يُناديها.. فلا يجد منها أي رد..

لا تلقي لنداءاته بالاً وهي تواصل الابتعاد..

تندفع خارجةً عبر البوابة الحديدية إلى الحارة الضيقة متخطيةً، ووراءها هو، زهرة التي افترشت المدخل بوعاءٍ بلاستيكي واسعٍ أمامها انهمكت في غسل بعض من قطع الملابس القطنية فيه والتي صاحت متسائلة:

- فيه إيه يا عم فتشحي؟ مزعل ضيوفك واللا إيه؟

لوَّح بكفه لها في عصبيةٍ متمتمًا في همسٍ وهو يواصل متابعة هناء:

- مش ناقصاكي خالص إنتي كمان.

غير آبهةٍ بنظرات المارة الذين أثار فضولهم انفعالها ولا بتلك الفراخ الصغيرة التي تدافعت متفرقةً أمام خطواتها الحادة السريعة هرولت الدكتورة هناء نحو سيارتها المستقرة عند نهاية الشارع..

يُخامرها شعورٌ بالتقزز مما رأت..

سقطة أخلاقية شانها أن شهدتها منذ لحظاتٍ.. وأوجعتها ربما أكثر من وجع كاحلها الذي التوى أسفل منها إثر خطوةٍ بكعب حذائها العالي فوق حصوةٍ صغيرةٍ على أرض الحارة غير الممهدة..

اختل توازنها وآلت للسقوط فامتدت يد فتحي تمسك بذراعها وهو يهتف في قلقٍ حقيقي:

- خلي بالك يا دكتورة.

رمقته بنظرةٍ لائمةٍ أفلتت بعدها ذراعها من بين يديه متابعةً سيرها في صعوبةٍ بقدمٍ تؤلمها متحاملةً على نفسها وهي تغمغم:

- ارجع كمل اللي كنت بتعمله إنت واللي معاك فوق.

باتت سيارتها على بُعد خطواتٍ من قدمٍ تتكيء عليها بصعوبة ومن خلفها فتحي يقول مدافعًا عن نفسه:

- بتلوميني ليه دلوقتي؟ إنتي اللي فتحتي عليهم الأوضة يا دكتورة.. شكك اللي جيتيلنا بيه هو اللي عرضك للموقف ده مش أنا.

وصلت لسيارتها في تلك اللحظة مع انتهاء جملته.. فاستندت بيدٍ على سقفها ضاغطة زر الفتح الآلي على المفتاح في يدها وهي ترد في أسى:

- للأسف أنا غلطتي مكانتش في الشك نفسه.. الغلطة إنه مكانش في أخلاقك.

قالتها وهي تمد يدها لفتح باب السيارة قبل أن تستطرد:

- للأسف يا عم فتحي.. كنت شايفاك أنضف بكتير أوي من كدا..

يا ريتني ما جيت ..

أوجعته كلماتها..

أوجعته بحق رغم إعداده لكل ما حدث..

وكأن لكنتها تسللت إلى مواطن الوجع الحقيقي فيه.. وطرقتها بالشعور الصادق..

لطالما خذل من قبلها كثيرين وقف أمام ضياعهم عاجزًا مكتوف اليدين..

بصوتٍ تملؤه المرارة عبَّر عما يجيش في صدره من أسى مغمغمًا:

- أنا صورتي مهزوزة من زمان أوي يا دكتورة.. إنتي بس اللي مكنتيش واخدة بالك.

التفتت نحوه..

نظراتٌ تجمع اللوم والأسى صامتةً امتدت بين أعينهم فهمت خلالها عن أي شيء يتحدث.. وأي الأمور قصدها في كلماته وهو يسألها مستطردًا:

- تفتكري اللي وقف عاجز وهو بيخسر أعز ناس على قلبه هيقدر يقولك إيه دلوقتي يرجع ثقتك فيه؟

هذا جزءٌ تعرفه عنه..

هذا الرجل تذبحه نفسٌ لوامة.. وتصمه بالذنب الأكبر في حادثةٍ محزنةٍ أفقدته والدته وابن أخيه..

بشيء من إشفاقٍ يناقض الموقف منحته إياه وجدت نفسها تتمتم:

- فرق كبير أوي يا عم فتحي بين اللي بيقف عاجز مش قادر يمنع غلط.. وبين اللي بيختار بإيده إنه يغلط.

أطرق برأسه أمامها وصمت..

هو صادقٌ في شعوره..

وهي محقةٌ في إشفاقها عليه من وجع الضمير على أمرٍ رأت أنه قدري..

وبين هذا وذاك.. تابعت التربيت على قلبه بكلماتها التي خرجت بصوتٍ خفيضٍ:

- عم فتحي إنت عمرك ما كنت السبب في موتهم.. والدتك وابن أخوك ماتوا في الوقت ده وبالطريقة دي عشان ربنا كان رايدلهم كدا.

لحظة من الشفقة راودتها تجاه الرجل أمامها الذي حمل بين جنبات قلبه ألمًا لا يُطاق..

وذكرى لم يعد بمقدوره وحيدًا تحملها..

****

الرابعة عصرًا.. بتوقيت القاهرة..

"طب يتقال إيه بذمتك يا شادية في الشياكة اللي شايفنها قدامنا دي؟"

هتف بالعبارة محمود وهو يقف مستندًا إلى السور فوق السطح وجواره شادية التي جلست على حافته

ملتفتة بدورها نحو بلال الذي أطل عليهم لتوه من داخل المكان ببذلةٍ كحليةٍ ورباط عنق أحمر أطلقت لهم صفيرًا قبل أن تجيبه:

- لا الصراحة إنت كدا بقيت مُز آخر حاجة يا عم بلبل.

شعر الأخير بشيء من الخجل فحكَّ رأسه أمام اطرائاتهم قائلاً:

- أنا قلت بس أما أروح يكون شكلي مناسب يعني.

رفع محمود يمناه مشيرًا بإبهامه وهو يقول:

- مناسب جدًّا يا بلال.. آخر شياكة بجد.

بينما تخلت شادية عن حافة السور الجالسة عليه لتقترب منه مادة يديها إلى ربطة العنق فوق رقبته وهي تضيف:

- دا التلفزيون النهاردة هينور.. ومش بعيد نجوم كتير يغيروا.. بس خليني أغيرلك ربطة الكرافتة القديمة دي عشان الحاجات دي بتفرق مع البنات.

أسلم نفسه لها تعدل ما تراه مناسبًا في أثناء تأمله للوحة السماء الصافية التي عبر خلالها سربٌ من الطيور اختفى بعيدًا في الأفق ثم عاد بنظره نحوهم متسائلاً:

- متعرفوش أنا ليه حاسس بالخوف؟

ابتسمت هي وهي تتابع هندمته، بينما أجابه محمود مشجعًا:

- لأن دي سمة النجاح يا بلال.. اللي مبيخافش مبينجحش يا صديقي.

قالها في اللحظة التي أنهت فيها شادية تعديلاتها فوضعت يدها على صدره، وهي تُخبره:

- كدا كله تمام.. ومش ناقصنا غير حبة ثقة.

دفءٌ ما تسلل عبر كفها إلى قلبه المضطربة دقاته فهدأ..

سكونٌ شعر به في عينيها وهي تتطلع إليه مستطردةً:

- لما سألتني الصبح عن الماضي.. وقلتلي هل ممكن يكون في ماضي في حياتنا اتوجد بس عشان نتحسر عليه.. ساعتها أنا معرفتش أرد.. بس دلوقتي أنا عندي رد ومقتنعة بيه جدًّ كمان.

رمقها بنظرة تساؤلٍ، فتابعت:

- اللي اكتشفته وشفته الشوية اللي قعدتهم معاكوا دول فهموني حاجات أكتر مااللي كنت فاكرة إني فهمتها..

أنا عايزة أقولك بجد إن مفيش ماضي اتعاش من غير هدف..

حتى لو كان كئيب.. فجماله في إنه علمنا.. قوانا.. والأجمل المساحة اللي خلانا نغلط فيها عشان نتعلم منكررش نفس الغلط دا تاني النهاردة..

فهمتني يا عم بلال؟

سألته في نهاية جملتها فلم يجب..

فقط رمق محمود بنظرةٍ ممتنةٍ طويلةٍ تمتم في آخرها:

- أول حاجة مفيدة في حياتك تعملها إنك عرفتني عالشخصية العجيبة دي.

ضحك له محمود وهو يمد يده له مصافحًا قبل الرحيل مع قوله:

- سبحان مغير الأحوال.

تجاهل بلال يد صديقه الممدودة قليلاً وهو يضع يده في جيبه باحثًا عن شيء ما لم يلبث أن أخرجها به ليضعه في كف شادية الواقفة بينهم وعلى وجهها أمارات الرضا..

نظرت إليه في يدها تتبينه قبل أن ترفع عينيْها نحوه مرةً أخرى في استغرابٍ مغمغمةً:

- إيه دي؟ خمسة جنيه قديمة؟

بادلها محمود التعجب وهو يرمق ورقة الخمسة جنيهات المهترئة بين يديها ملتفتًا معها نحو بلال الذي ابتسم في هدوءٍ وهو يقول:

- مش أي خمسة جنيه.. دي أغلى خمسه جنيه خدتها في حياتي.. تستاهلي يا شادية إنك تخليها معاكي من النهاردة.

لم تبدد كلماته أثر العجب المرتسم فوق وجوههم فاتسعت الابتسامة فوق وجهه أكثر وهو يستطرد:

- أما تشوفوا الحلقة النهاردة هتفهموا.

قالها ثم مد يده أخيرًا يصافح محمود الذي شد على كفيه قائلاً:

- يلا انطلق.. اتكلم بثقة.. واستنى مني الإشارة.

ظلت كلماتهم المشجعة في نهاية اللقاء تصاحبه طوال الطريق الذي قطعه إلى ماسبيرو حتى وصل..

ساعة في السير أمضاها يتهادى بين الشوارع والذكرى..

أنيق هو كالأيام الخوالي بحُلته الكحلية التي وقف بها أخيراً أمام المبني العريق للحظة.. جالت برأسه فيها الخواطر فاصطحبها معه وهو يعبر خطوته المفتقدة منذ سنين إلى داخل المكان..

يُخرج بطاقته الشخصية التي تناولها منه أحد رجال الاستقبال مطالعًا ما عليها من بيانات قبل أن يشير إليه قائلاً:

- أستاذ بلال أهلاً بحضرتك.. الدور الثامن عاليمين.

اتبع إشارة الرجل وهو في غير الحاجة لها..

هذا هو المكان المفعم بالذكريات..

لقد حفظ كل ركن فيه.. ارتاد كل جنباته ذات يوم... ربما أشياء كثيرة فيه تغيرت.. ووجوه أكثر اختلفت.. لكنه وبرغم كل شيء يبدو له مألوفًا..

وكأن السنين لم تغير في جدرانه شيئًا سوى العابرين أمامها..

وقف أمام طابور المصعد مع حشد الواقفين ثم استقله معهم إلى طابقه المنشود..

وصل فخرج منه منحنيًا يؤكد على التماعة حذائه بمنديلٍ صغيرٍ في يده ألقى به داخل إحدى سلال المهملات قبل أن تستقبله بنظرةٍ مرحبةٍ تلك الإعلامية الشابة التي اقتربت نحوه هاتفةً في تساؤلٍ:

- حضرتك الأستاذ بلال مرزوق.. صح كدا؟

عاجلها صوتٌ جَهْوَرِيٌّ من خلفها لشخصٍ اقترب بدوره من بلال قبل أن يربت على كتفه في مرحٍ:

- بلال مرزووووووووووووووق.. يا ابن الإيه شكلك متغيرش.. لسه زي ما انت مفيش إلا شعرك اللي خف شوية دا بس..

واحشني يا عم إنت.

نظر بلال نحوه محاولاً تذكره دون جدوى.. فأسرع التاني يخبره بنفس المرح:

- متحاولش.. مش هتعرفني.

أنا كمال البنداري.. كنت في فريق إخراج برنامجك القديم.. والنهاردة مخرج البرنامج اللي سيادتك هتنورنا فيه ياصانع الضحكة يا جامد.

ابتسم له بلال متعجبًا كم الاختلاف الذي طرأ على ملامحه.. وببطء تكلم:

- كمال؟ إزيك عامل إيه؟

ربت فوق كتفه الرجل مرةً أخرى وهو يسير به دفعًا داخل الممر في اتجاه الأستوديو قائلًا بنفس طريقته المبتهجة المتعجلة:

- والله بخير الحمد لله وتمام.. كله تمام.. إنت اللي عامل إيه في الدنيا؟.. بص إحنا لينا قعدة طويلة بإذن الله بعد الحلقة اللي هتكسر الدنيا دي يا ضيفي العزيز.

نسيت صحيح أعرفك بلبنى.. هي اللي هتعمل معاك اللقاء.. خليتها هي اللي تكلمك في التليفون تتفق عالحلقة عشان لما تيجي أفاجأك أنا.. ركز في الحلقة بقى مش فيها عشان أنا عارفك شقي قديم.

كان يتحدث بلا توقفٍ دون أن يترك له الفرصة لاستيعاب أو رد.. وكعادة المخرجين المتعجلين دومًا من أمرهم تركه داخل المكان في مواجهة لبنى ثم انطلق يتابع تجهيزات ما قبل البدء.. في حين ابتسمت لبنى في وجهه قائلة:

- إن شاء الله هتكون فقرة ممتازة في البرنامج النهاردة.. ومتوترش نفسك خالص.. إحنا أسئلتنا بسيطة والساعة معانا هتمر هوا.

رمقها باستخفافٍ لم يكن يقصده وهو يقول:

- متتوتريش إنتي.. القعدة دي أنا واخد عليها من قبل ما تتولدي.

شعرت بالحرج أمام إجابته.. فاستدركت في سرعةٍ:

- أكيد طبعًا.. أستاذ كمال حاكيلي عن حضرتك كل حاجة.. وادائي فكرة بس سريعة عن مونولوجاتك اللي كانت مالية الدنيا ساعتها.. أنا بس بقول كدا لا يكون تغيير الجو بس أو المدة اللي غبتها عن المجال محسساك بالغربة.

حاول الابتسام في وجهها هذه المرة، وهو يرد:

- لا متخافيش.. المهارات المكتسبة لاتسقط بالتقادم.

هزت رأسها مؤيدة.. ثم أشارت إليه بالجلوس قائلةً:

- طيب اتفضل حضرتك استريح هنا والمعدة ثواني هتجيبلك ورقة الأسئلة تبص عليها قبل ما نطلع هوا.. بص أنا هبدأ فقرات الحلقة كمان نص ساعة وإنت لما يجي دورك هيبلغوك.. هنكون مع بعض الساعة 6 بالضبط إن شاء الله.

قالتها ثم أشارت إلى أحد العاملين بالمكان الذي اقترب منه بدوره يسأل:

- تشرب حاجة يا فندم؟

أشار إليه أن لا.. ولها أن تابعي ما ستفعلينه فرحلا عنه ليستقر هو في مكانه بين العاملين فوق مقعد الانتظار..

- هانت يا بلال.. فات الكتير.

حدث بها نفسه وهو يرمق الساعة في يده بنظرةٍ عابرةٍ وعقاربها التي أشارت إلى الخامسة إلا بضع دقائق..

ها هي ذي ساعة الصفر التي انتظروها جميعًا منذ شهور..

أوشكت..

****

-6-

السَّبَبُ السَّادِسُ لِلسَّعَادَةِ

رجْعُ ذكرى ما زالت بخيرٍ..

****

سبع سنواتٍ في غرفة السطح الضيقة عليه مرَّت..

فكر في ذلك وهو يسير عائدًا بجلبابٍ أبيض يرتديه من ساحة المسجد الكبير يتردد من خلفه صوتُ تكبيرات العيد..

رائحة البارود المتسللة عبر أنفه من أثر الألعاب النارية في أيدي صغار المنطقة لا تزعجه بقدر تلك السعادة التي راقبها في أعينهم حاسدًا يواصل طريق السير حتى الباب الحديدي المفتوح للبناية..

هو المدلل التائق لتربيتهٍ غابت عنه أكُفها..

راوده الشعور في ضحكاتهم المحلقة وركضاتهم حول ذويهم..

وقف بهدوءٍ مستسلمٍ بدت فيه نظراته أشبه بنظرات ذلك العجل المقيد بحبلٍ عريضٍ ربطوا به رأسه في

البوابة الحديدية المفتوحة تحتشد من حوله العيون الفضولية منتظرًا مصيره المحتوم..

سبع سنوات كيف أمضاها؟ وكيف غافله فيها العمر؟

هل طالت غفوته إلى هذا الحد؟

أسئلةٌ راودته وهو يقف أمام البوابة إلى جوار العجل هنا في نفس المكان الذي ودعته عنده سلوى منذ أسابيع يوم رحيلها..

على أعتاب البناية أمامه بعينٍ يملؤها الحزن وقفت.. من ورائها عربة نقل خاصة شرع بعض الفاعلين في تحميلها بالأثاث استعدادًا للعزال..

قرر أهلها فجأةً ودون سابق تحذير الانتقال إلى سكنٍ آخر.. في منطقةٍ أخرى..

لم تعد الحارة الضيقة ولا تلك الشقة القديمة مكانًا مناسبًا لأوضاعهم التي تغيرت..

تلك هي النهاية إذن؟..

أهكذا سترحل رفيقة صباه؟..

لم يجد حينها بداخله جرأةً لسؤالها عن السبب..

ولم تساوره رغبة سؤالها عن العنوان..

اكتفى بضم جنبات قلبه على اللهفة ليبقيها داخله..

يبدو احتفاظه بالذكرى وحدها أمرًا أفضل..

كان الحزن المرتسم فوق عينيها عميقًا.. ربما لم يكن حزنًا كما ظنه.. لكنه احتوى بكل التأكيد على خوفٍ مبهمٍ لم تدرك نفسها مغزاه..

ارتباكٌ يساورها في لحظة توديع ماض بكل ما اعتادت عليه فيه لخوض مستقبلٍ مجهولٍ في مكانٍ آخر..

بتنحيةٍ لشعوره الخاص وقتها وأمام ما رآه في عينيها من ضعف وجد نفسه يمد يديه مربتًا فوق كتفيها وهو يغمغم بنبرةٍ خرجت منه مؤثرة مقنعة له هو ذاته:

"مع السلامة يا سلوى.. ومتنسيش ايد ربنا المحطوطة عليكي في أي مكان هتروحيه".

نظرت له.. واحمرار مقلتيها يشيان بحاجتها لاحتضان قوي يعتصر كل ما فيها من مشاعر..

قالت:

- خلي بالك من نفسك.

هزَّ رأسه أن حسنًا..

ارتعشت شفتاها وهي تسأله بصوتٍ خفيضٍ:

- هو إحنا مش هنشوف بعض تاني؟

فرد ذراعيه على جانبي جسده قائلاً بابتهاجٍ نجح في اصطناعه:

- مين عارف الأيام يا سلوى مخبيالنا إيه؟

اتسع احمرار عينيْها ليشمل الوجه كله وهي تبتسم بطرف شفتيها في عتابٍ قصيرٍ بينها وبين الذكرى، ثم سألته بتلقائيتها المعهودة:

- إحنا مرتبطناش ليه يا نبيل؟

كان لا يزال مبتسمًا أمامها وإن انطفأ في عينيه بعض الضي المصطنع وهو يتطلع إلى الأفق خلفها سارحًا يتنهد قبل أن يجيب:

- النصيب يا سلوى.

لم تجادله في قوله وعيناها ترصدان كل خلجاته ومشاعره حتى تلك التي يُخفيها..

فقط نظرت إليه، وقالت:

- أنا حبيتك جدًّا يا نبيل والله العظيم.

لم يعرف ما الذي كتمه حينها ومنعه من البوح عن ذلك الذي يجيش في صدره..

لسببٍ ما فضَّل الصمت أمام اعترافها متنهدًا يلتقط من الهواء حوله نسمات الرضا قبل أن يضمها إليه في حرارة..

كان هذا عادلاً بالنسبة له إلى أقصى الحدود..

من قلب الموقف الحزين برعم سعادة ينبت..

لقد باحت له لأنها تعلم في قراره نفسها أن لقاءً آخر بينهما من وسط إلهاءات الحياة لن يحدث..

هي أخبرته لأنها لا تنوي ترك شيء خلفها بعد الرحيل..

بينما هو صمت.. ليبقى منها شيء فيه..

احتضنها بصدقٍ دعاه القلب إلى فعله.. احتضنها رغم كل المحيطين بهما في الشارع..

رغم شهقة والدتها المتفاجئة من داخل السيارة خلفهما، وهي تصيح:

- يادي الفضايح .. بتعملوا إيه يا عيال؟

رغم تهامس المارين وكل النظرات..

عناق اشتهاء شعوري التمس به منها دفئًا أخيرًا..

وهي برغم كل ما كان استسلمت له وهو يعتصرها بشيء من حنان متمتمًا:

- اوعديني تخلي بالك من نفسك يا سلوى.. وتحافظي على صورنا اللي معاكي.. عشان هيا المكان الوحيد اللي هتشوفيني فيه دايمًا مبسوط.

ثم أبعدها عن صدره وهو يمسك بكتفيها متطلعًا إلى الوجه الملائكي مستطردًا:

- متفقين؟

هزت له رأسها وهي تقول:

- أوعدك.

على هذا ودعها.. وهكذا رحلت..

كالحياة هي .. ترحل فجأة ..

لم يكن رحيلها موجعًا بقدر ما أضاف لروحه من خبراتٍ..

لحظات كتلك.. تجعلنا غير آبهين بكل ما سبقها من أحداثٍ.. غير آبهين بكل ما يتلوها..

نحن غير مسئولين عن تقصي أسباب كل ما يمر بنا في طريق العمر.. ولا عن الناتج المنتظر من ورائه..

لقد جنى ثمرة أعوام مضت في لحظة وداع لم تتجاوز الدقائق ..

صوت خوار أخيرٍ تصاعد من حنجرة العجل المذبوح استله من خواطره لأرض الواقع..

لربما بدا السكين الذي استل أحدهم بها عنقه شبيهة بذلك الاستسلام الذي استل منه سنين عمر سار فيها تحت وطأة الروتين اليومي مخدوعًا يتسلل إلى حياته التغيير عبر التجارب..

سبع سنوات مرَّت عليه مروضة نفسه العنيدة لتجعله أكثر هدوءًا وحكمةً..

سبع سنوات اعتاد فيها كل يوم العودة من عمله ليستلقي فوق سريره الصغير سارحًا حتى ينام..

نحن نكرر الأشياء حتى نعتادها.. والكذبة حتى نصدقها..

هذا تمامًا ما حدث معه..

وهذا ما استسلم تمامًا له..

****

"فينك يا جزمة؟"

هتفت بالكلمة سماح عبر هاتفها المحمول محادثة شادية بصوتٍ مرتفعٍ حاولت أن تعلو به على ما يُحيط بها من أصوات زحام في الشارع أمام إحدى دور العرض الموجودة فيً منطقة وسط البلد محاولة لصقه بأذنها قدر الاستطاعة لاستقبال صوت مجيبتها على الجهة الأخرى قبل أن تتابع:

- مستنياكي أنا والبنات مطرح ما اتفقنا بقالي ربع ساعة يخرب بيتك وقفتي حالنا.

أتاها صوت شادية على الجهة الأخرى بصوتٍ لم تستطع تمييزه من الضجيج المحيط فرفعت صوتها أكثر صائحةً:

- مش سامعاكي.. بتقولي إيه؟

كررت شادية جملتها فصاحت سماح مستنكرةً:

- أنا مالي بالسينما؟ إحنا واقفين قدامها بس مستنييينك.

صمتت مرةً أخرى قبل أن تهتف:

- لأ معرفش خلص العرض وللا لسه.. بس اه في زحمة قدامها..

علي صوتك وحياة أمك شوية بس عشان سامعاكي بالعافية.

برهة أخرى من الصمت مرت قبل أن تومئ برأسها مؤكدةً:

- بقولك العرض خلص أو هيبتدي معرفش بس الدنيا زحمة هنا.. هنعمل إيه بقى؟

قالتها وأنصتت قبل أن تتسع عيناها في استنكارٍ متسائلةً عن صحة ما سمعته:

- نعم يا اختي؟ عايزة تعطلي الشارع؟

حدثتها شادية بشيءٍ ما قبل أن تتمتم بنفس الاستنكار:

- والله؟ طب أنا هعملهالك إزاي دي؟

طيب خلاص اقفلي اقفلي.. أنا هتصرف بس متتأخريش إنتي.. اقفلي.

أغلقت جوالها المحمول ملتفتةً إلى عيون الفتيات المترقبات حولها ينتظرن، وإحداهن تسألها:

- فينها البتاعة دي؟ هيا جايبانا هنا تعلقنا؟

أجابتها سماح في شرودٍ وقد سرحت بنظرها متطلعة نحو سلم دار العرض ومن أحاط به من جموعٍ:

- جاية في السكة.. بتقول قدامها تلت ساعة.. بس قالتلي عاللي هنعمله.

قالتها قبل أن تستقر عيناها على فتى وحيد يقف وسط الحشد يتابع صور الأفلام المعروضة على نوافذ الدار بحيرة الاختيار فيما بينها قبل أن تشير إلى إحداهن، قائلة:

- تعالي إنتي معايا يا يسرا.. وانتوا خليكوا هنا مستنيين ولما أشاورلكوا قرّبوا.

تبعتها المقصودةٍ دون ترددٍ مقتربةً معها ناحية الشاب الواقف منفردًا ليتوقفن خلفه قبل أن تميل سماح نحو أذنها هامسةً في خبثٍ:

- اعذريني بقى يا يسرا.. الشغل شغل.

وقبل أن تستوعب الفتاة مقصدها جذبت قميصها الذي ترتديه بشدةٍ مزقته ليظهر من أسفله صدرها قبل أن تدفعها بسرعة نحو الشاب الذي استفاق من حيرته على امرأةٍ تشهق مرتطمة به شبه عاريةٍ مع صوتٍ مرتفعٍ من سماح التي صاحت:

- إيه اللي إنت عملته دا، إنت مجنون؟ الحقونا يا جماعة بيتحرش بأختي.

وفجأة.. بات الموقف مشتعلاً وسط الزحام..

دون سوابق تحذير..

****

لا تعرف ما الذي أبقاها..

أهو الفضول؟

أم أنه الضمير الذي أبى عليها تركه وحيدًا بمثل تلك العذابات؟..

ربما أرادت أن تسمعه..

تتساءل فيما بينها عن الأمر من داخل سيارتها التي ظلت واقفة إلى جنب الرصيف كما كانت في تلك الحارة الصغيرة الضيقة جالسة هي داخلها بدافع من رغبة مبهمة تنصت السمع لفتحي الذي جاورها وتكلم..

لم يكن كلامًا عابرًا هذا الذي شاركها فيه..

كان حديث قلب يئن رسم فيه بكلماته لها مشهد يومه المشئوم بكل ما احتواه من تفاصيل..

ترى الصورة أمامها من بين شفتيه وكأنها للتو تحدث..

تستشعر الوجع الذي اعتصر كيانه حين عاد من عمله إلى البيت في فجر تلك الليلة..

وترى معه أزقة كانت تخلو حينها تمامًا من البشر.. ..

الكلاب الضالة تنبح مستقبلةً قدومه وهو السائر وحده باعتياد بينهم غير آبهٍ..

منهك القوى بعد يوم عمل شاق في المشفى أمضاه..

يصعد في تثاقلٍ درجًا مظلمًا أنارته خيوط الشروق..

رائحة الغاز تلك.. من أين تأتيه؟

تواصل الازدياد بينما يواصل هو صعوده..

وقف أمام الباب..

الرائحة الخانقة يتسلل معها عبر أنفه القلق وهو يمد يده نحو الباب بمفتاحه قبل دفعه لينفتح مجليًا حقيقة لم يتوقع أبدًا أن يراها..

كل شيء في المكان كما هو مستقر..

كل شيء ساكن..

كل شيء..

حتى الجسديْن المتمدديْن فوق الأريكة أمامه كانا ساكنين..

تحتل وجوههم زرقة يألفها فوق وجوه يراها كل يوم..

صوت تسريب الغاز الآتي من داخل المطبخ واضحًا يفسر مصدر الرائحة ويحكي كل شيء بقسوةٍ..

لقد وصل متأخرًا ليلتها بعد أن نفذ الموت الهادئ معهم مهمته..

وصل وقد انتهى كل شيء..

كان يحكي بمعاناة موجوعٍ لا متنفس له سوى بعض من لحظات البوح منحته هي إياها دون اتفاقٍ أو قصدٍ..

تمتمت بعد الصمت الطويل الذي انتهى إليه تحاول تهوين الأمر:

- الله يرحمها ويرحمه يا فتحي.. بس صدقني الموضوع مخرجش عن إطار القدر.. حادثة تسريب غاز

طبيعية كان ممكن تحصل حتى وانتوا التلاتة موجودين..

فتح عينيه.. وبصوته المبحوح تهكم مكررًا:

- حادثة تسريب غاز.. ما هو دا اللي اتكتب على تقرير الوفاة يا دكتورة.

همت بقول شيء ما فمنعها باستمرار كلماته متابعًا:

- ودا اللي كان نفسي ضميري يصدقه ولو حتى بالكدب.. بس الحقيقة إنه مش الغاز هو اللي قتلهم.. ولا ينفع يكون الشماعة اللي أعلق عليها غلطتي..

أنا اللي قتلتهم يا دكتورة.. وهيا دي الحقيقة للأسف..

أنا اللي لو مكنتش اتأخرت يومها مكانش السيناريو دا كله حصل..

لو مكنتش وعدت أمي وأنا نازل وأكدتلها إني هجيب الطلبات معايا مكانتش استنت من الأول كل ده.. ولا كانت هتضطر تنزل تعبانة بنفسها في آخر الليل عشان تجيبها...

لو مكنتش خلفت الاتفاق كنت سبتلها من الأول فرصة ترتيب الأمور..

أنا المذنب الوحيد هنا يا دكتورة.. أنا المجرم اللي قتلهم بإهماله..

تمتمت بصوتٍ خافتٍ لم يسمعه:

- ليه مُصر تقتل نفسك بإحساس ذنب على حاجة مكانتش أصلاً في إديك ؟؟.. دا قدر يا عم فتحي.

كان يتحدث وأنفاسه المحترقة تعلو على صوته الذي استمر متهدجًا يُعيد به سرد الماضي:

- عارفة يا دكتورة؟

واجعني أوي إن أمي الله يرحمها وهي بتحضر لعزومة تجمعنا عليها.. مكانتش تعرف إن اجتماعنا هيكون على صوان عزاها هي وحسام.

تنهدت الدكتورة هناء في تأثرٍ وهي تقول منزعجةً من إصراره على جلد نفسه:

- تاني بقولك.. دا قضاء ربنا وقدره.. كله قضاء وقدر والله إنت ملكش أي يد فيه.

لم تنجح كلماتها أمام زفراته الحارة التي استمرت جوارها لبرهةٍ أخرى من الوقت اعتدل بعدها منهيًا الحديث مستفيقًا على أرقام الساعة الظاهرة فوق شاشةٍ صغيرةٍ في السيارة أمامه مغمغمًا:

- يظهر إن الكلام خدني.. بقالي ساعة برغي.. أنا آسف عالتأخير يا دكتورة.. آسف عليه وعلى الإحراج اللي سببتهولك فوق..

نظرت إليه وقالت:

- مفيش أي تأخير.. وبالنسبة لموضوع الإحراج فا بغض النظر عن عدم احترامي التام للمنظر اللي شفته.. إلا إني أنا اللي اتسببت فيه لنفسي لما اتسرعت وفتحت باب مكانش حقي أفتحه.. ولا كنت أعرف إيه اللي وراه.

قالتها ثم أكملت بصدقٍ وهي تتطلع مباشرةً إلى عينيه:

- بس إنت عارف أكيد أنا إيه اللي خلاني أعمل كدا.

صمتت بعد عبارتها متنهدة قبل أن تسأله بصوتٍ خفيضٍ:

- ليه اختارتوا اليوم دا بالذات يا عم فتحي؟

صمت هو الآخر وأشاح بوجهه كأن لم يسمعها..

كان يفهم تمامًا ما تعنيه وهي تستطرد:

- هروبك مني دا ومن مكالماتي كان لازم يخليني أقلق.. وكان طبيعي أقلق أكتر لما أشوف الفيديو اللي عامله بلال.. خصوصًا في الوقت ده بعد سنة بالضبط من اللي حصل..

مكانش عندي ولا قدامي أي حل تاني غير إني أقطع الأجازة وأنزل المستشفى على أمل إني أوصل لك..

إنت يا عم فتحي سبتني مع نفسي لخوف وقلق هما اللي حركوني وكل دا بسبب حاجة عملتها في يوم عشان خاطرك.

أشار إليها بسبابته مذكرًا:

- متنسيش إن مشاعرك كمان قالتلك تعمليها.. أنا حافظك يا دكتورة.. عمرك ما بتعملي حاجة أياً كانت بدون اقتناع.

صمتت للحظةٍ بعد كلماته..

هو على حق..

لكنها حائرةً مشتتةً تسأله:

- هو أنا غلطت يومها؟

هزَّ رأسه نافيًا على الفور، وقال:

- لأ مغلطتيش.. إنتي عملتي ساعتها التصرف الصح الوحيد اللي سمحت بيه الظروف.

تنهدت وهي تقول في حسرةٍ:

- بس أنا زورت حقيقة يا عم فتحي.

- أنهي حقيقة بالضبط؟

تمتم بها في بطءٍ قبل أن يشير بسبابته عبر زجاج السيارة المغلق إلى الحارة الضيقة المطلة عليهم بالخارج متابعًا:

- بصي حواليكي كويس يا دكتورة.

نظرت إلى حيث يشير في تركيز بلا فهمٍ مدققةً في كل التفاصيل بحثًا عن المقصود..

الحارة القديمة..

جدرانٌ آلت للسقوط كحال ساكنيها العابرين هنا وهناك..

وجوهٌ يائسةٌ بات الفقر رابطًا وحيدًا بينهم والعشوائية سمتًا اعتادوا عليه..

ذاك الشحاذ المستند على الجدار المجاور لها بخلجاته المهلهلة وذقنه الطويلة المتسخة بذات لون

الأرض.. عيونٌ صغيرة مُشردة ترمقها وسيارتها الفارهة في شغف واحتياج.. صدى صوت السباب المنبعث من كل ركنٍ حتى بات تمييز مصدره أمرًا مستحيلاً..

هذا ما وجدت نفسها تراه..

صورة مصغرة للجهل والفقر والمرض والهمجية..

صورة مصغرة لكل ما ترفضه إنسانيتها.. يغلفها إطار من صوته الذي تسلل عبر عقلها كالخدر:

- قوليلي فين الحقيقة هنا؟

لم تلق إجابة لسؤاله لكنها فهمته..

عن أي حقيقة حقًّا تتحدث؟

وأي زيفٍ هذا الذي جاءت متحملةً عبء ذنبه؟

إيه من اللي قدامك لسه متزورش؟

إيه من اللي قدامك في مكانه وبشكله الطبيعي اللي كان مفروض يفضل عليه؟

هيا دي الشوارع اللي علمونا زمان نحافظ عليها؟

هما دول العيال اللي بإديهم بكرة يشيلوا البلد؟

هوا دا أصلاً الوطن اللي وعدونا إنه في يوم هيحضنا ويقف ورانا ومش هيتخلى أبدًا عننا؟

صدقيني يا دكتورة هناء.. إحنا بقينا في مجتمع اتعكست فيه كل الآيات.. لو دورتي كويس جواه هتلاقي إن الحقيقة الوحيدة الكاملة هيا إن الغلط فيه بقى هو الحاجة الوحيدة اللي ممكن تكون صح..

تردد صدى كلماته في أذنها بعد فراقهما على طول المسافة التي استنفذتها داخل سيارتها المكيفة في طريق العودة إلى المنزل..

لقد أهداها منطقًا لم تكن تمتلكه..

منحها منظاره الذي رأت عبره الحقائق مجردة كما يراها.. وكما أرادها أن تفعل..

نصف منها لحديثه مقتنع.. يصاحبه نصف آخر ما زال على اعتقاده بأن الصحيح أمرٌ راسخٌ.. لا تزعزعه ظروفٌ أو أشكالٌ تتغير..

تستعيد بالنصفين في مخيلتها صورًا قديمةً مرَّ على التقاطها عامٌ لسبعة قتلى افترشوا الأرض أمامها..

تحت أغطيةٍ من ورق الجرائد..

****

بحفنةٍ من الأوراق رصَّها داخل ملفٍّ خاص يمسك به وقف..

يرمق الباب الكائن أمامه ويزفر قبل طرقه في صمتٍ..

في رأسه تصولُ خواطر عليه تنحيتها قبل الولوج..

قطب ما بين حاجبيه مضيقا الخناق على أفكارٍ يحتويها عقله.. ويده ترتفع إلى المقبض أمامه بعد إذنٍ من صاحب المكتب بالدخول..

يرى أمامه ياسر جالسًا ببروده المعتاد خلف المكتب الخشبي اللامع داخل الحجرة التي باتت تشبهه في برودتها..

وكأنما دلف إلى كيانه.. يشعر باحتواء الأخير له رغم تلك النظرة اللا مبالية التي رمقه بها وهو يلملم من المكان حاجياته استعدادًا للرحيل، متسائلاً دون اهتمامٍ:

- خير يا بيومي؟ عايزني في حاجة؟

لماذا تراوده الرهبة أمام صاحب الملامح الوسيمة؟

يستشعر نطاق السلطة المحيطة به..

يستشعرها في كل شيء حوله.. في الأثاث المحيط.. الموسيقى المنبعثة.. وفي رائحة المعطر المتسللة عبر أنفاسه..

الكل هنا بالمكان طوع إشارة يده..

الكل هنا يقبع رهن نظرةٍ منه أو أمرٍ..

الكل هنا من حوله عبيدٌ وهو بينهم وحده السيد..

تردد بين أفكاره للحظةٍ.. قبل أن يندفع قائلاً في حذرٍ متوترٍ:

- واضح كدا إنه مش خير يا باشا.

تقارب حاجبا الرجل وهو يكرر ببطءٍ:

- مش خير؟.. خش في الموضوع يا بيومي الساعة داخلة على 6 وأنا خلاص بقفل وماشي.. إيه اللي عندك؟

ابتلع بيومي ريقه في صعوبةٍ قبل أن يقترب بخطوتين من الرجل ليضع الملف أمامه على سطح المكتب مغمغمًا:

- الموضوع يا باشا بخصوص فيديو يوتيوب.

ارتفع حاجبا الرجل وهو يرمق بنظره الملف دون أن يمد يده نحوه، ثم سأل مرة أخرى:

- فيديو يوتيوب إيه يا بيومي؟ وايه علاقتنا احنا بالكلام الفاضي ده؟ دا شغل مباحث الانترنت مش تبعنا.

اقترب بيومي منه أكثر وهو يوضح الأمر قائلاً:

- دا يا باشا فيديو اتنشر من أسبوع على صفحة اليوتيوب.. موقع كدا الناس بتنزل عليه فيديوهات مصورينها أو متسجلة.

في تململٍ وبزفرة حنق زفرها اندفع ياسر قائلاً:

- هو أنا بسألك عن اليوتيوب نفسه يا بيومي؟.. هات من الآخر!

هزَّ بيومي رأسه وهو يُجيب:

- صبرك عليا بس يا باشا وأنا هشرحلك كل حاجة.

أشار إليه ياسر بالمواصلة وهو يستند براحته على سطح المكتب مائلاً نحوه في اهتمامٍ لذلك التوتر البادي فوق ملامحه والانفعال الذي تابع به على الفور:

- الموقع دا نزل عليه من أسبوع فيديو لراجل أعلن أنه هيحرق نفسه قدام الناس.

رفع ياسر ذراعه بالساعة عليها يرمقها في تململٍ وهو يرفع حاجبيه في استهتارٍ قائلاً:

- والله كويس.. بوعزيزي جديد يعني وفاكرنا كمصريين هنقلب عليه الدنيا؟ هيا الناس دي مش من هنا؟

لم تستوقف بيومي تلك اللكنة الساخرة التي نطق بها الأخير عبارته وهو يستطرد:

- زي ما حضرتك خدت بالك الفكرة من غرابتها جذبت عدد كبير من المتابعين واللي اهتموا بالموضوع .. خصوصًا إن الفيديو نزل على صفحة أصلاً معروفة وعدد متابعينها كتير.

متململاً مستهينًا بالأمر كله تمتم ياسر في حنقٍ يتعجله:

- شعب زياط بطبعه.. بيجري ورا أي حاجة غريبة.. المهم.. أنا ليه حاسس إنك جي تنقللي قصة نجاح شاب على (السوشيال ميديا)؟

قالها قبل أن يستطرد في حدة:

- إنت فاضي شكلك وجي تهزر معايا هنا يا بيومي؟

تراجع بيومي إلى الوراء أمام تعنيف الرجل متمتمًا بصوتٍ مرتبكٍ:

- يا باشا أبدًا والله.. إديني فرصة بس أشرحلك الموقف للآخر.

تراجع ياسر بدوره على مقعده مستندًا بذقنه فوق راحته وهو يشير إليه هاتفًا في نفاد صبر:

- اخلص!

التقط بيومي أنفاسه، ثم قال:

- أنا مليش أي علاقة بالفيديو أصلاً ولا كنت أعرف عنه أي حاجة قبل إمبارح آخر النهار.. لما جالي هنا واحد صاحب ملك في المنطقة اسمه توفيق.. عايز يعمل محضر في ساكن عنده اسمه نبيل إبراهيم العوضي.. مأجر منه أوضه فوق السطح..

الموضوع بالنسبالي مكانش أكتر من مجرد محضر عادي من المحاضر اللي بتتقدملنا كل يوم.. مفهوش أي شيء غريب.. شاب عادي متعثر في دفع إيجار المكان اللي هو قاعد فيه وصاحب الملك مش عايز يصبر عليه..

وسط الكلام وأنا بكتب مع توفيق المحضر ذكرلي إن الشاب دا عامل فرقة مع مجموعة معاه ليهم صفحة على اليوتيوب وبيعرضوا من خلالها فيديوهات كان آخرهم الفيديو اللي حكيتلك عنه دا..

مش هكدب عليك الموضوع شدني.. اهتميت بنفسي وطلبت من الراجل يوريني الفيديو وإحنا قاعدين على موبايله.. اتفرجت عليه لقيت الأخ طالع بمكياج بلياتشو.. وبيتكلم عن فكرة الحرق دي.. استفزني إنه مطلعش بشكله الحقيقي.. خدت بياناته الكاملة وطلبت عمل كشف جنائي عنها فظهرتلي الكارثة.

تسلل شيء من القلق إلى نفس ياسر بات واضحًا في انعقاد حاجبيه ونبرة صوته التي طرأ عليها بعض

تغيير وهو يعتدل في مقعده أمامه مستفسرًا:

- كارثة إيه بقى؟

استطرد بيومي:

اكتشفت إن الواد دا ليه سابقة عندنا هنا في القسم اتعملت على نفس الموضوع من سنة.. محضر تأخير في دفع الإيجار برضو.

- طلع سوابق يعني؟

تساءل بها ياسر، فأجابه بيومي ببطء بعد أن بات نجاحه في اجتذاب اهتمام الرجل واضحًا على ملامحه:

- لا يا باشا.. مشكلة إيجار مع صاحب الملك مقدرش أعتبره على أساسها سوابق.. المشكلة في اليوم اللي اتقدم فيه المحضر القديم.. لما راجعته لقيته هو هو نفس اليوم اللي حصل فيه اقتحام القسم.

اعتدل ياسر في مقعده مع سماع الجملة وقد ازداد انعقاد حاجبيه..

شحذ حواسه وأرهف سمعه أكثر، بينما بيومي يستطرد مخرجًا من الملف المستقر فوق المكتب ورقةً وضعها أمام ياسر أشار إليها متابعًا:

- دي ورقة راجعتها، فيها كل أسامي اللي كانوا عندنا جوه الحجز يوميها وسيادتك أمرتنا نخرجهم في صف ورا عساكر الأمن المركزي اللي كانوا واقفين ساعتها.

قالها وهو يُخرج ورقة أخرى فردها أيضًا أمامه قبل أن يكمل:

- ودي ورقة بأسامي حالات الوفاة اللي سقطت في اليوم ده..

لو بصيت فيهم هتلاقي إن في اسم زايد في التانية مكانش مجحوز عندنا في القسم أصلاً.. مش مشكلة.. وارد دا يكون واحد من اللي كانوا بيحاولوا ينفذوا الاقتحام.. المشكلة الحقيقية واللي لفتت انتباهي إن اسم نبيل المتسجل في الورقة الأولانية مش مكتوب في لستة الوفيات على الورقة التانية.. ولا حتى موجود في قوائم المحجوزين عندنا حاليًا.. مع العلم إنه مطلعلوش بعدها أي قرار إفراج أو عفو.. ولا مشكلته مع صاحب العقار اتحلت.

في غير استيعاب مفعم بالقلق الذي تسلل الى نفسه تبادلت عينا ياسر النظر فوق الورقتين مطالعًا ما عليهما من أسماء ثم رفعهما نحو بيومي وهو يقول:

- عايز تقول إيه؟

أجابه بيومي بانفعالٍ على الفور:

- عايز أقول إن في واحد مفقود من سنة عندك يا ياسر بيه.. حضر اللي حصل يوم الاقتحام وشاف بعنيه كل الحقيقة هيطلع كمان ساعة في فيديو قدام الآلاف.. ومحدش ضامن هيقول فيه إيه.. بس مفتكرش أبداً إن المراهنة عاللي هيقوله ممكن تكون في صالحنا.

بدا مغزى رسالته في تلك اللحظة واضحًا لياسر الذي كاد حاجباه أن يلتحما، بينما بيومي يؤكد مكملاً :

- عشان كدا إحنا لازم نلحق اللي اسمه نبيل دا قبل ما يصور الفيديو.. وبسرعة.

نطق بها وهو يشير بإصبعه فوق أولى الورقتين على اسم نبيل..

نبيل إبراهيم العوضي..

****

السادسة إلا عشر دقائق.. بتوقيت القاهرة..

"جاهزة يا شادية؟"

على صورتها المنعكسة في المرآة القديمة أمامها وقفت داخل الحمام الصغيرتعدل من وضع زينتها مستقبلة عبارة فتحي الذي دلف إلى المكان لتوه واقفًا خلفها يتابعها في اهتمامٍ..

وممسكة هي بأحمر شفاه مررته فوق شفتيها دون أن تلتفت إليه أجابت:

- إن شاء الله.. محمود باشا قراني على كل حاجة.. وأنا كلمت البنات من شوية قلتلهم من غير تفاصيل يعطلوا الشارع فا متقلقش هما زمانهم بيتعاملو.

تنهد مومئًا برأسه قبل أن يرتفع في المكان من خلفه صوت أغنية لعمرو دياب، ابتسم وجه شادية لسماعها في المرآة قبل أن تستدير نحوه قائلة:

- عارفاها أنا النغمة دي.. دا موبايل محمود باشا.

أومأ برأسه مرةً أخرى قبل أن يتركها متجهًا نحو محمود بالخارج والذي وجده يمسك بهاتفه المحمول يقربه من عينه محاولاً قراءة بيانات المتصل بصعوبةٍ أنقذه منها وهو يشير إليه أن هاته قائلاً:

- ورِيني أنا هشوفلك مين.

ناوله محمود الهاتف على الفور، فرمق شاشته قبل أن يخبره:

- نمرة غريبة.

تحفزت كل عضلةٍ من عضلات وجه الأخير عند سماعه العبارة، وهو يتمتم متلعثمًا:

- نمرة غريبة؟ تفتكر مين؟

كان في عقله احتمال اختلج له قلبه وأدركه فتحي..

أمنية ربما خشى أن يصدقها فيحبط..

هوَّن عليه فتحي الأمر ضاغطًا على زرِّ الإجابة قبل أن يستأذنه واضعًا الهاتف في صمتٍ فوق أذنه..

عين محمود المترقبة تلتهمه.. ووجهه الجامد لا يفصح عن شيء وهو يُنصت قبل أن يفتر ثغره عن ابتسامةٍ واسعةٍ بعد أول عبارةٍ تكلم بها الطرف الآخر..

ابتسامة مدَّ بها يده بالهاتف إلى محمود وهو يهمس في ابتهاجٍ:

- كلم يا محمود.. بنتك.

وكأن الدنيا لحظتها احتوته..

وكأنه صافح الكون بشهيقٍ ملهوفٍ مدَّ به روحه قبل يديه لتمسك بالهاتف المحمول وتضعه فوق أذنه

هاتفا بصوتٍ متهدجٍ وكلمةٍ واحدةٍ:

- ندى؟

أتاه صوتها عبر الأثير مدغدغًا أوتار قلبه:

- وحشتني يا بابا.

برزت شادية من الداخل في تلك الأثناء وانفتح باب الغرفة الصغيرة مفصحًا خلفه عن بيلي بزي المهرج ليقف ثلاثتهم من حوله في المكان متابعين ملامحه المحمرة انفعالاً وصوته المفعم بكم لا حصر له من المشاعر جاوبها به:

- إنتي اللي وحشتيني أوي يا بنتي.. وحشتيني يا ندى.. أخبارك إيه يا حبيبتي؟ طمنيني عليكي عاملة إيه؟

لم ينتزعه عنها صوت موسيقى السيرك التي انطلقت في المكان إثر انفتاح الباب.. ولا تلك الأضواء التي تبادلت وتقاطعت داخله..

كان بوجوده كله مأخوذًا مع ضحكتها القصيرة المميزة.. وصوتها الآتي إليه ملائكيًّا يقول:

- أنا بخير يا بابا الحمد لله.. ومتصلة بيك النهاردة عشان أقولك خبر عارفة إنك هتفرح بيه معايا.

مر فتحي من أمامه عابرًا نحو بيلي مشيرًا بإغلاق الباب لإسكات الموسيقى والأضواء.. بينما محمود يُخبرها:

- أنا هفرح بأي حاجة تفرحك يا ندى.

استمرت في حديثها..

- أنا فاهمة يا بابا إنك في العموم مش راضي عني ولا عن تصرفاتي والحياة الغريبة اللي أنا حابة بحريتي أعيشها..

وعارفة ومتأكدة أوي إن ليك وجهة نظرك وتحكماتك اللي كلها نابعة من منطلق حبك وخوفك عليا.

كانت تتكلم وهو ينصت لها في حب..

ودَّ لو أخبرها برضاه عنها اللا منتهي.. وبأن تحكماته وطريقته الحادة في النقاشات ورفض الرأي الآخر لم تكن أسلوبًا صحيحًا في تربيته..

ودَّ لو أخبرها كيف أنه تعلم الدرس ووعاه.. وكيف يشعر الآن بقيمة كل لحظةٍ لم يترك فيها سواء لها أو لوالدتها حرية الاختيار..

ودَّ الإفصاح عن كل ذلك، لكنه لم يرغب أبدًا في مقاطعتها..

كان يستمتع بنغمة كل حرف يخرج من بين شفتيها إلى أذنه..

تابعت:

- متفهمة أوي إنك كأب تفضل تنقيلي الكلية اللي أدخلها.. الشغل اللي أشتغله.. تبقى عايز بنتك تتجوز بدري عشان القطر ميفوتهاش.. وإنك كأب تحب تختارلها عريسها المناسب عشان تضمنلها الأمان المادي والاجتماعي من وجهة نظرك..

متفهمة كمان إنك تلومني على كل لحظة بضيعها من عمري إنت عايز تلحق تشاركني فيها وتشوف بيها خطوة جديدة في مسار رحلتي اللي بدأت أصلاً بسببك..

وإنك تزعل لما ممشيش عالسكة اللي إنت راسمها..

بس أنا عايزاك برضو تبقى متفهم إني ليا حرية الاختيار.. وإن عمري اللي بعيشه دا بتاعي أنا.. طالما مبعملش فيه شيء غلط أو يغضب ربنا..

أنا اخترت إني أعيش لوحدي بعيد عنك وعن ماما بعد انفصالكوا عشان كنت عارفة إن كل واحد فيكوا هيحاول يعوض نقص جواه فيا.. كل واحد فيكوا عنده حلم كان هيبقى عايز يبنيه على طريقي..

أنا مش عايزاك تكون زعلان مني.. ولا تعتبرني إنسانة عاقة وكارهة وجودك أو مش محتاجاه.

سالت العبرات على وجنتيه مع كلماتها حنينًا، فاقتربت منه شادية مربتةً على صدره وهي تغمغم بصوتٍ خفيضٍ:

- محمود باشا.

بينما تمتم هو:

- فاهم والله يا ندى.. فاهم وعارف إن معاكي حق.. صدقيني لو قلتلك إني عرفت من بدري إن تحكماتي دي كانت السبب في بعدك عني إنتي ووالدتك.. وصدقيني لو قلتلك إني برغم الوجع مقدرلكوا البعد دا ومسامحكوا عليه.

سألته مستشعرة صوته:

- بتعيط ليه طيب دلوقتي؟ هو أنا متصلة عشان أفرحك وللا عشان أخليك تزعل وتعيط كدا؟

أسرع يُجيبها بنفس الصوت:

- دي مش دموع زعل والله يا ندى.. دي دموع فرحة.. أنا بقالي شهور مسمعتش صوتك.

التقطت نفسًا عميقًا من الهواء ملأت به صدرها، ثم قالت:

- طيب بمناسبة إنك مسامح ماما برضو.. عايزاك تنزل تشتريلك بدلة حلوة كدا تكون بيضا عشان دا اللون اللي هيا بتحبه أولاً.. وثانيًا عشان تبقوا لايقين جنبي وانتوا ماسكيين إيدي ونازلين بيا السلم مودوني لعريسي يوم الخميس الجاي إن شاء الله.

لم يصدق ما سمعته أذنه..

انحشرت الكلمات في حلقه واتسعت عيناه في غير استيعابٍ، أحست هي به، فضحكت مرةً أخرى مغمغمةً:

- إيه مالك يا حاج؟ هو إكمني يعني سيدة على مشارف الأربعين يبقى القطر خلاص فاتني؟ مستغرب إني هتجوز أوي كدا ليه؟

طب لعلمك بقى العريس مهندس زيك.. وشبهك برضو كدا مقفل ومتشدد في طريقة تفكيره وتعامله.. بس أنا خليته يتغير.. والنهاردة لأول مرة يطلع جزء من الجنان اللي جواه ويعترفلي بحبه..

اسمه مصطفى يا بابا.. وحبيته عشان شبهك على فكرة فحاجات كتير أوي..

كان يستمع إليها بسعادةٍ مندفعًا يقول لها في فرحةٍ ليس لها مثيل:

ألف مبروك يا حبيبتي.. ألف ألف مبروك..

نطقها بقلبٍ يتراقص طربًا..

وروحٍ سعيدةٍ إلى أقصى الحدود..

****

أنا في البُعد مش بعند..

ولا اخترت الفراق مهرب..

لكني فكل يوم ببعد..

بحس إن إنت بتقرب..

****

أعزائي المشاهدين أهلاً وسهلاً بيكو في حلقة جديدة ويوم جديد مع برنامجكم (الليلة في مصر)..

زي ما عودناكوا دايمًا فقراتنا النهاردة هتتنوع ما بين سياسة واقتصاد وصحة.. هنتكلم خلالها عن مواضيع تهم الشارع المصري وهنرد فيها على تساؤلات بتشغل كل بيت في مصر..

عايزة أقول برضو لكل أم وست بيت مصرية جهزي ورقة وقلم في إيدك من دلوقتي لأننا مش ناسيينك.. نصيبك من فقرات البرنامج محفوظ في الفقرة النسائية الخاصة اللي هنتكلم فيها عن صحة بشرتك وجمالها مع ربع ساعة طبخ هيقدملنا فيها الشيف منتصر النهاردة طريقة عمل البيكاتا.. والحلو معاها كريم كراميل الفراولة..

آخر فقراتنا لليوم وأطولها لقاء خاص جدًّا مع نجم من نجوم الكوميديا اختفى تمامًا عن الساحة من سنين ورجعلنا بمشروع جديد ومفاجأة جديدة هنكون في انتظار الكشف عنها سوا من خلال حوارنا اللي أكيد هيكون شيق معاه..

فقرات برنامجنا الممتدة على مدى ساعتين بوعدكوا أنا الضيفة اللي يارب متكونش تقيلة على قلوبكو (لبنى حرب) إنها هتكون متنوعة جدًّا ومختلفة جداً وملیانة بكل جديد.. فمتغيروش المحطة..

أشوفكم بعد الفاصل.

****

-7-

السَّبَبُ السَّابِعُ لِلسَّعَادَةِ

بعض أحضان نلتمسُ الدفءَ منها..

****

بالقدر الذي اتسعت له عيناه من الحزن تأمل كل شيء حوله..

يقف في الممر الضيق مستندًا إلى باب حجرة حملت رقمًا داخل ذلك المستشفى..

يتابع كلاً من فتحي وبلال اللذيْن جلسا على مقاعد الانتظار أمامه بوجوهٍ تحفظت على الوجع، وأولهما يحتضن شمس التي وقفت بينهما وكيس الحلوى في يدها لا تساورها رغبة التهام شيء منه..

تلك الصغيرة الساكتة ذات السنوات الثماني تستشعر ريح الكآبة المحلقة فوق رؤوس الجميع ولا تفهم في لحظتها غير افتقادٍ لحضن أمها التي قبعت خلف باب الغرفة أمامها راقدة فوق فراشٍ صغيرٍ بين فريقٍ طبي متصل بجسدها المنهك عددٌ من المحاليل وأجهزة قياس حيوية..

الكل حولها يفهم.. وكذلك هو..

متجمدة فوق مقلتيه دموعٌ تُعانده وتأبى الخروج..

الزرقة البائنة على وجه زينب وذلك الوجع الذي رآه منذ لحظاتٍ في روحها يؤلمه..

التقرير الطبي بين يديه يوضح له الحقيقة..

دماؤها التي احتوت نسبةً كبيرةً من المخدر تقتلها.. وتقف المحاليل المخترقة لأوردتها مثله عاجزةً عن فعل شيء..

هي الآن تنتهي.. وهو الآن يفهم.. مؤنبًا نفسه بذنب حقيقةٍ تخاذل في غمرة اليأس عن إدراكها..

كيف تركها على مدى ما سبق من العمر وحيدة تتحمل الألم؟..

كيف تغافل نظرات استغاثة خجلى صارحته فيها بكل ما حاكه لها القدر؟

زوج سقط في هاوية الإدمان.. فقد ضميره قبل عقله مفسدًا من حوله كل شيء..

دسَّ لها عبر الأيام قهرًا سُمه وألقى بها في نهاية المطاف مُطلقةً عاجزةً مع ابنتها تُعاني..

آخر نظراتها له كانت بعينٍ زائغةٍ..

وآخر كلماتها ما همست به في أذنه من فوق الفراش قبل دقائق:

- أنا هموت يا نبيل.

تمتم في غير قدرةٍ على تكذيب المشهد البادي جليًّا أمامه:

- متقوليش كدا يا زينب.. الدكاترة لسه بيحاولوا.. وإحنا كلنا هنا معاكي.

في صعوبة من وهنها ابتسمت.. صوتها يخرج ضعيفًا منكسرًا ببقايا بريقٍ في عينها يخبو:

- الدكاترة مش هيعرفوا يعملوا حاجة.. أنا عارفة إن دي النهاية.. ومش زعلانة عشان تعبت.

لم يلق ما يقوله لها.. فصمت.. بينما صوتها من بين أنفاسٍ مختنقةٍ ثقيلةٍ يتابع:

- شمس يا نبيل.. وصيتك شمس.. خلي بالك منها..

متسيبهاش, هيا ملهاش من بعدي غيرك..

بلاش تبعد بالحزن عنها.. خليها تعيش الحياة اللي إحنا ملحقناش نعيشها..

متطلعهاش شبهنا.. علمها تكون قوية.. وريها الفرحة اللي عمر ما ضعف ولا خوف صنعوها..

كفاية اللي ضاع يانبيل .. متلومش نفسك تاني عليه.. عيش اللي باقيلك مع شمس سيبني أمشي مرتاحة.. إنت ملكش ذنب في اللي حصللي.. أنا اللي خبيت عشان كنت خايفة أخسر.

كان بداخله مرارة لا حد لها وهو يستمع إلى كلماتها التي انبعثت بالصوت الواهن الضعيف..

يشعر بانهيارها البطيء أمامه ويتشبث كالمنتظرين من حوله بآخر أمل..

دفعه في تلك اللحظة من ورائه موقفًا خواطره انفتاح الباب الذي أفصح عن وجه ممرضة حملت عناء نقل الخبر بعبارتين مقتضبتين:

- البقاء لله يا جماعة.. شدوا حيلكوا.

لم يستوعب كيف استقبل خبر موتها..

لم يستوعب بأي مشاعر لمحها من فرجة الباب المفتوح بين فريق المعالجين المخذولين مغطىً وجهها الذي انقطعت عنه الأنفاس بملاءة بيضاء..

كعادته لم يبك.. لا حضن دافئ اليوم معه كحضن سلوى يفرغ فيه دموعه..

فقط أغمض عينيه للحظاتٍ همس فيها لروحها بالرحمة..

ثم اتجه نحو فتحي الذي غلبته دموعه في تأثرٍ قبل به رأس الطفلة الصماء قبل أن يمد يده ملتقطًا كفها المرتعش الصغير..

هذا نصيبه من الدنيا إذن.. وهذا ما آل إليه الحال..

وجعٌ مكتومٌ.. ووجه صغيرة ظن أنها لا تفهم..

مع كمٍّ من الذكرى لا نهاية له حمله معها راحلاً يبتعد عن المكان..

لم يستغرق في النوم ليلتها قدر استغراقه في ملامح شمس التي نامت على فراشه الوحيد في غرفة السطح ليلتها..

أخيرًا استسلمت مع حزنها الصامت كحزنه للنوم.. وعلى وجنتيها جفت دموع ذرفتها كرمقٍ أخيرٍ..

حاول استخدام كرسيه الخشبي الوحيد في المكان للاسترخاء.. لكن إحدى أقدامه المفقودة حالت بينه وبين ذلك فاضطر للجلوس على أرض المكان الباردة مستندًا بظهره إلى الحائط يتابع تسلل أول خيوط شمس الصباح عبر شقوق المكان فوق وجهها الحزين..

هي ما تبقت له بعد أن راح الجميع..

طفلة يتيمة وحيدة صماء.. يتعالى في قلبها ألف صراخ وصراخ.. ترقد مكتوم ألمها فيها أمامه.. ومرسوم بين ثنايا وجهها خيطٌ ممتد طويلٌ من ذكرياته التي لا تموت..

بعضَ من أثر زينب فيها.. لها نفس العيون المحتوية..

خصلات شعرها البني المتعرج تذكره بصغيرةٍ كانت ذات يومٍ ها هنا واسمها سلوى..

لم تكن رائعة التقاسيم.. لكن ملامحها الطبيعية بعثت في نفسه راحةً من نوعٍ عجيبٍ شغلته عن كثيرٍ من الألم الماكث في ذاته..

لقد خرج بها من المستشفى دون أن ينبس ببنت شفة.. قطعا طريقهما سيرًا برغم طول المدة لم يشعرا به..

دلفا معًا عبر الباب الخشبي الصغير إلى المكان..

التعبير الذي ارتسم على وجهها في تلك اللحظة كان شبيهًا بالتعبير المرتسم على وجهه لحظة دخوله لأول مرةٍ إلى نفس المكان منذ سنوات..

تعبير هو مزج متجانس في كمه بين الخوف.. الوحدة.. والحزن..

الفارق الوحيد الذي ارتآه بين كليهما هو أنها لا تستحقه..

هذه الصغيرة لم تصنع حزنها بالاستسلام.. ولم تكن وَحْدتها سوى فرضٍ أجبرتها الحياة عليه..

هذه الصغيرة لا يرى ذنبًا لها في ما انتهى إليه الوضع.. ولا يجد مساحةً فوق وجهها الصغير المشع براءة لكل هذا الأنين..

حدَّث بتلك المشاعر نفسه وهو يتابع أنفاسها التي خرجت هادئةً رتيبةً..

يا باقية من أثري الجميل تبسمي.. للحزن حق في امتلاكي أُقره..

أماك لا شيء تستحقين جنايته إلا الفرح..

هذا ما وعد به شقيقته زينب قبل أن ترحل تاركةً له العالم وما فيه..

هذا ما أقرَّ به وقت استلام أمانته..

وهذا ما انتوى فعله ما دامت له الأنفاس..

هل غاب عن الوعي حينها أم أنه استسلم مثلها للنوم؟.. لا يدري..

فجأة.. امتزج لديه الواقع بعالم الخيال..

وجوهٌ عدة رآها.. مشاهد مختلفة مرَّت على باله.. ووقتٌ طويلٌ ممتدٌّ مدت في نهايته الشمس شعاعًا من ضي الصبح على وجهه أيقظه..

حين صحا رآها هي الأخرى في صمتٍ تنظر إليه..

لحظاتٌ من السكون استهلكها عقله المرتبك للاستيعاب..

لم يكن كل ما مرَّ من ليلته السابقة حلمًا كما تمنى..

لقد رحلت بالفعل زينب.. تاركةً له عينيْها المتسعتيْن على وجهٍ صغيرٍ ترمقانه في حذرٍ..

ابتسم لها رغم ما يعتمل في نفسه.. متمتمًا:

- صباح الخير يا بلوى.

هذا اللقب الذي يحبه.. وجد نفسه دون قصد يناديها به..

شيء ما داخله فضَّل مناداتها بالاسم الذي وجده لائقًا عليها.. مبهجًا له..

هي لم تسمع حرفًا مما قال.. لكن مشاعرها قرأته كما قرأ هو غصتها التي حالت بينها وبين الابتسام..

برهة أخرى مرَّت ما بين اغروراق عينيْها بالدموع ونهوضه هو نحوها مادًّا يده يمسح بها الدموع المنسالة فوق وجنتيها قبل أن يضمها إلى صدره مربتًا..

رباه على دفقة الشعور التي انبعثت من أنفاسها إليه..

رباه على تلك اللحظة التي لم يحدد أيهما احتاجها أكثر..

دفءٌ ما تسلل حينها عبر العناق إلى قلبه..

شيء ما فيه حينها تغير..

لأول مرة في حياته يشعر بالراحة..

أكان يبكي؟.. لا يهم..

ضمَّها إلى صدره أكثر.. وعيناه تتأملان جدران المكان الضيق من حوله..

هنا بهجةٌ كامنةٌ في الجسد الصغير احتواها فانتشرت ماحيةً كل مسحات حزنه التي طلى حوائط المكان يومًا بها..

لدقيقةٍ ربما أو أكثر ظل يضمها مربتًا قبل أن يعود متأملاً وجهها مرةً أخرى ليجدها تبتسم..

هل صادفتم وجهًا تستلهم الشمس منه شروقها؟

هل صادفتم سعادة نبتت من رحم الألم؟

هل صادفتم في لحظة السقوط طوق نجاة ألقت لكم به الأقدار؟

لقد صادف هو كل هذا فيها..

كانت هي الطوق والسعادة والشروق..

هدية منحتها له الظروف..

ولن يسمح اليوم بضياعها..

أبداً..

****

- معايا وضيف فقرتنا الأطول في البرنامج النهاردة واللي هتمتد على مدى ساعة كاملة هو الفنان الكوميدي الكبير والمونولوجست اللي استمتعنا كلنا زمان بأعماله.. الأستاذ بلال مرزوق.

انتقلت الكاميرا بعد كلمات المذيعة إليه.. فابتسم بلال مطالعًا لثانيتين وجهه الذي ظهر على شاشةٍ

عريضةٍ أمامه داخل الأستوديو..

شعورٌ مهيبٌ آتٍ له من الماضي نفضه عن رأسه بسرعةٍ قبل أن يغمغم في هدوءٍ:

- بشكرك على المقدمة الرقيقة دي.. وبشكر كل الجمهور اللي قاعد يتفرج عالحلقة دلوقتي.. عايز بس أنوه عن مبالغتك في المجاملة الأخيرة.. أنا متأكد إن جيل حضرتك بكل تأكيد عمرهم ما سمعوا عني.. ومش بعيد كمان يكون الجيل بتاعي أنا نفسي نسيني.

أطلقت ضحكةً قصيرةً وهي تقول:

- أعتقد إن دا تواضع زيادة من حضرتك يا أستاذ بلا.

ظلت ابتسامته الهادئة رفيقة لوجهه وهو يجيب:

- مش تواضع أبداً والله.. دي الحقيقة.. تقدري تقولي إن السبب فيها هو سوء تصرف من الأجهزة الاعلامية اللي بتهيمن عليها رؤوس الأموال والمصالح السياسية بغض النظر عن القيم الأخلاقية أو الفنية المقدمة من خلالها.

أربكتها إجابته.. هذا الرجل يخوض مع مطلع الحوار وبشكل مباغتٍ في أمورٍ تبدو لها خطوطًا حمراء..

تراجعت في مقعدها مختلسةً لما وراء الكاميرات نظرةً إلى المخرج الذي استحثها بإشارةٍ من يده على متابعة اللقاء، فاعتدلت تتابع حوارها بشكلٍ حاولت جعله منمقًا:

- واضح حضرتك إن عندنا كلام كتير وآراء أكتر هنتداولها خلال نقاشنا اللي باين من الأول كدا إنه هيكون ثري جدًّا.. بس قبل كل ده خلينا نبدأ بالنقطتين الأهم اللي مينفعش نبدأ معاك غير بيهم..

الفنان بلال مرزوق.. يا ريت تعرفنا بنفسك وتكلمنا عن بدايتك الفنية..

اعتدل أمامها في مقعده مجترًّا بنظرته لها بعض الذكريات، ثم تكلم:

- بلال مرزوق.. من مواليد كوم الأشراف في الشرقية.. مصري من أسرةٍ متوسطةٍ.. خريج المعهد العالي للفنون المسرحية.. هاوي لفن المنولوج وتقليد الممثلين من صغري..

بدايتي الفنية الحقيقية بعد الدراسة طبعاً أنا بعتبرها مقترنة ببداية تقديم فقرة أسبوعية خاصة ليا عالراديو بعنوان (ضحكة ونص).. اتقدمت في أوائل التمانينات على شكل فقرات مدتها ربع ساعة كنا بنرصد خلالها كل أسبوع قضية هامة بتشغل الرأي العام وبنقترحلها حلول بس في إطار كوميدي ساخر خفيف على المستمعين.

رفعت حاجبيْها متمتمةً في اهتمامٍ:

- جميلٌ جدًّا.. فكرة أعتقد أنها كانت سابقةً لزمانها في الوقت ده.

أومأ برأسه أن نعم، متابعًا:

- بالضبط.. وبالفعل الفكرة نجحت ولاقت مع الوقت اهتمام وإعجاب من ناس كتير جدا لدرجة خلت المسئولين ساعتها يقولولي بعد عشرين حلقة بالعدد إن البلد مش محتاجة في الوقت الحالي النوع دا من البرامج.. فا اتوقف البرنامج وطبعًا بكل بساطة اضطريت أستنى بالجلابية في بيتي انتظارًا لليوم اللي ابقى فيه هنا قدامك بحكي القصة من جوه نفس المبنى اللي اتمضى فيه قرار الوقف.

صبغ إجابته بسخريةٍ لاذعةٍ جعلت الارتباك يبدو واضحًا على وجهها مع انعقاد لسانها الذي حاولت به استكمال الحديث وهي تُعدل من وضع سماعات الأذن التي أتاها صوت المخرج من خلالها يقول:

- كملي الحوار يا لبنى.. حاولي تطلعيه بس برا إطار الكلام في السياسة.. مهم جدا تكملي معاه الحوار.. نسبة المشاهدة النهاردة عالية جدًا ومش عايزين نخسرها كل دي اعلانات وفلوس.. نطي عالسؤال اللي بعده.

ابتسمت أمام الكاميرات مطلقةً ضحكةً مصطنعةً قصيرةً كست بها توترها وهي تغمغم مغيرةً دفة الحوار:

- عن الحاضر بقى عايزين نتكلم مع حضرتك شوية وهنسألك عن مشروعك الناجح جدًا واللي مؤخرًا حقق انتشار فوق الطبيعي على صفحات اليوتيوب والسوشيال ميديا.. فيديوهات: (الباحثين عن السعادة).. ممكن حضرتك تكلمنا عن الفكرة وإزاي اتكونت ووصلت لنجاحها الكبير دا خلال الفترة القصيرة نسبيًا دي؟

كان قد تناسى تمامًا تلك الكاميرات المنتشرة من حوله.. شعر وكأنه عاد بالزمن إلى الوراء.. جالسًا وسط الأجواء التي اعتادها..

وجد نفسه بطلاقةٍ يتحدث:

- فرقة (الباحثين عن السعادة) بدأت بفكرة مشروع بسيط جدًا اسمه (العلاج بالضحك)..

الفكرة دي فكرة مش أنا اللي اخترعتها.. هي فكرة قديمة ومعروفة جدًا في كتير من دول العالم.. اللي ابتكرها طبيب نفسي من أوهايو اسمه ستيف ويلسون.. واكتشف بعدها دكاترة الأعصاب إن للضحك قيمة عالية جدًا في البقاء على قيد الحياة.. بس للأسف الفكرة دي مش منتشرة أو مش مستهلكة في أوساط مجتمعنا الشرقي والعربي..

كل الموضوع إني حاولت استغلال الفكرة دي خاصة وإني زي ما وضحتلك بعد صدور أوامر بوقف برنامجي الأبواب اتقفلت في وشي.. ومبقيتش الشخص المرغوب فيه عند أي مخرج أو صاحب برنامج.. حضرتك عارفة إن صاحب راس المال عندنا قلبه دايمًا ضعيف.. وصعب جدًا يراهن بفلوسه على حد تحتيه خطوط حمرا.. بالتالي كان لازم أفتح لنفسي مجال جديد.. لو مش هيطلعني من الفقر فعلى الأقل يطلعني برة إطار اليأس اللي حطتني ظروفي كمصري صاحب فكر مختلف فيه.

كانت تهز رأسها في اهتمام متابعة حديثه رامقة بطرف عينها بين الحين والآخر مخرج البرنامج الذي وقف يبدو عليه التحفز لما يقال، بينما بلال بغير محاذير يتابع:

- الفكرة في بدايتها كنت شايفها مناسبة جدًا لطموحي الضئيل كفنان مغمور منبوذ مبقالوش أي لازمة..

أولاً أنا مش هضيف أي تكاليف على الدولة.. ولا همثل عبء على نظام أو راس مال أو جهات خاصة.. وثانيًا كل التكلفة المطلوبة هي المجهود الشخصي.

تدخلت في الحديث محركة كفيها على نحوٍ اعتادته وهي تضع القدم فوق الأخرى، قائلة:

- ممكن أستاذ بلال حضرتك توضح لمشاهدينا الفكرة أكتر؟

- ببساطة جدًا فكرة العلاج بالضحك دي قايمة على تقديم فقرة ضاحكة بسيطة لنزلاء المستشفيات تحسن من حالتهم النفسية وبالتالي الصحية..

فكرة بسيطة جدًا ممكن تميز المستشفى اللي بتعملها وتخلق روح جديدة مبهجة مختلفة عن روح القتامة

اللي موجودة أصلا في مستشفياتنا.

كان يشرح الأمر بحماسةٍ خطفت جام اهتمامها مع عينيها اللتيْن برقتا في إعجاب واندماج هتفت بهما:

- جميل جدًّا.. وعلى هذا الأساس بقى كونت المجموعة اللي معاك وبدأتوا تعملوا صفحة للتواصل مع الناس.. مظبوط كدا؟

استمع في اهتمامٍ لعبارتها قبل أن يضحك لأول مرة في البرنامج وهو يجيب:

- لأ هو الموضوع في الحقيقة مبدأش بالشكل ده.. الفكرة في الأول مكانش بيشاركني فيها حد.. كنت بروح أعرضها بنفسي على إدارات المستشفيات.. منهم اللي كان بيسمعني ويهز راسه.. ومنهم اللي كان بيقوللي فوت علينا السنة الجاية في نفس المعاد.. ومنهم اللي كان بيعتبر كلامي درب من دروب المسخرة وقلة الأدب.. خاصة لما كنت بطلب منهم تخصيص مبلغ مادي كمرتب مقابل الخدمة اللي هقدمها في حال اقتنعوا بيها..

فضلت أعافر في القصة ومفقدتش الأمل من مستشفى للتانية لحد ما اتضحلي إن سبب الرفض وإن اختلفت طرقه مادي بحت..

عرفت دا من آخر مستشفى عرضت عليها الفكرة لما مديرها أصر يكرمشلي خمسه جنيه ورق ويحطها في جيبي وأنا ماشي..

عايز أقولك إن الخمسة جنيه دي بالنسبالي كانت ورقة الحظ.. لأنها دفعتني لعمل تعديل بسيط على الفكرة.. ومبقيتش أهتم بتقديم عرضي لإدارة المستشفيات قد اهتمامي بتقديمه وشرحه للعاملين اللي فيها..

تنازلت عن الهدف المادي ودي كانت تعتبر فعليًّا بالنسبالي بداية النجاح..

بدأت أروح أقعد في صالات الاستقبال جوه المستشفيات الحكومية.. أقدم عروض بسيطة بشكل مجاني.. تعجب بعض الناس وناس تانيين يستغربوها.. بس محدش فيهم كان بيعترض عليها اعتراض مباشر..

ابتدت الفكرة بنفسها مع الوقت تجتذب حواليها جمهورها والمؤمنين بيها..

لحد اليوم اللي قابلت فيه أول عضو من أعضاء الفريق..

عامل شغال في مشرحة أحد المستشفيات المعروفة اسمه فتحي..

فتحي عبد السلام..

أو خلينا نعرفه باسمه الجديد..

عم شابلن.

****

تحركت السياراتُ بطيئةً في صفٍّ واحدٍ حزينٍ خلف تلك التي حملت النعشين احترامًا..

بداخلها إلى جوارهما جلس هو.. فتحي..

لم يكن جلوسًا قدر كونه انبطاحًا.. فوق نعش جثمان والدته الذي أدرك في لحظتها كيف كانت عكازه

الذي طالما توكأ عليه..

حين وصلت السيارات ظهر ذلك اليوم إلى المدافن.. لم يجد في نفسه القدرة على النهوض..

قدماه بدتا أكثر وهنًا تحت ثقل حزنه الكبير.. تحامل عليهما يرتعشان أسفله.. يسير بدفعٍ من خلفه ويداه تقبضان على نعشها المستقر فوق أكتافهم وكتفه..

نعش آخر خلفهم للصغير.. يحمله آخرون..

تكبيرات متتالية قوية خاشعة.. عويل نساء..

وسواد غطى الأرض المقفرة المنتظرة تحت الشمس منذ زمنٍ سحيقٍ..

وهو لا يتردد في أذنه غير صوتها في آخر مكالمةٍ:

- يا ابني لو مش هتتأخر إنت في الشغل مش هنزل للحاجة وهستناك أما تيجي تجيبهالي معاك.

لا يرى أمامه سوى الندم المطل من خلف أبواب المقابر كعيونٍ ملتهبةٍ لا تحرق قلبًا سواه..

هذا القبر الذي فتحوه وحمل مع شقيقه الجثامين إليه تطل منه رائحةٌ كتلك التي يتنفسها.. لن تفارقه..

وهذا الظلام الحالك حولهم بالأسفل قد وجد مكانه في قلبه واستقر إلى الأبد..

عجيبة تلك الرجفة التي أصابته وهو يحملها.. خفيف وزنها دون روح.. والرهبة التي اجتاحته حين وجد نفسه في الظلام واقفًا إلى جوار مثواها..

هو الذي طالما رأى الموت في وجوهٍ أمامه..

هو عامل الثلاجة الذي ساعد في تغسيل مئات الجثث.. لم يشعر يومًا مع إحداها بمثل ما شعر به ذلك اليوم..

وكأن الموت أصناف..

وكأنه يختلف..

انتهت مراسم الدفن..

انتهى الدعاء.. انتهى الزحام..

خفتت أصوات العويل حتى تلاشت..

تحركت السيارات عائدةً كلها..

وبقي هو..

وحيدًا داخل المكان يتأمل الأرض التي التهمت أمه للتو تحت ترابها لساعاتٍ...

تأبى الدموع إراحته فلا يبكي.. ولا يشعر حتى بمرور الوقت.. لولاه حارس المقبرة الذي هزَّ كتفه قبل غروب الشمس لما استفاق..

إلى أين يذهب؟

العزاء، قرر أخوه إقامته في البلد وقد رحلوا جميعًا وتركوه.. هو ليس اجتماعيًّا كشقيقه.. كما أن أهل

الأرض إن اجتمعوا لن يكونوا قادرين على تعزيته..

البيت.. هو آخر مكانٍ يرغب هذه اللحظة في اللجوء إليه..

كان يمشي بلا هدى.. تائهًا لا يفرق بين وجع ساقيه وقلبه.. أيهم يؤلمه أكثر..

تتحادفه الشوارع وتلقي به في نهاية المطاف أمام سور المشفى.. مقر عمله.. لا.. لن يدخله اليوم أيضًا.. كل الأماكن تبدو له خانقة.. والساعة تخطت منتصف الليل.. عليه أن يستريح..

جرَّ قدميْه بما تبقى له فيهما من قوةٍ عابرًا نحو الرصيف المقابل حيث تلك المقهى الساهرة في هدوءٍ..

جلس على أول مقعدٍ صادفه وطلب فنجانًا من القهوة لحجز مكانٍ ليس أكثر..

"مساء الخير يا عم فتحي.. إزيك؟"

انتفض إثر الصوت الذي انبعث فجأةً من خلف أذنه.. واستدار يُطالعه وجه ذلك الطويل الذي نهض من مقعدٍ وراءه يمدُّ يده نحوه بالسلام، ثم ارتسمت على وجهه المنهك وهو يمد يده بدوره علامة استفهام قرأها الرجل الذي تابع بنفس الطريقة العفوية:

- إيه ياعم إنت نسيتني وللا إيه؟ أنا بلال.

قالها ثم سحب لنفسه بنفس العفوية كرسيًا مقابلًا للأخير جلس عليه مستطردًا:

- بلال بتاع المنولوجات.. قابلتك في المستشفى من يومين كنت جي أعرض عالإدارة عندكو فكرة مشروع يخصني.. هما للأسف متحمسوش ليه.. بس أنا مش هفقد الأمل.

لم يكن فتحي في حالٍ يُحسد عليها.. لكنه تذكر مما قال الرجل كفايته، فتمتم يُحاول الحفاظ على مستوى غير فجٍّ من الحديث:

- أهلاً أستاذ بلال.. آه افتكرت حضرتك.. معلش اعذرني.. أنا فعلاً حالي ربنا اللي يعلم بيه ومش عايز أق-..

قاطعه الطويل بالعفوية مهتمًّا قبل أن يُكمل جملته:

- مالك؟

فنظر إليه فتحي باستهجانٍ جعله يستطرد:

- تعبان من إيه يعني؟ تعب نفسي وللا عضوي؟ مش يمكن أقدر أساعدك؟

بنظرةٍ متململة رمقه.. ثم تنهد قبل أن يشيح بوجهه عنه متمتمًا كمن يُنهي الحوار:

- لا ولا حاجة.. لسه راجع بس من دفنة أمي وابن أخويا.. بسيطة يعني.

- البقاء لله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

همس بها بلال مطرقاً رأسه في احترام للحدث وصمت للحظاتٍ ظل خلالها فتحي مغمض العينين.. قبل أن يفتحهما مهتمًا إثر زفرةٍ حارةٍ خرجت من بين شفتيْ بلال تمتم بعدها وكأن أسىً تملكه:

- حقك تزعل أكيد.. بس لعلمك, المشكلة مش في الموت.. المشكلة في الحزن اللي بيجي معاه.. لأنه بيكتم جوانا أي فرصة موجودة فعلياً للفرحة.

ترقرقت عينا فتحي بدموع حبسها على حدود مقلتيه وهو يشيح بوجهه نحو فنجان القهوة الذي تركه العامل لتوه أمامه فوق طاولة معدنية بدى صدئها واضحاً من تحت قشرة الطلاء الرديء التي دُهِنت بها ثم غمغم:

- فرحة ايه ؟ الفرحة النهاردة ماتت خلاص.

اندفع رفيقه الدخيل قائلاً بنفس النبرة:

- أنا زيك قلت كده لما سمعت خبر موت أبويا وأمي الله يرحمهم.

شيء ما في نبرته التي تحدث بها جعلت فتحي يلتفت نحوه مرة أخرى منتظراً مابعد صمته الذي طال هوينة..

تأثراً لها ربما أو اشفاقاً عليه.. وكأنما استشعره شريكاً له في الحزن الذي اكتنفه للحظات قبل أن يدلي بما في نفسه حاكياً:

- واحد سايق عربية وراجع هو ومراته على طريق سفر في عز الليل.. الإستبن فرقع منهم.. مفروض إيه اللي كان يحصل يعني؟

انعقد حاجبا فتحي في تأثرٍ وانطلق عقله يتخيل مشهدًا لحادثٍ أليمٍ رأى فيه سيارةً تنقلب وعظامًا تتهشم و..

- مفروض إيه اللي كان يحصل لما الاستبن يفرقع مقولتليش؟

قاطع بلال تخيله بتكرار السؤال فتعجب أن لا داعي من ذلك.. و..

- الإستبن؟

خرجت الكلمة عبر شفتيه مستنكرةً وقد التقط عقله نشاز موقعها من الإعراب.. متطلعًا إلى بلال الذي استبدل الحزن على وجهه فجأة وعلى نحو مستغرب بابتسامةٍ كبيرةٍ، وهو يقول:

- آه الإستبن يا سيدي.. المفروض يحصل إيه بقى؟

دون شعورٍ منه وجد الابتسامة كأنما انتقل عبقٌ منها إلى شفتيْه ضئيل فأظهرت جنبًا من أسنانه وهو يُجيب:

- مش هيحصل حاجة.. يقفوا عند أي بتاع كاوتش أما يوصلوا ويصلحوها.

لم يمنحه بلال الفرصة لتدارك الأمر.. على الفور أشار إليه صائحًا في ابتهاجٍ:

- طب خلي بالك انت بتبتسم أهو.

لم يفهم فتحي مغزى الجملة وان اقتنص شعوراً دخيلاً تسلل عبر نفسه بالهدوء والأخير يتابع:

ودا معناه ان الفرحة مبتموتش.. بس احنا اللي ساعات بنقرر نوئدها.

قالها ثم صمت ملاحظاً تأثير كلماته على الرجل قبل أن يكمل :

- وهيا دي بقى يا سيدي ببساطة فكرة مشروعي اللي ادارتك رفضته.. واللي محتاج فعلاً دلوقتي ناس تؤمن معايا بيه..

مشروع العلاج بالضحك.

****

السادسة وعشر دقائق.. بتوقيت القاهرة..

بخطواتٍ مهرولةٍ.. وقلبٍ حمل فيضًا من المشاعر المختلطة.. انطلقت شادية تقطع طريقها وسط الأزقةِ غير آبهةٍ بكل ما يُحيطٍ.

على مدى الأفق البعيد أمامها يلوح لها الصخب الذي تبغيه..

يقترب منها أكثر بتسارع خطوات أقدامها اللاهثة نحوه..

يزداد من حولها كلما اقتربت.

زحامٌ ميزت وسطه زميلاتها اللائي استمررن في القيام بدورهم كما يجب ومن حولهم حشد شباب متحمس تفاقمت به الجلبة..

الصرخات الأنثوية الحادة.. والصياح المختلط بلكمات اكتالها البعض لبعضهم.. مع أصوات آلات تنبيه السيارات التي تكتلت وتعطل تمامًا خط سيرها المروري..

تلمح عن بعد سيارة الشرطة التي أضيئت أنوارها بين الأزرق والأحمر وارتفع صوت بوقها عاليًا هناك..

تلك التي من أجلها جاءت.. ولتعطيلها افتعلوا كل شيء..

توقفت عن الركض لحظة رؤيتها تتنفس الصعداء مطالعة الساعة في يدها..

كل شيء مُعدٌّ الآن لتدخلها..

وفي الوقت المناسب..

****

- بنتابع مع حضراتكوا حوارنا الشيق مع الأستاذ بلال مرزوق.. وكنت عايزة أسأل حضرتك سؤال يمكن جه في بالي وإحنا بنتكلم.. عن النقلة اللي طرأت على فكرة حضرتك وطورتها من مجرد فكرة بتتنفذ بشكل بسيط في المستشفيات وأوض العيانين.. لمشروع على الإنترنت وفرقة ليها اسم وصفحة خاصة على اليوتيوب بيتابعها عدد مش قليل من المعجبين.. النقلة دي يا عم بلال.. جت إزاي؟

ألقت عليه السؤال وهي تجلس على مقعدها في الأستوديو أمام الكاميرات واضعة القدم فوق الأخرى في حين أنصت لها هو باهتمامٍ أجابها بعده:

- الحقيقة أن النقلة اللي بتتكلمي عنها دي حصلت مؤخرًا.. يمكن التجهيز ليها هو اللي خد شهور.. بس الفكرة نفسها اتنفذت بشكل فعلي من شهرين تقريبًا.. الموضوع في الأول مجاش بشكل مترتب.. وللصراحة أنا مكانش ليا يد مباشرة في تطبيقه.

تابعته بحديثها قائلة:

- هو دا اللي لفت انتباهي بالضبط وخلاني أسأل حضرتك.. أعتقد إن مشروع زي دا محتاج أكثر من مجرد كونك بتعرف تضحك الناس.. عالم (السوشيال ميديا) في حد ذاته عالم الأكثر خبرة فيه هو جيل الشباب.. وتعقيداته متهيألي كونت عقبات قدامك في بداية الطريق.

هزَّ رأسه نافيًا، وهو يقول:

- مش للدرجة.. الفكرة بداية كلها بتكمن في القدرة على تمويل المشروع ماديًّا.. أنا عايز أقولك إني حتى الآن لا أفقه شيء في النقطة دي ولا أعرف لوحدي حتى أدخل على صفحتنا نفسها من غير مساعدة حد.. بس كل اللي أنا فاهمه أو أقدر أبسطلك بيه وجهة نظري هو إن الإنترنت وسيلة من وسائل الدعاية الحديثة.. زيه زي أي وسيلة إعلانية تانية كل ما اتوفرتلك فيها إمكانية الدفع للمادة اللي بتعلني عنها أيًّا كانت.. كل ما كان وصولها للمستخدم أو المستفيد أسرع وأسهل..

في البداية مش هنكر أنا وفتحي مكانتش عندنا الإمكانيات دي.. ولا الفكر دا أساسًا خاصة وإننا زي ما حضرتك نوهتي من شوية مش من الجيل اللي ممكن تيجي في باله وسيلة متطورة وحديثة للدعاية زي دي..

الفضل في الموضوع كله راجع لصديقنا المهندس ((محمود عز الدين)) اللي انضم كعضو جديد للفرقة.. وكان سبب أساسي في تحويل الفكرة لشكلها الحالي.

اندفعت تومئ برأسها وتتدخل باهتمامٍ:

- بس أنا اللي فهمته من كلامك عن المشروع إنه قائم في الأساس على مبدأ التفاعل المباشر بينكم وبين المريض.. ودا مبدأ مبتوفروش دعاية الإنترنت العامة.. فياريت توضحلنا النقطة دي وتكلمنا برضو عن ظروف انضمام المهندس محمود اللي حضرتك لسه ذاكر اسمه للفريق.

ابتسم لها بلال مستعيدًا مشهدًا قديمًا مرَّت عليه أكثر من سنة، ثم قال:

- محمود كان نزيل زي أي نزيل تاني في المستشفى جي يعمل عملية قلب مفتوح.. اتحجز لمدة قدمناله فيها عروضنا أنا وفتحي زي ما كنا بنقدمها لأي حد.. اللي حصل إنه أعجب بالفكرة وتحمس لها جدًّا.. خلال فترةٍ قصيرةٍ اتكونت بيننا علاقة صداقة اتطورت مع الوقت..

محمود بطبيعته شخصٌ مثقفٌ جدًّا ومطلع.. وهو الوحيد فينا اللي كان عنده خلفية شاركنا بيها عن الأمور الخاصة بالنشر والإعلان الإليكتروني اتطورت بسببها فكرتنا البسيطة من مجرد عروض بتتعمل في أوض المرضى.. لفيديوهات متصورة بتتقدم على الإنترنت بشكلٍ مختلفٍ..

باختصار تقدري تقولي إن محمود في البداية كان هو الممول الوحيد والأساسي لمشروع (الباحثين عن السعادة)..

طبعاً فكرة فيديوهات (الباحثين عن السعادة) غير فكرة (العلاج بالضحك).. لأننا في الأولى تغاضينا عن مبدأ الخصوصية اللي في مشروع العلاج بالضحك وقررنا من خلالها البحث بشكلٍ أكثر شمولية عن الأسباب العامة المؤدية للسعادة..

ودا كان سبب اختيارنا للغة الفصحى اللي بنقدم بيها الحلقات واللي قصدنا منها الوصول لنطاق أكبر من الناس على امتداد العالم العربي كله..

من هنا كانت البداية..

بداية البحث عن أسباب سعادة شاملة وحقيقية..

ولكل الناس.

****

-8-

السَّبَبُ الثَّامِنُ لِلسَّعَادَةِ

شمسٌ لأجلك أشرقتْ..

****

وهكذا مرَّت سنواتٌ.. تغيرت فيها الأشكال وتبدلت الكثير من المعالم..

كأن الحارة تقلصت.. فصارت أكثر ضيقًا في عينيه.. أعمق أثرًا في روحه..

مدرسته القديمة المهجورة التي صارت مكبًّا لنفايات أهالي المنطقة.. ما زالت برغم ما تراكم من مخلفاتٍ فوق سورها المتهدم تُنير قبس ذكرى محببة إلى نفسه كلما مرَّ جوارها يُعانق كفه كالماضي كفًّا شبيهًا بكف سلوى..

شمس..

تلك التي أطلت.. يستقي بالضي منها ذكرى شاخ لفراقها قلبه.. ويستمد من دفئها لجوفه المقفر حياة..

لقد أعادت إليه البهجة.. وملأت فراغًا رهيبًا في ذاته..

مشى معها.. ببعض شعيرات الشيب في رأسه وجسد لا يزال نحيلاً رغم انحناء أصابه قبل الأوان وهو الذي لم يتمم سنوات عمره الأربعين..

أفلتت يدها من كفه ثم سبقته ركضًا بفستانٍ زهري, وأكياسٍ تحملها نحو باب بنايتهم مشيرة إليه بعلامات صمت صار يفهمها أن إلحق بي..

جاوبها بضحكةٍ قصيرةٍ وهو يشير قائلاً:

- أسبقك إيه بس هو أنا فيا نفس؟!

قالها وهو يسير على مهلٍ نحوها مقتربًا قبل أن يفاجئها بقفزةٍ سريعةٍ مباغتةٍ اقترب بها منها محاولاً إمساكها فأطلقت من بين شفتيها ضحكة بريئة اندفعت بعدها مفلتة تصعد درجات السلم في سرعةٍ حاول أن يُجاريها..

بأنفاسٍ تتلاحق وفارق زمني متقارب وصلاً معًا إلى سطحهما..

توقفت أمام الباب تنتظره فألقى إليها بالمفتاح، وهو يقول:

- تعبتيني الله يسامحك.. مش قادر آخد نفسي..

هذا مكانهم القديم.. ككل الأشياء حوله تغيرت فيه بعض تفاصيل...

لقد أقام بألواح الخشب حول غرفته الصغيرة ما يشبه بهوًا أو صالة.. صنع له بابًا بدوره واختصها بالغرفة الصغيرة وحدها.. تكبر فيها أمامه يومًا بعد يومٍ..

الثاني عشر من أغسطس 2014م

اليوم أتمت عامها الخامس عشر..

تقف أمامه والمفتاح في يدها تداعب به خشب الباب الجديد.. اقترب نحوها صاعدًا ما تبقى له من درجاتٍ، وهو يسأل:

بتعملي إيه يا بلوى؟

جاوبه منها الصمت.. وانهماك في خدش الباب بالجزء الحاد من المفتاح، فراقبها بصمتٍ مماثلٍ..

في البداية لم تبد نقشاتها واضحةً.. ظل يتابعها في فضولٍ لم تلبث أن تراءت من بعده الحروف لعينيه شيئًا فشيء..

انتهت، فالتفتت إليه مبتسمةً، تبدو واضحةً من خلف رأسها الكلمات التي حفرتها..

" ولو في يوم زارك وجع.. اضحك عليه.. خليك جدع ".

قرأها مبتسمًا في حين نظرت بامتنانٍ هي إليه قبل أن تفتح الباب ليدلفا معًا إلى الداخل..

صوت موسيقى سيرك تتعالى اختارها لبعث البهجة في المكان.. وإضاءات متباينة الألوان صنعها لتدرك بها في أوقات وحدتها حضوره..

فضَّت ما في الأكياس أمامها فوق الطاولة البلاستيكية الصغيرة داخل المكان.. بينما خلع هو حذاءه مستندًا على الأريكة الوحيدة القابعة في ركنٍ منه قبل أن تتجه هي ببعض ما حملت نحو المطبخ وهو يقول مشيرًا إليها بعلاماتٍ تفهمها:

- سيبيلي أنا الفاكهة أغسلها والبيبسي أحطه يسقع.. وإنتي بقى معاكي عجينة الفطير أهي وكل اللي هتحتاجيه عشان توريني مستواكي اتطور السنادي في عمايل الحلويات وللا لأ.

رفعت إحدى حاجبيها وهزَّت كتفيها أن سترى وهي تبدأ في الإعداد مستخدمة أدواتها المتاحة.. مبتسمة لضحكته التي استطرد بها:

- يا سلام عالثقة؟ خلي بالك دا هيكون خامس عيد ميلاد تأكليني فيه محروق.

قالها وهو يهم من مكانه لتأدية دوره السهل الذي اختاره لنفسه قبل أن يعود إلى ما تبقى من حاجيات

فوق الطاولة الصغيرة ملتقطا من بينها بضع شمعات خرج ليشعلهم بقداحته ويوزعهم في أركان السطح المتسع بخلوه ثم وقف..

يراقب شمس السماء التي احمرت استعدادًا للمغيب أمامه..

الإضاءة الطبيعية تخفت تدريجيًّا مفسحة مجال الاتساع لهالات شموعه الصغيرة..

ما زالت هي في مطبخها الضيق منهمكة.. يطل عليها مطمئنًا بين الحين والآخر..

لقد احتواها نبيل.. لم تشعر في وجوده يومًا بالفقد..

منحها ما لم يمنحه على مرِّ السنين لأحد..

وكأنما اختزن المشاعر على مدى العمر الطويل لأجلها..

شاركها ذكرياته.. نقل لها الماضي بكل ما فيه..

واصفًا لحظات فرحه البكر.. وليالي تعاسة أمضاها وحيدًا منسي يطل على العالم من فوق سطحٍ خالٍ منعزل.

أرادها أفضل حظًّا منه.. فصحح فيها ما لم يكن صحيحًا فيه..

وقت في خواطره انقضى قبل أن تخرج أمامه من المطبخ بملامح خجلى.. تحمل بين يديها صينيةً واسعةً حوت كأسين فارغتين وكعكة ساخنة محترقة كالعادة فضحت أمر احتراقها رائحة الدخان الخفيف المتصاعد..

همَّ بإلقاء عبارة تهكم لائمة لولا أن ارتفعت الطرقات المزعجة في تلك اللحظة على الباب الخشبي الخارجي للمكان.. تصاحبه الموسيقى المبهجة ذاتها ونفس الأنوار التي أضاءت سقفه فرفعت هي رأسها تنظر ثم التفتت نحوه في تساؤلٍ أشار إليه وهو يمط شفتيه قائلاً:

- تلاقيهم بلال وفتحي دول.. تعالي نشوف.

هزَّت رأسها ثم وضعت ما في يدها فوق الطاولة الصغيرة وتبعته..

الصمت يُحيط بعالمها وعيناها معلقتان بالأنوار التي يدل تقطعها على استمرار الطرقات.. بينما هو يرفع صوته وسط ضجيج الموسيقى مناديًا صاحب الطرقات القوية:

- أيوه مين؟

أتاه من الخارج ذلك الصوت الأجش الذي ميز صاحبه فور سماعه وهو يقول:

- افتح يا نبيل.

التفت لها أن اطمئني ثم سارع بفتح الباب مستقبلاً وجه صاحب البناية الذي وقف أمامه بقامته القصيرة إلى جوار عسكري أمن ببذلة ميري بيضاء سند يدًا على الجدار ويده الأخرى تحمل أوراقًا بدا أنها محضرٍ ما عقد نبيل حاجبيه وهو يرمقها بنظرة شك ناقلاً بصره بينها وبين وجه القصير الذي هتف محادثًا رفيقه العسكري، وهو يشير نحو نبيل:

- هو دا نبيل اللي مأجر الاوضة.. بقاله خمس شهور مش عايز يدفع إيجار المكان اللي قاعد فيه.

شعرت شمس بالقلق وهي تتابع المشهد أمامها والانزعاج البادي على وجه خالها نبيل الذي استفهم:

- في إيه يا عم توفيق؟ إيه اللي بيحصل بالضبط؟

أشاح الرجل بوجهه متحاشيًا نظراته، بينما تدخل رجل الأمن موضحًا:

- الحاج توفيق مقدم فيك محضر بيشكي فيه امتناعك عن دفع إيجار الأوضه.. والقسم بعتلك أكتر من جواب استدعا إنت مردتش عليهم.. فا يا ريت حضرتك تجهز وتتفضل معانا دلوقتي.

اتسعت عينا نبيل في دهشة قائلاً:

- بس أنا موصلنيش من القسم أي حاجة وأول مرة أسمع عن موضوع المحضر دا.

قالها ثم التفت إلى الآخر يستنكر:

- معقولة يا عم توفيق؟ هيا وصلت للمحاضر؟

لم يجبه توفيق مرة أخرى ثم التفت مستمرًا في الشرح لعسكري الأمن وهو يشير إلى ما في يده من أوراق:

- زي مانت شايف أهو وأنا كاتب في المحضر اللي مرفق بيه رسومات المكان.. المفروض أنا مأجرله الأوضة الصغيرة دي من مساحة السطح وبيدفعلها 300 جنيه في الشهر بس.. يا ريت تثبت دلوقتي إنه مستغل مساحة أكبر في المكان ومقفلها ومش عايز يدفع إيجارها.

عاود نبيل عقد حاجبيه ملتفتًا نحو شمس التي اضطربت ملامحها مقتبسة منه التوتر.. فتمتم يُحاول تهدئتها:

- متخافيش يا شمس.. متخافيش مفيش حاجة.

قالها ثم عاد بنظره مرةً أخرى للرجلين يحادثهم قائلاً:

- يا باشا أنا المساحة الزايدة اللي مقفلها دي محدش مضرور بسببها.. كل الحكاية بس إن-...

قاطع صاحب البذلة الميري عبارته وهو يقول في ملل:

- أستاذ نبيل بعد إذنك أنا معنديش وقت أضيعه.. أنا جي بأمر ضبط وإحضار ومليش لا في كلامك ولا في كلام الأستاذ صاحب المحضر.. فالبس الجزمة حضرتك واتفضل معانا وهناك في القسم ابقى قول كل اللي عايز تقوله.

قالها مفقدًا نبيل الواقف أمامه كل حيلة وهو ينقل بصره بين الوجهين أمامه زافرًا في ضيق التفت به مرة أخيرة نحو الفتاة التي زادها القلق شحوبًا قبل أن يغمغم بصوتٍ خفيضٍ مشيرًا إليها بيديه:

- خليكي هنا إنتي.. متقلقيش عليا.. هروح مشوار.. شوية وراجع.

كان يعلم أن الأمر قد يطول..

فعلها الجشع القصير..

شهور محاولاته السابقة لإنهاء العقد كانت تنذر بذلك..

الرجل كمالك عقار يطمع في إضافة طابق آخر فوق طوابق المبنى.. ولا يقف أمام طمعه مانع سواهم..

بكل تأكيد استخدم بعض علاقاته وربما أبرز حفنة من النقود أيضًا لبعض الفسدة منهم في القسم لإنهاء

الأمر..

كان نبيل يفهم.. وكذلك كانت هي..

لهذا لم تصدقه..

تشبثت به متأبطة ذراعه، فأشار إليها:

- في إيه يا شمس؟.. قلتلك متقلقيش.. استنيني هنا عشان تفتحي حتى لعم بلال وفتحي اللي زمانهم جايين.. وأنا مش هتأخر.

بمواراة قلقه حدثها.. فزاد تشبثها به..

أشارت إليه بلن ترحل دوني..

تأملها لوهلة ثم وافق.. ولا يدري لأي الأسباب فعل..

ربما احتاجها معه.. وربما لم يجد في نفسه القدرة على منع الإصرار المطل من عينها..

وهكذا.. أطفئآ كل الشموع.. أغلقا المكان معًا.. ثم هبطا متجاورين يسبقهما العسكري وصاحب البناية إلى حيث انتظرتهم سيارة الأخير فاستقلوها..

يعاني الطريق أمامهم زحامًا غير معتادٍ.. أضاف لضيق أنفاسهم ضيقًا جديدًا..

"هو الشارع دا واقف كدا ليه؟.."

تمتم بها توفيق صاحب البناية القصير بعد برهة من القيادة وهو يتابع الطريق المتكدس أمامه، مشيرًا بيده إلى بائع روبابيكيا أتى في الاتجاه المقابل له يقود عربة خشبية يجرها حمار أوشك أن يرتطم به متابعًا:

- حاسب يا عم هتعدي منين إنت كمان؟

ندَّت من بين شفتي العسكري الجالس جنبه ضحكةً، ثم قال:

- الحمار يعدي من أي حتة.. متزعلوش يا حاج توفيق.

ظل توفيق متوترًا يراقب بحذرٍ مرور الرجل وحمارِه في سلامٍ محفوفٍ بالخطر قبل أن يمسح بمنديل قماشي عرقه وهو يسأل العسكري إلى جواره مرةً أخرى:

- لا صحيح هو الطريق دا ماله النهاردة؟

جاوبه الأخير مشعلاً سيجارة ذات رائحة نفاذة نفث دخانها عبر النافذة المفتوحة قائلاً:

- دول الألتراس عاملين قلق وهتافات وحاجات من دي.. شباب الثورة بقى يا سيدي.

زفر توفيق في ضيق متأففًا، وهو يُغمغم:

- مش هنخلص بقى من ليلة يناير دي؟ إحنا بقالنا سنين في العك ده.

استنشق المجاور نفسًا آخر من سيجارته أخرجه قبل أن يرد:

- عادي ما تشغلش بالك هتفك في دقايق.. في حملة زمانها طلعت من القسم تلم اللبش دا كله.

هزّ العجوز رأسه في صمتٍ رامقا بطرف عينه خلسة عبر مرآته الأمامية أولائك الجالسين على المقعد الخلفي وراءه لم يتبادلا طوال الطريق حديثًا غير الصمت ومسحات من كف نبيل على رأس صغيرته أن اطمئني..

سيكون كل شيء على ما يرام..

ظل طوال طريقهم على هذه الحال.. يُحاول بالتربيت على رأسها بث بعضٍ من الطمأنينة التي يفتقدها إلى نفسه..

في النهاية وصلوا إلى وجهتهم.. بوابة القسم أمامهم دلفوا عبرها متضاعفًا شعوره الداخلي بالقلق وهم يتجهون إلى حيث غرفة استقبال الشكاوى التي جلس في غير اكتراث على مكتبه الخشبي الصغير بداخلها ذلك الضخم كث الشارب مرتديًا بذلته الميري البيضاء يطالع أوراقًا وضعها الحاج توفيق أمامه..

كان يرفع عينيه بين الحين والآخر إلى وجه نبيل الذي وقف متبادلاً مع ابنة أخته شمس قلق الترقب والانتظار..

يسحب نفسًا أخيرًا من سيجارته محلية الصنع نفاذة الرائحة قبل أن يدهسها بحذائه فوق أرضية المكان..

"عليك مبلغ مستحق الدفع يا أستاذ نبيل..".

تمتم بها في بطءٍ مُحدثًا نبيل الذي اندفع يُجيبه على الفور:

- أيوه يا أفندم عارف.. عليا شهرين متأخرين.. وطلبت بس من الحاج توفيق يستحملني شوية لحد ما ربنا يفرجها وهدفعله كل اللي باقي.

مط الجالس شفتيه ناقلاً بصره في هدوء إلى صاحب المحضر الذي أشاح بوجهه مرةً أخرى عن نبيل مغمغمًا:

- يا باشا أنا لو هصبر على كل واحد لحد ما تتحسن ظروفه مش هأكل عيالي.. وأنا الصراحة صبرت كتير.

هم نبيل بقول شيء ما بتره دخول تلك المرأة مع طفلها ونهوض ضخم الجثة لاستقبالهما في ترحيبٍ ممزوجٍ بالدهشة، وهو يهتف:

- أهلاً أهلاً أهلاً .. إيه الزيارات المفاجأة دي؟ جناية بقى واللا جنحة يا فندم؟

ضحكت القادمة بدورها لمداعبته قائلةً، بينما الصغير ينقض عليه ويحتضنه:

- محمد يا سيدي أول ما قلتله إحنا قريبين كدا من شغل بابا مبطلش زن عايز يشوفك.. قلنا نعدي نسلم قبل ما نسبقك عالبيت.

بادلها الابتسام وهو يطبع على جبين الصغير قُبلة حانيةً لم تكن لائقةً في عين نبيل مع شاربه الضخم وملامحه الجافة القاسية..

سحب لها كرسيًا استقرت فوقه وهو يتابع حديثه في غير اكتراثٍ بالمحضر ولا أصحابه الواقفين أمامه:

- ها.. هتشربي ايه؟

أشارت بيدها أن لاشيء في حين تدخل الصغير يسبقها طالبًا في سرعةٍ:

- أنا عايز بيبس يا بابا.

ضحك مشيرًا لأحد زملائه بتنفيذ الأمر في حين تنحنح الحاج توفيق قائلاً:

- هو إحنا يا باشا خلصنا المحضر كدا واللا إيه اللي هيتم بالضبط؟

التفت نحوه يتطلع إليه سارحًا بعض اللحظات في حين انحنى زميل الضبط والاحضار له هامسًا في أذنه بتوصيةٍ ما في شأن الرجل رتَّب بها أفكاره قائلاً بعقلٍ منشغلٍ:

- لا خلاص كدا يا حاج اتوكل إنت على الله.

ثم التفت نحو نبيل مستطردًا:

- والأستاذ نبيل هيفضل في الحجز هنا معانا لحد ما ياسر باشا يرجع مع الحملة ونشوف موضوعه هيخلص على إيه.

انقبض قلب نبيل مع كفه فوق يد شمس بقلقٍ أدركته هي دون أن تفهم من حولها أي شيء..

بالإحساس انتقلت إليها مشاعره فنظرت نحوه بعينٍ خائفةٍ حاول عبثًا هذه المرة تهدئة الارتياع فيها، وهو يشير إليها بيديه قائلاً:

- خير يا شمس.. روحي البيت دلوقتي مع الحاج توفيق وأنا مش هتأخر عليكي بإذن الله.

سمع القصير اسمه فالتفت إليه مستفهمًا بينما هو يوضح:

- معلش.. خدها معاك هيا مش هتعرف تروح لوحدها.

تشبثت بذراعه أكثر وقد أدركت ما يعنيه بعينين التمعت فيهما الدموع للحظةٍ، بينما امتدت يد أحد العساكر الموجودين بعد إشارة من الجالس تجذبه إلى خارج المكان..

خوفٌ حقيقي سيطر عليها في تلك اللحظة وهو يشير إليها متمتمًا:

- امشي إنتي يا شمس.. متخافيش الموضوع بسيط وهيخلص.

لم تصدقه..

انهمرت الدموع من مقلتيها ببكاءٍ حار وسط تنهيداتها الحارقة التي لفتت انتباه الجميع وأشفقت لها المرأة الجالسة بالمكان فمالت ناحية الضخم الذي جلس ببذلته الميري أمامها هامسةً بصوتٍ خافتٍ:

- بيومي.. البنت شكلها يقطع القلب.. متخليهم يروحوا دلوقتي مع بعض لو ينفع وابقى ابعتله في أي وقت تاني.

هزَّ رأسه بصرامةٍ أن لا..

ودون تردد.

***

"شغل السارينة يا بيومي.. إيه العطلة اللي إحنا فيها دي؟"

انطلقت العبارة المتوترة تنتزعه من ذكرياته بصوت ياسر الجالس إلى جواره داخل سيارة الشرطة الزرقاء التي حملت في صندوقها الخلفي اثنين من العساكر جلسا مستندين على كعبيْ مدفعيهما يُطالعان صف السيارات الممتد خلفهما على طول الشارع المزدحم..

في سرعةٍ امتدت يده لتنفيذ الأمر فارتفع صوت بوق النجدة عاليًا وتبادلت على سطح السيارة ألوان ما بين الأزرق والأحمر انعكست فوق زجاج السيارات المحيطة وهو يرمق بنظرةٍ مختلسةٍ وجه ياسر المفعم بالقلقٍ يُطالع ساعةً في يده أشارت عقاربها إلى السادسة والنصف قارئًا ما يحوم في عقله من خواطر..

كان رئيسه خائفًا..

عربد القلق في نفسه وتزايد مع العصبية التي خلفها الزحام من حوله..

اسمٌ واحدٌ كان يُسيطر على كل تفكيره..

نبيل إبراهيم العوضي..

"كلكس للبهايم اللي قدامك دول خلينا نعدي"

صاح بها مرةً أخرى وهو يضغط بيديه على آلة التنبيه المثبتة فوق مقود السيارة أمام بيومي بإصرارٍ مستمر..

السيارات المتوقفة من حوله تشاركه الصخب.. يجاوره بيومي الذي طالع الطريق الممتد بزحامه قبل أن يقول:

- لو فضلنا نتحرك بالعربية كدا مش هنلحق.. الظاهر إن فيه مشكلة موقفة الطريق من عند السينما.

تحركت السيارات أمامه لأمتارٍ قليلةٍ التهمتها بدورها عجلاته قبل أن تتوقف مرةً أخرى متعطشةً لمزيد..

ضرب ياسر براحته في عنفٍ ذلك السطح البلاستيكي في السيارة أمامه وهو يصرخ عبر مكبر الصوت المعلق على قائمها الجانبي:

- وسع الطريق يا ابني إنت وهو.. وسع الطريق.

انزاحت أمامه السيارات بشيءٍ من صعوبة.. مفسحةً لسيارتهم مجالاً بالكاد تمكنوا من المضي خلاله شيئًا فشيء..

العقارب تلتهم الوقت على يده.. يسبقها في التهامه قلبه الذي تسارعت دقاته قلقًا وترقبًا..

لقد فشل بجدارةٍ هذه المرة في الحفاظ على طبيعته الباردة..

كل ما فيه يرتعد..

سقط عنه قناع البرود المزيف في أول تجربةٍ له مع الخوف..

"الخوف دايمًا بيخليك تتصرف غلط"

عاجله بالكلمة في تباطؤ بيومي الذي بدى على قسماته الشرود فالتفت نحوه بحدةٍ في نفس اللحظة التي ضغط فيها الأخير على مكبح السيارة متوقفًا أمام شادية التي اندفعت بجسدها نحوهم تضرب بكفيها الزجاج الأمامي في لوعةٍ صارخة:

- إلحقنا يا باشا.. أختي بيتحرشوا بيها في نص الشارع.

تراجع ياسر أمام اندفاعها المفاجئ، بينما لاحت ابتسامةٌ غير ملحوظةٍ على طرف شفتيْ بيومي ابتلعها في سرعةٍ قبل أن يصيح مصطنعًا تعنيفها:

- ابعدي يا بت انتي من هنا.

لم تلق بالاً لصياحه وهي على وضعها تُعيق مسارهم مستمرةً في ضرب الزجاج الأمامي بكفيها أمام ياسر الذي ارتبكت جوارحه للحظاتٍ أمام تصرفاتها..

((مفيش وقت يا باشا.. العربية كدا هتعطلنا وإحنا لازم نتحرك..))

قالها بذات النبرة العصبية بيومي ثم دفع الباب إلى جواره هابطًا من السيارة قبل أن يرفع يده عاليًا بمسدس فيها أطلق منه في الهواء طلقاتٍ متتالية تردد صداها عاليًا وهو يصرخ بصوتٍ هادرٍ أجش في تلك الجلبة المتلاحمة من الأجساد أمامه:

- طريق يا ولاد الكلب.

اندفعت الحشود راكضةً أمام صرخاته في كل اتجاه ومن بينهم بعض قائدي السيارات الذين ترجلوا من سياراتهم مبتعدين عن نطاق الرصاصات.. بينما تمددت بعرض الطريق أمامهم فوق الأرض تلك التي استندت برأسها وعباءة ممزقة على حِجر سماح المولولة تجاورها فتياتٌ أخرياتٌ وبعض سيدات تعاطفن، في حين امتدت يد شادية عبر نافذة السيارة جاذبةً ياقة قميص ياسر القابع في الداخل وهي تواصل صيحاتها المستنجدة..

الوقت يمضي في عجل, والظروف من حوله تعطله..

والتوتر يجتاحه ولا يترك لحسن التصرف مجالات ..

دفع يدها المتشبثة بياقته بفرط ما فيه من عصبيةٍ ثم هبط من السيارة بدوره مشيرًا إلى مساعديه بالخلف الذين تبعوه رافعين أسلحتهم يطلقون منها الأعيرة النارية في سماء المكان بكل عنفٍ..

ودون تفكيرٍ..

****

الخوف بيهز الصفوف.. بيشتتها.

خوف الضعيف دايمًا بيخليه يتصرف غلط.. بيخليه يتهور.. وساعتها بيديلك على طبق من دهب الفرصة لأنك تنسفه..

****

حدسٌ ما، ما زال يؤرقها..

يُنذرها الهدوء المحيط بكارثةٍ..

يُخامرها شعورُ القلق وهي تقف مستندةً بكفها على السطح الرخامي العريض في ركن مطبخها تتابع

بعينٍ شاردةٍ أبخرة تصاعدت من فوهة غلاية الماء المتصلة بالقابس الكهربائي أمامها..

ينتزعها صوتُ صفير الماء المغلي داخلها من بعض الشرود فتضغط زر الإغلاق ثم تصب ما فيها في كوب الشاي الذي أعدته استعدادًا لتقليبه وهي تفكر..

لماذا اضطرب إحساسها إلى تلك الدرجة؟

رغم كل منطقي في حديث فتحي معها..

رغم كل ما رأته وينفي الترتيب لأمر ما.. ما زالت تشعر بالقلق..

حملت كوب الشاي في يدها وخرجت به إلى حيث كرسيها الهزاز المفضل في شرفة المنزل المطلة على مساحة واسعة من النيل..

أكم من عين ملتمعة بانعكاس الأضواء تراقصت فوق سطحه الممتد تراقبها؟..

الصورة وانعكاسها فوقه.. لوحة ليلية تناشدها بالاسترخاء..

السيارات العابرة وسائقوها.. كل نوافذ الأبراج المضاءة من حولها لماذا لا يستشعر قاطنوها خوفًا كهذا الذي تشعر به؟

"توكتورا هانا"

انتزعتها ثانية مقاطعةُ جليسة طفلتيها الآسيوية التي دلفت لتوها من خواطرها، فاستدارت نحوها بعد رشفةٍ من كوب الشاي قائلة:

- نعم يا لي.. البنات ناموا؟

هزَّت صاحبة الجسد الصغير والعينين الضيقتين رأسها أن لا وهي تقول بعربيةٍ يُرثى لها:

- بنات صغيرين مش ينامو إلا إنتي تشوفي.

عضت هناء شفتها السفلى مغمغمةً:

- وبعدين بقى في دلعهم اللي مش وقته دا؟

ثم استطردت بعد برهة تفكير وهي تنهض متجهة إليهما:

- طيب خلاص يا لي روحي إنتي أوضتك نامي.. أنا هدخل اشوفهم.

أومأت المرأة برأسها علامة الإيجاب، ثم انصرفت في حين عبرت هي الصالة معتمة الإضاءة بكوب الشاي في يدها متجهة ناحية غرفة الأطفال قبل أن تستوقفها صورة بلال المتحركة على شاشة التلفاز الكبير مكتوم الصوت في منتصف المكان.. فأشارت بيدها إلى تلك التي لم تنصرف تمامًا قائلة:

- لي.. لحظة بعد إذنك.. ممكن تعلِّي صوت التلفزيون شوية؟

نفذت الأخيرة أمرها وانتظرت الآخر.. في حين انعقد حاجبا الدكتورة هناء وهي تستمع في تركيز إلى جزءٍ من حديث بلال الذي بات منهمكًا في الرد على سؤال لمضيفته:

"القوة برضو سبب أساسي من أسباب السعادة يا لبنى.. طبيعي جدًّا.. زيها زي الحب أوالنجاح أو غيرها من مسببات الفرح المختلفة.. إنك تملكيها دا إحساس مبهج في حد ذاته.. إنك تكوني واثقة في قدرتك

على تحقيق أهداف صغيرة متعلقة بهدف أساسي كبير دا شيء بيرفع من روحك المعنوية والنفسية لحد كبير..

القوة منحة إلهية كلنا اتميزنا بيها.. بس للأسف مش كلنا بنعرف نستغلها صح.."

زاد انعقاد حاجبيها مرهفةً السمع بكل تركيزها إلى ما تبقى من جملته..

تمتزج حروفه مع القلق المستعر بداخلها وتؤججه..

شيء ما في حديثه يُريب..

ما الأمر؟ ما الذي يقصده بالضبط؟

وما الذي يحدث؟

أشارت إلى حيث خادمتها أن التقطي كوب الشاي بما تبقى فيه.. ثم دارت على عقبيها متجهةً بخطواتٍ واسعةٍ نحو غرفتها الخاصة متناسيةً تماماً أمر طفلتيها..

دلفت إلى الداخل.. فتحت دولابها الخاص مفرغةً من رفوفه بعض الحاجيات ملتقطةً صندوقًا خشبيًّا صغيرًا معلقًا به مفتاح معدني دسته في فتحةٍ مناسبةٍ على جنبه وأدارته، فانفتح..

مدَّت يدها داخله تقلب بين الأوراق الصغيرة والبطاقات حتى التقطت مبتغاها..

ورقة صغيرة مطوية فتحتها وتركت عينها تلتهم ما عليها من سطور بجوار صورةٍ باهتةٍ..

تقرأ البيانات المكتوبة في نهمٍ وتركيزٍ حتى توقفت عند جزئية العنوان..

إنه نفسه..

ذات العنوان الذي التقت عنده فتحي منذ ساعات..

كيف فاتها الأمر ولم تنتبه؟..

اضيقت حدقتاها وانعقد الحاجبان حدَّ التلاقي وهي تهمس محادثةً نفسها بصوتٍ مبحوحٍ مستنكرٍ:

- أنا إزاي غبية أوي كدا؟

لقد كان حدسها في محله..

كان مصدر الخوف داخلها أصيل..

ظلت على وضعها لثوانٍ تُمسك بالورقة المهترئة بين يديها المتحفزتين وعقلها تجتاحه عواصف تدور بأفكارها كمراكب ورقيةً وسط دواماتٍ لا نهاية لها..

تنهال فوق رأسها ذكريات المشهد القديم..

سيارة الشرطة الزرقاء ترتج متحركةً في طريقها إلى القسم وهي داخلها..

يعتمر رأسَها تخوف مُبهم من هذا التكليف المفاجئ الذي أرسلوه لها.. وإلى جنبها كان فتحي يرمقها متمتمًا:

- قلقانة ليه يا دكتورة؟.. عادي دا مجرد استدعا طبيعي.. هنوصل نعمل التقارير المطلوبة بس وهنروح.

سألته حينها محاولة إخفاء توترها:

- مش قلقانة يا عم فتحي.. بس دي أول مرة يطلبوني في حاجة زي كدا.

هز رأسه وهو يتابع الطريق ويغمغم:

- دا إجراء طبيعي يا دكتورة.. ياما بيجيلنا في المستشفى استدعاءات زي دي في حوادث منها اللي قتل واللي انتحار واللي حالات تسمم.. أي حادثة بيبقى فيها شبهة جنائية يعني البوليس بس بيبقى محتاج مختص-..

بتر عبارته بغتةً وهو يلمح ذلك المنحني إلى جوار فتاةٍ منهارةٍ على الرصيف المقابل بدت له مألوفةً والسيارة تعبر بهم من البوابة الحديدية الكبيرة للقسم ثم التفت محدثًا السائق في زي العسكري إلى جواره بعصبيةٍ:

- نزلني هنا لو سمحت.

أربكها توتره فمدَّت يدها تمسك به قائلةً:

- رايح فين؟ خليك معايا يا عم فتحي؟

في حين أبطأ السائقُ من حركة السيارة أمام حشد العساكر المنتشرين داخل المكان قبل أن يتوقف بها تمامًا وهو يغمغم:

- إحنا وصلنا خلاص كدا كدا يا أستاذ.. اصبر لما أركن العربية.

مشيرًا لها فتحي بالتروي وهو يهبط معها إلى الخارج بعد استقرار السيارة:

- معلش يا دكتورة.. هروح بس أطمن على حاجة كدا وراجعلك فورًا.

تابعته بنظراتها الخائفة وهو يبتعد متجهًا إلى حيث أراد.. ثم التفتت بدروها تطالع ما يُحيط..

أثار العنف تبدو واضحةً رغم الهدوء الذي ساد..

رائحة الغاز الحارق ما زال أثر منها يفوح..

ما الذي حدث هنا؟

لم يمنحها الوجه الوسيم الذي اقترب منها مادًّا يده يُصافحها فرصة استبيان الأمور وهو يُعاجلها معرفًا نفسه بشيء من زهوٍ:

- النقيب ياسر رشيد.

لازالت تذكر ابتسامة غروره التي ردتها بإبتسامةً مرتبكةً وهي ترمق من خلفه سبعة أجساد ألقيت في إهمال على الأرض تغطيها أوراق الجرائد فأشار بيده دون اكتراثٍ نحوها وهو يقول:

- هو دا الشغل اللي طلبناكي عشانه.. محتاجة حد يساعدك في كتابة التقارير؟

مومئةً برأسها أن نعم تمتمت وهي تلتفت باحثةً عن فتحي:

- أيوه يا فندم أنا معايا التمرجي اللي هيساعدني في الكشف على الجثث.. مش عارفة بس هو راح فين.

انطلقت من بين شفتي ياسر ضحكةٌ تهكميةٌ قصيرةٌ لم تفهم سببها وهو يلتفت محدثًا ذلك الواقف خلفه

يبدو الشرود الحزين جليًا فوق ملامحه:

- إلحق يا بيومي شوف الدكتورة بتقول إيه؟

ثم تغيرت نبرته إلى الجدية وهو يعود لمواجهتها:

- هتكشفي على إيه يا دكتورة؟ إحنا خلاص كشفنا.. ووقولنالكوا قبل ما تيجوا تجهزوا التقارير.. بس معلش.. هعيد الكلام تاني.. السبعة اللي ماتوا دول ماتوا وهما بيحاولوا في وسط الاقتحام ينطوا من على سور القسم اللي وراكي ده.. محاولة هروب يعني.. بس كدا.. دا اللي إحنا عايزينه يتكتب.. لا أكتر ولا أقل.

ارتبكت الكلمات على شفتيها أمام نظرته الجادة، وهي تقول:

- أيوا يا فندم بس أنا عشان أكتب التقارير لازم أشوف بنفسي الجثث وأحدد سبـ..

قاطعها في صرامةٍ، وهو يقول:

- يا دكتورة أنا معنديش وقت للكلام دا.. زي مانتي شايفة المكان مقلوب والحدوتة دي عايزينها تخلص من غير ما حد يتضر.. واللا إنتي رأيك إيه؟

التقطت التهديد الواضح في عبارته فصمتت للحظةٍ حاولت فيها التماسك قبل أن تقول ببعض التردد:

- حضرتك أنا مش هينفع أوقع على حاجة من غير ما أكشف بنفسي.. أمانتي الطبية بتقول كدا.

في برودٍ تام أمام إجابتها وقف غير مبالٍ وهو يُغمغم:

- للأسف برضو حضرتك أنا معنديش وقت لأمانتك الطبية دي.. نصيبك إنك الدكتورة المناوبة الوحيدة اللي كانت في المستشفى لما اتصلنا نطلب التقارير.. فا يا ريت متضيعيش وقتك ولا وقتي عشان مفيش جثث أصلاً هيتكشف عليها.. فهمتيني يا دكتورة؟

بعينين متسعتين من الذهول أمامه وقفت..

ما هذا الشَّرك الذي أوقعتها فيه الظروف؟

التقارير في يدها فارغة.. يطلب منها هذا الأخير بجرأةٍ تزييف البيانات عليها..

واثقٌ من نفسه حدَّ الجنون.. يستدير من أمامها مبتعدًا وهو يشير لبيومي الواقف خلفه غير آبهٍ بملامحه التعيسة آمرًا:

- خليك مع الدكتورة يا بيومي.. إديها أسامي السبعة دول وعايز التقارير على مكتبي جاهزة خلال ربع ساعة.

لم يُجبه الرجل بغير هزة رأس خانعة.. رفع عينيْه الجامدتين بعدها إليها مغمغمًا بصوتٍ مختنقٍ:

- التقارير معاكي يا دكتورة؟

لم يبد عليه في نطق العبارة أي شيء سوى الخزي الذي وصم به نفسه ولم تفهم هي أسبابه..

لا يُدرك من حوله غير نظرةٍ من عين ابنه رمقه بها منذ لحظاتٍ قبل أن يرحل مع أمه..

كل ما دون ذلك شرود .. وضبابية وعدم ..

فقط هزت هي رأسها اعترافا بقلة الحيلة أمامه وهي ترفع يدها بالتقارير الخالية..

اندفع نحوها في تلك اللحظة فتحي عائدًا بوجهٍ باكٍ وعينيْن احمرتا من فرط الوجع هاتفًا:

- دكتورة هناء.. الناس دي اتقتلت يا دكتورة.. السبعة دول مكانوش بيحاولوا يهربوا زي ما بلغونا.

بكل القهر في عينيها رمقته بنظرةٍ نقلت له الصورة بينما شرع بعض العساكر في حمل الأجساد السبعة مبتعدين.

ما زالت تذكر الغضب الهادر الذي لاح في عينيه..

ما زالت تذكر ملامح بيومي المتأثرة أمامهما ويده المرتعشة تمتد لالتقاط الأوراق من بين يديها..

استعادت المشهد وكل ما حدث وهي تُطالع الورقة في يدها والصورة الباهتة لوجه نبيل..

لحظات بين تحفزٍ وتراجع اتخذ التوتر عنها فيها القرار فألقت كل ما معها ملتقطةً سلسلة مفاتيحها وحقيبتها منطلقةً نحو باب الشقة أمام عينيْ المرأة الآسيوية التي راقبتها في غير فهمٍ وهي تفتح الباب خارجة منه هاتفةً لها بعصبيةٍ:

- أنا آسفة يا لي.. متناميش دلوقتي وخليكي مع البنات.. ورايا مشوار لازم أعمله.

قالتها ثم أغلقت الباب خلفها في قوةٍ..

وبمنتهى العنف..

****

"خبر عاجل جالنا دلوقتي بخصوص أعمال اشتباك بين الداخلية وبعض عناصر شغب في منطقة القصر العيني.. مفيش أي أخبار عن إصابات لحد دلوقتي.. ولا عندنا معلومات مؤكدة عن اللي بيحصل هناك.. ربنا يستر ونتمنى الأمور تعدي على خير.."

قرأت المذيعة (لبنى حرب) الخبر المكتوب على الشاشة الظاهرة أمامها وهي تجلس فوق مقعدها داخل الأستديو خلال لقائها مع بلال الذي استشعر في نفس اللحظة ذلك الاهتزاز المكتومِ الصادر من الهاتف المحمول المستقر في جيبه فتحسسه بحركةٍ تلقائيةٍ قبل أن تلتفت نحوه مستطردةً تكمل الحوار الذي شارف نهايته:

- كنا بنتكلم أنا وحضرتك عن أسباب السعادة ودوافعها اللي ممكن تساعدنا كبني آدميين في الاستمرار والإضافة للمجتمع بشكل أفضل.. واسمحلي هنا أسألك عن حاجة في إطار حوارنا أعتقد إنها مش هتبعد بينا كتير عن الفكرة الأساسية..

في اعتقادك أحداث شغب زي اللي وردت لينا دلوقتي أخبار عنها شايفها ممكن تأثر على النفسية المجتمعية إزاي؟ وهل تأثيرها ممكن يكون سلبي واللا إيجابي؟

بنفس عميق ملأ به صدره وهو يتراجع في المقعد الوثير أمامها تنهد ملتمعة عيناه ببريق نشوة ما قبل أن يجيب:

- في الحقيقة عدم الاستقرار هو عامل أساسي من عوامل البعد عن تحقيق السعادة.. بس هنا إحنا لازم

نوضح أننا نقصد الاستقرار بمعناه الأشمل.

نظرت إليه في غير فهمٍ، فأكمل مبينًا قصده:

- الاستقرار الحقيقي الوحيد اللازم لتحقيق السعادة يا أستاذة لبنى هو الاستقرار كامل الجوانب.. يعني الاستقرار العاطفي والمعنوي والنفسي والاجتماعي والمادي كلهم مع بعض لازم يجتمعوا عشان نقدر من خلالهم نخلق سعادة حقيقية..

وخلينا ناخد الاستقرار الوظيفي في حوارنا كمثال.. الموضوع مش مرتبط بدخل ثابت وكافي للمعيشة وبس.. الموضوع ممتد وشامل مدى الرضا النفسي عن الوظيفة دي.. ومساحة الطموح اللي نقدر من خلالها نحققه..

قصة الاستقرار لو تغافلنا جزئياتها المختلفة واختصرناها في جزئية واحدة يبقى مش بعيد نيجي في يوم نتجرأ وندعي مثلًا إن كل سجين تأبيدة مستقر في زنزانته هو شخص سعيد ومتصالح نفسيًّا مع وضعه ومع حياته..

ضحكت أمامه للتشبيه وهي تتابع:

- مستمتعة جدًّا أستاذ بلال بحواري الجميل معاك واللي كنت أتمنى لو يستمر لأكتر من كدا فعليًّا.. ولكن للأسف إحنا مرتبطين هنا بإطار زمني محدود مش باقيلنا منه غير تلت ساعة أخيرة.. فا اسمحلي على طول وبدون تضييع للوقت أنتقل لسؤالي الأهم في الحلقة.. واللي أصريت أخليه الأخير لأن ناس كتير من اللي بيتفرجوا علينا دلوقتي متشوقين يسمعوا ردك عليه.

كان يدرك جيدًا ما ترمي إليه بحديثها.. يتوقعه وينتظره.. لذا فقد اعتدل بعض الشيء في جلسته أمامها، وهي تستطرد مستكملة حديثها:

- بخصوص الفيديو الأخير اللي نشرته حضرتك على اليوتيوب.. واللي جذب عدد كبير جدًّا من المتابعين.. إيه اللي كنت قاصده بفكرة الاحتراق؟.. هل الموضوع وراه بعد فلسفي زي ما بعض الناس فهمت.. واللا نقدر نقول إن الحكاية كلها مجرد نوع من أنواع البروباجاندا؟.. طريقة للفت الانتباه يعني بحثاً عن الشهرة مش أكتر؟

هز بلال رأسه مجيبًا في بطءٍ حاول به كسب المزيد من الوقت:

- أعتقد إن الرد على سؤالك دا هيكون أوضح من خلال الفيديو نفسه يا أستاذة لبنى.

ابتسمت، ثم هزت كتفيها وهي تقول:

- شيء جميل جدًّا أن تكون عند حضرتك رغبة لإثارة فضول جمهورك حتى اللحظات الأخيرة.. معرفش دا نوع من المماطلة والتهرب واللا إيه.. ولكن ألا تعتقد معي أن انتظارهم لمدة أسبوع هو فترة كافية جدًّا يستحقوا منك بعدها التوضيح؟

أومأ برأسه أن نعم، قائلاً في ثقةٍ:

- أنا مبماطلش.. ومش بتهرب.. كل اللي أنا طالبه ربع ساعة بتفصل بيننا وبين عرض الفيديو اللي هيرد بنفسه على كل الأسئلة.. وأعتقد إن دا مش كتير.

بدا على ملامحها التشكك وهي تعقد حاجبيها مستفهمةً:

- لأ أبداً مش كتير.. بس إزاي حضرتك الفيديو هيتعرض في معاده كمان تلت ساعة زي ما بتقول وإنت لسه معانا هنا في الأستوديو؟.. المفترض إن الفيديو زي ما قلت هيتعرض عن طريق البث المباشر.. يعني مينفعش تكون مسجله مثلاً .. صح كلامي واللا أنا غلطانة؟

بثقة أكبر وابتسامة لم تر لها شبيهًا تساءل:

- وإيه العارض يا فندم بين وجودي معاكي هنا وإن الفيديو يتعرض؟

نظرت إليه لا تفهم ما يعنيه.. تحاول سبر أغوار نظرته الواثقة بعينٍ خالطها الفضول متمتمةً:

- العارض واضح يا أستاذ بلال.. منين هتلحق تصور الفيديو وإنت هنا في الأستوديو؟

أجابها مفصحًا عن مفاجأته للجميع في برودٍ:

- ومين قال إن أنا اللي هصور الفيديو؟

اتسعت عيناها مع الجميع داخل المكان وأمام الشاشات في دهشةٍ، بينما تابع هو:

- في أثناء حواري الممتع معاكي حاليًا صاحب الفيديو الحقيقي في مكانه قدام جهاز الكمبيوتر وبيستعد لتقديم العرض اللي يسعدني ويشرفني أن يقبل برنامجكم استغلال أحقية نقله الحصري والمباشر اللي بعرضها على قناتكم دلوقتي من هنا.

قالها ثم اعتدل مواجهًا عدسة الكاميرا أمامه وهو يستطرد متجاهلاً كل ما حوله:

- أعزائي المشاهدين الباحثين مثلي عن السعادة.. أهلاً بكم ..

دقائق تفصلنا عن العرض العاشر والأخير.. فكونوا مستعدين.

بدا وكأن المكان كله بعد كلماته ارتبك..

لقد وضعهم بمنتهى الجرأة وبشكل مفاجئ بين مطرقة الأمر الواقع.. وسندان الشفافية التي يدَّعونها..

وتركهم بعرضه المقدم مباشرةً أمام الجميع في حيرةٍ ما بين القبول السريع.. أو الرفض..

في بضعة دقائق..

****

-9-

السَّبَبُ التَّاسِعُ لِلسَّعَادَةِ

.....

ليس لأني لا أملكه.. ولكن لأني اكتشفت أنه وبرغم كل الأسباب الماضية.. ما زال هنالك شيء مفقود..

****

السابعة إلا الثلث.. بتوقيت القاهرة..

بيلي..

نبيل إبراهيم العوضي..

محملة بذكريات حزنه والفرح على الرصيف المقابل تمامًا لبوابة القسم الحديدية وقفت شمس تنتظر..

هي التي شعرت حينها بالخوف الشديد..

للصمت أصوات من حولها تُخيف.. نبراتها المشاهد والصور..

صرخات مكتومة أمام عينيها تتعالى.. لا تسمعها لكنها تشعر بأصدائها..

وجوه غاضبة.. وسخط هادر في قلوب شباب ثائرين يصدهم صف عساكر بزي أسود ومدافع رشاشة من خلف دروع معدنية حملوها..

يرتعد جسدها كله ارتعاد العاري وسط مساحةٍ ممتدةٍ من الثلج بلا كساء..

لقد فقدت غطاءها المتمثل فيه.. هذا الذي انتزعوه من بين يديها المتشبثتين جرًّا نحو غرفة الاحتجاز..

يتقافز قلبها في جوفٍ خالٍ كان هو كل ما يُحيط به ويحميه..

نصف كيانٍ لن تبرح هذا المكان إلا بصحبته..

رغم إشارات عم توفيق الواقف إلى جنبها يدعوها للرحيل ونظرات القلق البادية على عينيه مما يُحيط..

ها هم أولاء شباب الأولتراس الغاضبون محتشدين أمام أسوار القسم يصيحون اعتراضًا على احتجاز البعض منهم داخله..

الفوران البادي في أعينهم والتربص الواضح في وقفة رجال الأمن أمامهم ينذر بخطرٍ قريبٍ يستشعره هو..

يشد ذراعها عنوةً بأمله المفقود في انصياعها فتصرخ مقررة لن أرحل..

كسمكة على حافة شاطئ تصارع للبقاء بما تلقيه لها أمواجه من رذاذ.. شاطئها كان هناك.. لديه وحده..

هو بحر الأمان المحتجز بالقرب منها لا يفصلها عنه غير جدارٍ عالٍ من الحجر انهالت عليه بأنين نظراتها عله يشفق..

الرجل العجوز بدافع مسئوليته عنها ما زال يُحاول.. بينما هي بدافع الرغبة ما زالت ترفض.

مهما احتشدتم أكثر.. مهما تزايدت الأعداد.. ومهما تكاثف الدخان الأبيض متسللًا عبر رئتيها بفحيحٍ حارقٍ يستل من مقلتيها دموعًا فوق الدموع ستنتظره..

كانت شمسًا ينقصها شروقه.. أميرة تترقب فارسها النبيل الذي ظهر أمامها أخيرًا من خلف الصف الأمني الأسود مكبلًا مع غيره بسلاسل حديدية أعاقت حركته.. لكنها أبدًا لم تعق قلبه ولا روحه التي انتفضت برؤيتها تركض من بين حشد المتناحرين متجهة نحوه..

صاح بكل ما حواه القلب لها من حب..

بزفراتٍ أخيرةٍ لزينب.. واختلاجاتٍ في روح سلوى طالما حاولت مواراتها عنه:

- ابعدي يا شمس.

صاح بها في نفس آن انطلاق رصاصةٍ غادرةٍ من بندقية ضغط زنادها قناص انشغل رغم الضحية التي سقطت بذلك الدخان الساخن المتصاعد عبر فوهتها..

رصاصة تلاها وقوفٌ للزمن..

للأمل..

ولكل شيء..

ما زال يذكر مشهدًا للموت في عينيها رآه لحظة وصوله بعد انتهاء الأمر..

تلك التي استقبل يوم حضورها من خمسة عشر عامًا بنفسه..

تلك التي اختلق منها لنفسه فرصةً جديدةً للنجاة من بحر شعوره بالفشل والخذلان..

بأي صبرٍ تحامل على أوجاع قلبه المحترق وهو يقرأ بنفسه اسمها المدون فوق تقرير وفاة كتبته هناء أمامه ما زال يحفظ كل حرفٍ منه..

حيث تبلغ لنا نحن طبيب - طبيبة / هناء سليمان الطيب

أثناء تواجدنا بمقر عملنا بمستشفى القصر العيني محافظة القاهرة اليوم 12 / 8 / 2014 في تمام الساعة (الثامنة مساءً) من (مركز/ نقطة)شرطة القصر العيني بوجود حالة وفاة (بمحيط القسم)

وعليه وبالتوجه وتوقيع الكشف الطبى الأولي تبين أن الجثة لأنثى في العقد (الثاني) من العمر..

ترتدي فستان زهري اللون ويوجد جرح قطعي بيسار الجبهة طوله حوالي 2 سم وسحجات فوق الذراع

ويرجح أن سبب الوفاة هو السقوط من مرتفع السور المحيط بالمكان..

ولا يوجد شبهة جنائية ظاهرة والجثة تحت تصرف النيابة..

تحريرًا في: (الثاني عشر من أغسطس 2014 ميلاديًّا)..

التوقيع

توقفت الخواطر في رأس فتحي عند هذا الحد فاستفاق على الشموع المتراصة أمامه بامتداد السور يتأملها ويتأمل البنايات الساكنة من حوله تترقب معه هطول المساء..

لحظات الغروب الأولى.. زرقة السماء تختلط مع اللون القرمزي المتباكي لوداع الشمس..

صوت أذان المغرب يرتفع..

أسراب الحمام تحط عائدةً لمساكنها مع مواء هرة ولود في ركن الحارة تدعو صغارها لستر دافئ بين خبايا الطريق..

رائحة الكربون تتسلل عبر أنفه نفاذةً.. يلتفت على إثرها مطالعًا وجه محمود الطالع إليه بحفنةٍ أخرى

من الشموع شرع في رصها على ما تبقى من حافة السطح واحدة تلو أخرى وهو يدندن بنغمات أغنيته التسعينية المفضلة..

سأله بصوتٍ خافتٍ:

- الفطيرة اتحرقت وللا إيه؟

جاوبه محمود وهو منهمك في إشعال الشموع:

- إنت لسه فاكر؟ دي ولعت.. أنا طافي عليها النار من عشر دقايق.. شكلك نسيتها.

لوى شفتيه في لا مبالاة، قائلاً:

- يجوز سرحت شوية مع نفسي.. بس عمومًا أنا كنت عايزها تتحرق زي ما كانت دايمًا بتعملها.

هزَّ رفيقه كتفيه وهو يقول:

- مع إني مش فاهم الهدف من تكرار نفس التفاصيل.. بس أديها اتحرقت.

صمت بعد عبارته لحظة ينتظر ردًّا لم يجئه فتبدلت نبرته وهو يتابع مهتمًّا:

- لسه محدش وصل؟

تمتم فتحي وهو يطالع الحارة من مكانه في هدوءٍ:

- هانت.. بيومي رنلي من شوية ودا معناه إنهم على وصول.

قالها بعينٍ شاردةٍ أطل بها على الأفق دون أن يضيف.. فاقترب محمود واقفًا إلى جواره يسأله:

- قلقان يا فتحي؟

هزَّ رأسه نافيًا:

- معنديش حاجة أقلق عشانها يا محمود.

أطلق محمود تنهيدةً طويلةً حارةً من بين شفتيه قبل أن يُغمغم:

- أنا بقى عندي.

رمقه فتحي في تساؤلٍ، فعضَّ على شفتيه وهو يكمل:

- أنا قلقان أخسر اللي ندى عرفتني في مكالمتها النهاردة إنه لسه موجود.

لم يفهم مرةً أخرى مقصده فصمت وتركه ليفصح عنه مستدركًا:

- النهاردة فهمت إن الاحتياج شعور مش دايمًا بيكون وحش.. أنا بس اللي طول عمري كنت بحاول أهرب منه..

كنت بحاول أحسس نفسي إني مفرد.. واحد كائن بذاته.. عمره ما حب أبدًا فكرة إنه في يوم يبقى بيدور على حاجة يتعكز عليها.. أو حد.

كان يتكلم وقد توقف عن الاستمرار في إضاءة شموعه أمام الظلام الذي حل على غفلةٍ منهما مسترسلاً:

- زمان جنب بيتنا في البلد كان في شجرة كبيرة فروعها مادة وداخلة من شباك أوضتي.. لدرجة ان

الشباك بسببها مكانش بيتقفل..

الموضوع كان مسببلي أزمة مستمرة.. خاصة اني كل ما كنت أحاول أحلها بكسر الفروع دي أبويا يمنعني..

ضايقني رفضه اللي مفهمتلوش أسباب ولا منطق.. لحد ما فيوم جيت من وراه وعملتها.. كسرت الفروع.. وقفلت الشباك.

ضحك مع التماعة ظهرت في عينيه عند هذه النقطة من ذكرياته ثم استمر:

- أبويا أما عرف تاني يوم طلع ضربني ضرب أكتر يمكن ماللي اضربته يوم ما عرف إني شربت سجاير..

حبسني في أوضتي يومين فضلت فيهم كل ما أبص ناحية الشباك عليها يجيلي إحساس إنها بتراقبني.. وإن عقابي دا مش هو انتقامها الأخير..

فاكر أياميها بعد تالت يوم عقاب جه خدني من إيدي ونزلني وقفني جنبها وأنا مرعوب وحاسس برهبة مش طبيعية قصاد شموخها..

وراني إنها ساندة حيطة مايلة من حيطان البيت.. وعرفني ساعتها هو ليه ضربني.. وليه كان رافض على حد تعبيره إنه يزعلها..

كان فتحي يستمع إليه وهو يرمق اسم الدكتورة هناء الذي أضاء فوق شاشة هاتفه المهتز في صمتٍ دون أن يجيب.. في حين استطرد محمود:

- يومها أنا بصيت للشجرة دي بطريقة مختلفة.. شفت سر عظمتها وقوتها.. عرفت إزاي كانت قادرة وهي ثابتة في مكانها بدون ما تتحرك تكون سند داعم لبيت كامل بكل اللي فيه..

لقيت خوفي منها في لحظة بيتحول لإعجاب.. وكرهي ليها بيتبدل حب.. بقت الهيبة اللي جوايا منها دافع لأني أكون شبهها في يوم من الأيام..

شجرة ثابتة قوية ميحنيهاش الزمن.. وتسند كل شيء حواليها..

بقيت كل يوم أبصلها وأقول لنفسي بكرة هكون زيك.. أقوى من أي ظروف.. سيطرتي ممتدة لأبعد من مدى وجودي..

كل يوم هكبر.. ومش هيغلبني أي شيء.. بالضبط زي ما كانت هيا قدامي.. أو بمعنى أدق.. زي ما كنت أنا شايفها..

قوية.. إرداتها مفروضة على كل اللي حواليها.. وأمرها نافذ ومطاع من غير حتى ما تصرح بيه..

كبرت على كده.. سافرت القاهرة أدرس على كده.. اتخرجت واتجوزت وطلقت وأنا لسه كده..

أوراقي خضرا وجذعي عنيد..

فارض مش مفروض عليه.. هو اللي بيختار للكل ومحدش يقدر يختارله حاجة..

كل حياتي بقت كدا.. أنا اللي أشوف مراتي تكمل في شغلها واللا لأ.. وأنا اللي أشوف بنتي تدخل كلية إيه أو تتجوز إمتى ومن مين.. مفيش عندي أي اعتبار لطموح اللي حواليا وحريتهم.. ولا حتى مساحة

للتفاهم..

وأما كنت أسمع إن أبويا في البلد عيان كل اللي كان بيجي في بالي إني أبعت فلوس.. كأنهم بالفلوس هيقدروا يعملوا كل حاجة.. كأن الفلوس دي هتغطي احتياجهم المعنوي والنفسي بغض النظر عن وجودي فوسطيهم..

كنت واعي لنص الدرس القاسي اللي شافته عيني من صورتها بس.. مكنتش فاهم إن ورا الجمود دا حقيقة تانية.. نص تاني مشفتوش غير لما أبويا مات ورجعت آخد عزاه في البلد بعد سنين غيبة وغباء..

شفته في ورقها اللي وقع.. فروعها اللي نشفت وبقت تكسرها أي نسمة ريح.. وجذوعها اللي اصفرت وبان عجزها تحت حمل الحيط اللي مال أكتر عليها..

كل اللي آمنت بيه فيها لقيته قدامي بينهار.. وساعتها شفت نص الحقيقة التاني..

الشجرة مرضت لما مرض اللي كان مراعيها.. عجزت معاه.. حتى هيا برغم قوتها كانت محتاجة لسند..

مراتي وبنتي أنا لما سبتهم دبلت.. كنت بعجز كل يوم عن اللي قبله بدون ما أحس.. ومن غير ما أعرف إيه السبب..

والشجرة العجوزة الساكتة دي هيا اللي فهمتني..

فهمت إننا ومهما كانت قوتنا محتاجين برضو للي يدعمنا ويسقينا.. محتاجين ندى يرطب الأرض اللي واقفين عليها..

مازحًا تمتم فتحي مستغلاً لحظة صمت التقط خلالها محمود أنفاسه:

- ندى برضو يا محمود؟

بادله محمود الابتسام على ذكر اسمها وهو يقول:

- النهاردة فرحت من قلبي أما سمحتلي بفرصة رجوع.. مش بس عشان محتاجها هيا.. أنا برضو محتاج جدًا للبني آدمة اللي وقفت جنبي في بداية الطريق.. البني آدمة اللي من غيرها مكانتش ندى أصلا اتوجدت..

أنا النهاردة اكتشفت إن أساس قوتي مكتسب أصلاً من الناس اللي حوليا..

من ندى.. من مراتي اللي حسستها فيوم إن ملهاش قيمة..

منك إنت يا فتحي.. من بلال وشادية ومن بيلي..

عشان كدا قلقان دلوقتي وخايف عليكو خوف أسبق من خوفي على نفسي..

أنا من غيركم فعلا ولا حاجة.. وبيكوا بملك كل شيء.

تنهد فتحي في امتنان له دون أن يلتفت إليه وهو يتابع الشارع بالأسفل قبل أن تتحفز ملامحه وتنقبض يداه فوق السور مراقبًا ياسر الذي ظهر مترجلاً يهرول عند نهاية الطريق إلى جوارٍ بيومي في نفس لحظة ولوج تلك السيارة الحمراء الفارهة على نهاية الاتجاه الآخر من الحارة قائلاً في سرعة وهو يهم بالتراجع إلى الداخل:

- وصلوا يا محمود.. لازم نتحرك.

استوقفته يد محمود الممتدة تقبض على ذراعه وهو يتمتم في عصبيةٍ بالغةٍ:

- بلاش يا فتحي, أنا مش مطمن.. خلينا نلغي كل حاجة وكأنها محصلتش.. قدامنا لسه مجال.

التفت فتحي نحوه متطلعًا إلى عينيه بنظرةٍ مباشرةٍ وعينين تشعان إصرارًا لا تراجع فيهما:

- مش هنلغي حاجة يا محمود.. إحنا هنكمل عشان كل حاجة حلوة عايزينها تعيش.. وعشان مفيش قدامنا أصلاً غير كده.

تمتم محمود أمامه بلسانٍ متلعثمٍ:

- وإذا باظت ؟

صاح به الأخيروهو يرمق مرة أخرى سيارة الدكتورة هناء التي وجدت لها ركنًا خاليًا على جنب الطريق توقفت فيه.. والنقيب ياسر الذي اقترب من مدخل البناية مع بيومي الذي تلاقت عيناه المطل بهما في لحظةٍ مختلسةٍ إلى أعلى مع عينيه:

- هنبقى كسبنا على الأقل شرف المحاولة.

قالها وهو يفلت من بين يديه متجهًا إلى الداخل قبل أن يستطرد مستحثًّا إياه بصوتٍ أعلى:

- عشان خاطري يا محمود يلا.. سيب باقي الشمع وافصل الكهربا عن الباب الخارجي .. بسرعة.

تحرك الرجل بغير حيلةٍ مستسلمًا لاضطرابه ينفذ الأمر في حين دلف هو إلى داخل المكان متجهًا بخطواتٍ سريعةٍ نحو المطبخ متناولاً الفطيرة المحترقة ليحملها معه إلى الخارج قبل أن يضعها إلى جنب زجاجتي مياه غازية وكوبين فارغين على منتصف الطاولة الصغيرة في الصالة.. كان يتحرك بسرعة لم تستغرقه أكثر من ثوانٍ اتجه بعدهم نحو الغرفة الصغيرة وفتح بابها تشاركه الأضواء المنبعثة والموسيقى المعتادة.. مستقبلاً بابتسامةٍ متعجلةٍ الوجه الملتفت نحوه بقناع مهرج من أمام شاشة كمبيوتر ظهر فوقها مربع أسود لمساحة عرض فيديو في حالة تأهب وزر أحمر عريض أسفله لمح كلاهما فتحي وهو ينحني لالتقاط وعاء من أحد الأركان امتلأ بمادةٍ مشتعلةٍ شرع في إغراق الأرضية بها..

كل شيء في مكانه..

الفراش..

الكرسي الخشبي ذو الثلاثة أرجل..

وتلك الصورة الكبيرة المعلقة على الحائط المواجه تمامًا لشاشة الكمبيوتر تحمل وجه نبيل..

الوقت يمر على عجل..

وعقارب الساعة مع دقات قلبه تلتهمان الثواني المتبقية على نهاية كل شيء..

****

في صمتٍ أسترق السمع دومًا لصداه انتظرت..

طال انتظاري.. لكنه لم يكن أبدًا بلا طائلٍ..

أقرأ البشارة من عين فتحي.. وأبادله ابتسامة كانت منذ لحظات كعادتها غائبة..

أنتظر رحيله مغلقًا الباب من خلفه قبل أن أضغط بالمؤشر أمامي على الشاشة زر البث المباشر..

لقد آن الوقت..

وها هي ذي ساعة الصفر المرتقبة بعد صبر يحين أوانها..

****

"لحظات أعزائي المشاهدين ويبدأ العرض"

قالتها الإعلامية الشابة لبنى حرب وهي تتطلع عبر الشاشة التي باتت منقسمة إلى نصفين نقل صورتها في الأستوديو أحدهم بينما احتلت النصف الآخر مساحة سوداء نقلتها الكاميرات إلى كل المشاهدين القابعين أمام شاشاتهم في البيوت وعلى المقاهي مترقبين..

لقد اتخذوا قرارهم بالموافقة على بث العرض..

لم يلزمهم الأمر غير فاصلٍ قصيرٍ أقرَّ خلاله بلال على ورقة صغيرة مسئوليته الكاملة عن كل ما سيتم نقله بعد لحظاتٍ على الهواء مباشَرة ..

كان يجلس أمامها في نفس مكانه متطلعًا إلى ساعته التي أشارت عقاربها على السابعة إلا دقائق منتظرًا قبل أن يقول:

- اسمحيلي حضرتك أقدم الفيديو بنفسي.

أومأت برأسها له موافقة وهي تقول:

- اتفضل طبعًا.. كلنا مستنيين ده.

التقط نفسًا عميقًا من الهواء في نفس اللحظة التي أضاء فيها النصف الخالي بصورة ذلك الوجه القابع أمام الجميع بأنف أحمر مستدير وشعر مستعار له نفس اللون مع ابتسامةٍ متسعةٍ مرسومةٍ داخل حجرة صغيرة ضيقة التهمت تفاصيلها كل العيون..

بريقٌ خاص التمعت به عينا بلال الذي بدا على النصف الآخر من الشاشة وهو يعتدل متحدثًا بالفصحى التي اعتادها في عرض فيديوهاته يعرف الوجه المطل أمامهم:

"الخميس.. الخامس من أغسطس 2015م.. الساعة السابعة مساءً..

أعزائي المتابعين جميعًا.. وتماماً كما وعدناكم

أهلاً وسهلاً بكم في موعدكم المتجدد مع الفيديو الأسبوعي العاشر والأخير للباحثين عن السعادة..

رحبوا معي ب- (بيلي)".

قالها والوجه على الشاشة يطالع عيون المشاهدين في ثباتٍ دون أن يُحرك ساكنًا للحظاتٍ تشابكت فيها الأصابع واحتبست خلالها الأنفاس..

كل بصره شاخص على الشاشة..

المصورين..

معدو البرنامج..

والقابعون في منازلهم وعلى المقاهي العامة يتابعون الحلقة..

حتى كمال البنداري مخرج البرنامج.. كان متحفزًا قلقًا مثل الجميع برغم ورقة الإقرار المستقرة في يده..

لحظات مرَّت لم يحدث خلالها شيء..

ذات الملامح الضاحكة في صمت تنظر لهم.. وتتمتم أمامها لبني في شيء من توترٍ:

- هو مبيتحركش ليه؟

نظر لها بلال أن تمهلي وهو يشير إلى الشاشة التي تحرك الوجه فيها أمامهم منزاحًا يُفسح المجال لتلك الصورة الكبيرة المعلقة على الحائط خلفه.. والتي ما إن ظهرت للجميع حتى أكمل بكل ما حمله صوته من اختلاجاتٍ:

- نبيل إبراهيم العوضي..

مواطن مصري..

ارتفع في تلك الأثناء إثر انفتاح باب الغرفة على الشاشة صوت نغمات السيرك لتبدو كخلفيةٍ موسيقيةٍ صاحبت صوت بلال الذي ارتفع أكثر وهو يستطرد:

- قُتل ظلمًا على يد ذلك الدالف أمامكم لتوه من خلف الباب الخشبي المفتوح.

قالها فاتسعت كل العيون لرصد ملامح الوجه المقصود..

وبمنتهى التحفز..

****

اللحظات الأخيرة

الثاني عشر من أغسطس 2014م..

الساعة السابعة مساءً..

حين انطلقت الصيحات عاتيةً من حناجر شباب الأولتراس الواقفين أمام القسم وتدافعت أجسادهم تُحاول اقتحام المبنى الذي افترشت الحواجز الحديدية الشائكة بينهم وبينه..

حين سيطر الارتباك على صف رجال الأمن المركزي الواقفين خلف دروعهم بالخارج وعلى رجال الأمن المتدافعين في كل اتجاه داخل المكان..

وحين كان وحده هناك يقف.. في طابقه الأعلى داخل حجرة مكتبه الباردة..

يتابع المشهد ببرودٍ مماثلٍ عبر النافذة الكبيرة بخلفيةٍ موسيقيةٍ أبدع في عزفها موتسارت..

بدت الصورة أمامه هزليةً.. تافهةً.. تثير بداخله نشوة استمتاع لا مثيل لها..

كل هؤلاء الحمقى بالأسفل المستشاطين غضبًا لاحتجاز زملائهم بعد تظاهرة اعتراض قاموا بها مجرد حشرات لا قيمة لهم..

هاموش يتطاير بغير قدرة على فعل شيء..

هكذا رآهم..

بعكس جميع رجاله الذين سيطر التوتر عليهم كان الأمر في نظره مسليًا..

تتعالى الطرقات فوق باب مكتبه ثلاثًا قبل أن يفتح صاحبها الباب مندفعًا إلى الداخل وهو يصيح في قلقٍ:

- ياسر باشا.. العيال اللي برة عددهم بيزيد.. والرجالة ابتدوا يرجعوا قدام الضغط.. هنتصرف إزاي؟

أشار إليه دون أن يستدير نحوه رافضًا اقتطاع لحظة استمتاع واحدة من المشهد قائلًا بهدوئه المعتاد:

- تعالى يا بيومي قرب هنا أوريك حاجة.

اقترب بيومي إلى حيث أشار إليه وتطلع معه عبر النافذة على المشهد المحتدم بالأسفل والأعداد المتزايدة من الغاضبين فارتفعت ضربات قلبه المتوترة خوفًا على زوجته وابنه المنتظرين بالأسفل.. متناقضة مع نبرة صوت رئيسه الهادئة وهو يستطرد:

- عايزك تستمتع بالمنظر اللي إنت شايفه قدامك ده.

اندفع بيومي بفعل التوتر المعتمل في نفسه على زوجته القابعة بالأسفل مع ابنه هاتفًا:

- أستمتع إيه بس يا باشا؟.. الناس الغضبانة تحت دي بتزيد.. وشوية الحديد وصف العساكر اللي إحنا موقفينهم دول مش هيستحملوا كتير.. إحنا لازم نتصرف قبل ما الدنيا تولع.

ارتفعت ضحكاته أمام العبارة عالية.. والتمعت عيناه ببريق شبق لا مثيل له، وهو يقول:

- هو دا بالضبط المطلوب إثباته.. صدقني أما الدنيا تولع المتعة هتزيد.. أنا نفسي الدنيا تولع.

تطلع بيومي نحوه في غير فهم فاتسعت الابتسامة فوق وجهه.. ثم استدار ملتقطًا جهاز اللاسلكي المستقر على المكتب الفاخر خلفه ورفعه إلى فمه ضاغطا أحد أزراره قائلًا يُحدث واحدًا من أفراد القناصة الموزعين على سطح المبنى:

- فين قنابل الغاز؟

انطلقت بعد انتهاء عبارته بلحظات قنبلتا غاز مسيل للدموع انتشر من حولهما دخان أبيض كثيف خانق ارتبكت معه الصفوف المحتشدة وبدت من خلاله الرؤية في أعينهم مشوشة فتخبطت الرؤوس واختلطت ما بين مندفع ومتراجع.. بينما تابع الصوت الهادئ بنفس النبرة الباردة حديثه:

- راقب معايا الخوف يا بيومي.. اتفرج..

الخوف هو أقوى سلاح تقدر تواجه بيه خصومك..

الخوف بيهز الصفوف.. بيشتتها..

خوف الضعيف دايمًا بيخليه يتصرف غلط.. بيخليه يتهور.. وساعتها بيديلك على طبق من دهب الفرصة لأنك تنسفه..

كانت كلماته التي أنصت لها بيومي.. لا يستوعب منها الكثير.. لكنه ظل ببصره يتابع انطلاق عدد أكبر من قنابل الغاز التي اختلط دخانها بالصيحات الغاضبة والهتاف الجهوري المستمر رغم كل شيء مضافًا إليها الخوف المقصود والذي خلف ارتباكًا دفع البعض منهم للعنف فتلاطمت الصفوف واندفعت القبضات في وجوه عساكر الأمن المركزي الذين ارتفعت بدورها هراواتهم تضرب الرؤوس في نفس اللحظة التي علا فيها رنين هاتف خاص وضعه الآخر فوق أذنه مجيبًا في سرعةٍ وبنبرةٍ جادةٍ:

- أمرك يا فندم.

انتظر قليلاً مانحًا مُحدثه فرصة الكلام قبل أن يقول:

- لا أبدًا يا فندم كله تمام.. مفيش داعي لأي إمدادات، الوضع تحت السيطرة وأنا بشرف عليه بنفسي.. اطمئن معاليك.. مع السلامة.. مع ألف سلامة.

قالها وأغلقه مرةً أخرى قبل أن يُعيد متابعة الموقف بنظرة حملت في نظر بيومي الكثير من الجنون غمز بعدها له بعينيه قائلاً في نشوة لا تناسب أبدًا خطورة الموقف:

- دلوقتي بقى مطلوب نضيف عالطبخة شوية بهارات عشان تظبط أكتر.

قالها للوجه المتعجب، ثم سأله:

- بيومي إحنا عندنا كام واحد محجوز في التخشيبة تحت؟

أسرع بيومي يُجيبه:

- معرفش سعادتك العدد الكامل بالضبط كام.. بس المشكلة قايمة على التسع عيال والبنتين بتوع الأولتراس اللي الحملة بتاعة حضرتك لسه شداهم.

حك بسبابته ذقنه في بطءٍ قبل أن يقول:

- طلعهم طيب .. عايز أشوفهم واقفين تحت في ضهر صف العساكر اللي بيننا وبين شوية الهمج دول.

ارتفع حاجبا بيومي في اندهاشٍ، وهو يتساءل:

- إيه دا يا باشا؟ إنت ناوي تطلعهم؟

أطلق ضحكةً قصيرةً متهكمةً وهو يُخبره:

- أطلع مين يا حمار إنت؟ هو أنا بتكلم عال- 11 بس؟ انزل يا اللا بلغ رجالة الحجز وإنت معاهم يطلعوا كل اللي فيه بس كلبشوهم بسلسلة واحدة جنب بعض عشان محدش فيهم يفلت..

نفذ.

نطقها بصيغة الأمر فانطلق بيومي لتنفيذه محاولًا فهم المغزى من وراء ذلك..

هبط إلى الأسفل حيث غرفة الحجز.. مارًّا في طريقه على زوجته المنتظرة داخل حجرة تسجيل المحاضر والتي نهضت بمجرد رؤيته منادية عليه في خوفٍ حقيقي:

- بيومي.. هو إيه اللي بيحصل بالضبط؟ واللي برة دول عايزين إيه؟

توقف أمام باب الغرفة مشيرًا إليها أن اقبعي كما أنت قائلًا:

- مفيش حاجة إهدي.. ناس بتعمل شغب عشان يطلعوا زمايلهم مش أكتر.

كان يُحاول إخفاء توتره أمام عصبيتها التي صاحت بها:

- يعني أنا حظي الإسود ميخلينيش أعدي عليك غير في الظروف الهباب دي؟

كان ابنه في تلك اللحظة يقترب منه متشبثًا ببنطاله، قائلًا في براءة:

- بابا.. ممكن أجي أتفرج معاك؟

هم برفض طلبه لولا أن سبقته هي به في عصبية منادية:

- محمد.. تعالى اقعد معايا هنا تروح فين؟ أنا ناقصة حرقة دم؟

عاد الفتى مسرعًا إلى حيث تقف.. بينما أومأ لها هو برأسه دون معنى قبل أن ينطلق مكملًا طريقه المنشود..

دقائق مرَّت تكون خلالها الصف المكبل من المحتجزين فزاد الأمور تعقيدًا..

تعالت صيحات الغضب فائرة لظهورهم من خلف حاجز العساكر المرتبكين أمامهم..

مضيفًا إليها هو.. ذلك الواثق من نفسه بالأعلى المزيد.. بصوته الذي تنحنح به عبر مكبر صوت في يده قبل أن يقول محدثًا ثورتهم:

أهلاً بيكوا في دولة القانون.

لحظة من الصمت مرَّت ارتفعت فيها الرؤوس جميعها نحوه وهو يقف في شموخٍ من خلف زجاج نافذته الكبيرة متابعًا:

- اوعوا تكونوا فاكرين إنكوا تقدروا بشوية الهبل اللي إنتوا عاملينه دا تلووا دراعنا.. أو تاخدوا حاجة إحنا مش عايزين نديهالكوا..

الناس اللي إنتوا جايين تطلعوهم قدامكوا أهم.. مش هما بس.. هما وكل اللي محجوزين عندي جوا في القسم.. كل اللي فاصل بينكوا وبينهم صف العساكر دول.. عايز أشوف بقى لو فيكوا راجل واحد يقدر يعديلهم.. بس ساعتها ميلومش إلا نفسه.

صمت لحظة مراقبًا أثر كلماته عليهم، قبل أن يستدرك:

- وقت الهزار خلاص انتهى.. ودي آخر فرصة قدامكوا للتراجع.. المهلة دقيقة واحدة كمان.. يا تمشوا.. يا هنعرف إحنا إزاي نمشيكوا.. انتهى.

كان ينطق كلماته مدركًا الدافع من ورائها..

كان يسعى لإثارتهم أكثر..

كان يمنحهم حدًّا من الغضب يفقدهم به القدرة على التمييز.. متلذذًا بصيحاتهم التي باتت أقوى هديرًا.. مراقبًا اندفاعهم العشوائي وضربهم لكل ما ومن أمامهم.. انهمروا على رجال الأمن ومينِاهم بوابلٍ من الحجارة التي عادت لهم في هيئة قنابل غازية استمرت في الهطول فوق رؤوسهم خانقةً حارقةً متتاليةً.. تحجب عنهم ابتسامته التي اتسعت ليبدو أشبه بشيطان..

في برود المستمتع مدَّ يده نحو زر التحكم بسماعات الحجرة رافعًا صوت المعزوفة الموسيقية الراقية

قبل أن يُعاجله صوتُ تحطم مدوٍّ لزجاج نافذته إثر ارتطام حجرٍ كبيرٍ اخترقها قبل أن يسقط متدحرجًا بين بعض الشظايا فوق السجادة الفاخرة في المكان.. فتراجع عدة خطوات للوراء محتميًا بمكتبه في لحظةٍ كشفت جانب جبن فيه لم يره حينها سواه.. لكنه تعمد إخفاءه خلف قناعاته الشاذة.. ونبرته القوية الصارمة التي تمتم بها وهو يرفع مكبر الصوت مرةً أخرى إلى فمه هاتفًا:

- مهلتكو انتهت يا سادة.

قالها ثم التقط اللاسلكي المعلق في حزامه مرة أخرى وضغط أزراره آمراً في اقتضابٍ:

- اضرب حي.

هكذا.. وعلى خلفيةٍ من صوت الرصاصات المنطلقة فور أمره اشتعل الوضع..

وهكذا, اصطبغ الشارع بلون دم استعاده ياسر في مخيلته وهو يهرول عابرًا الأزقة إلى جوار بيومي الذي استرجع بدوره تراجعه من خلف صف المكبلين أمامه بعد طلقة في رأس أحدهم سقط على إثرها بثقل وزنه بين صرخاتهم وتوازنهم الذي اختل..

بدافع رغبتهم في الحياة حاولوا التراجع إلى داخل المكان احتماءً به..

استنشقوا بشهقاتهم المذعورة كمًّا لا يُطاق من الدخان الأبيض.. وانتثرت الدماء فوق وجوههم وعلى أيديهم..

الموت أمامهم.. وركلات بيومي ولطماته مع زملائه من الخلف..

سدد اللكمات فوق أجساد منهارة.. ووجوه تلوثت قبضته بدمائها..

كان يضربهم بدافع غلٍّ سيطر عليه خوفه الشديد على صغير يحبه ولا يزال داخل المكان..

محمد..

هذا الذي لم تلحظ أمه في غمرة توترها انسلاله من بين يديها واندفاعه بالفضول إلى الممر الخارجي للقسم..

رصاصة أخرى تخترق كتفًا آخر بالخارج.. ثم قدم أحد المحيطين..

غاز مستمر هطوله على عيونٍ التهبت.. وصدورٍ اختنقت..

الكل في الخارج يجري محاولًا النجاة بحياته من موتٍ مُحلق..

والعينان الصغيرتان تلمحان يدًا تألفها باتت مخضبةً بلون الدم..

انقباضة في قلب بيومي شعر بها عند هذه النقطة من الذكريات فتوقف معها عن الركض مستندًا إلى أحد الجدران يلهث أمام ياسر الذي رمق الساعة في يده وهو يصيح:

- وقفت ليه يا بيومي؟ بسرعة مفيش عندنا وقت.

بمشاعر حاول إخفاءها وأنفاس تلاحقت في صدره انفعالاً أشار له الأخير الى البناية التي باتت قريبة وهو يقول موضحًا:

- خلاص قربنا نوصل يا باشا.. البيت أهو.

هرولا معًا في طريقهما مقتربين من الحارة الضيقة..

سور المدرسة القديم..

البناية المقصودة بابها أمامهما مفتوح يدعوهما للدخول..

صعدا درجات سلمها عدوًا رغم الإجهاد البادي على ملامحهما يتخلل الصمت المسيطر بينهما سؤال ياسر بصوتٍ خافتٍ:

- متأكد إن هي دي العمارة؟

أومأ بيومي برأسه مؤكدًا فشرعا في صعود الدرج العتيق بسرعةٍ في نفس لحظة ظهور فتحي الذي اتخذ مع محمود طريق الهبوط فوق الدرج أمامهما..

بالريبة رمقهما ياسر وكلاهما يعبر من جواره رافعين أيديهما بتحيةٍ ما لم يميزها مواصلين طريقهما إلى الأسفل بهدوءٍ أثاره..

"مش حد فيهم يا باشا.. أنا حافظ شكل نبيل.."

تمتم له بها بيومي، فالتفت عنهما مواصلًا الصعود مع ذلك الأخير الذي استدرك بعد رحيلهما الآمن بعدة لحظاتٍ:

- ياسر باشا أنا الرصاص اللي معايا خلص.. ناولني مسدسك معلش.

طلبها في لحظةٍ انتقاها بإتقانٍ..

اقتنص القلق من عين رئيسه وذلك الشرود الذي اكتنفه.. واعتمد على فكرةٍ أهداها هو له منذ عامٍ..

"خوف الضعيف دايمًا بيخليه يتصرف غلط"

كان يعرف أن طلبًا كهذا في أي وضعٍ آخر سيتم رفضه.. لكنه راهن على الظرف..

راهن على الخوف الماحي لأي منطقيةٍ أو تريث أو تفكير..

إن ياسر خائف.. وجبان مثله في تلك الأثناء لا يدقق..

مدَّ يده بالسلاح يناوله بيومي الذي احتواه بقبضته في قوةٍ مستكملاً مع صاحبه صعودهما حتى السطح..

بخطواتٍ وجلةٍ متربصةٍ دلفا إلى المكان..

السطح الخالي أمامهما تضيء حدوده الشموع.. والباب الخشبي الموارب في مواجهتهما ينتظر..

اقتربا منه.. دفعه بقدمه بيومي ليصدر ذلك الصرير الخافت الذي بعث في نفس ياسر رهبةً..

المكان معتمٌ فارغٌ أمامه.. يميز إثر الضي المنبعث من وهج الشموع القادم إليه من الخارج تلك الفطيرة المحلاة الموضوعة إلى جانب كأسين فارغين وزجاجة مياهٍ غازية فوق مائدةٍ توسطت الصالة..

- فيه إيه بالضبط يا بيومي؟ هو كان في حفلة بتتجهز هنا وللا إيه؟

تمتم بها دون انتظار رد وهو يدور ببصره في أرجاء المكان قبل أن يستقر على باب تلك الحجرة الوحيدة في ركنه...

اقترب منها.. مد يده نحو مقبضها في بطءٍ متوجسٍ وأداره لينفتح منطلقة مع انفتاحه موسيقى السيرك والأضواء المتفاوتة التي تراجع على إثرها متطلعًا إلى من قبع في ملابس ملونةٍ ينتظره منذ عامٍ مضى..

كل الصورة تُربكه..

المهرج الجالس أمامه..

رائحة البنزين النفاذة..

الحجرة الضيقة..

كل شيء..

لم يلحظ حينها تلك الكاميرا المفتوحة التي رصدته وهو يصيح:

- مين انت؟

لم يعلم أن صرختة المرتبكة في تلك اللحظة رآها الآلاف..

لم يُدرك أن خوفه وصل عبر الشاشات إلى كل العيون وهو يقف إلى جوار الباب مترددًا في الاقتراب مراقبًا باندهاشٍ تلك التي محت عن وجهها بعضًا من أثر الألوان وهي تنزع عن رأسها الشعر المستعار ليظهر من تحتَه ذاك الحقيقي المنسدل..

في ذهولٍ نقلته الشاشة أمامه اتسعت عيناه للملامح المنكشفة التي لم يرها سواه.. في حين استمر من داخل الأستوديو بلال يتابع بنفس نبرته المتحمسة كاشفًا الحقيقة في لحظاتها الأخيرة:

- ياسر رشيد..

النقيب ياسر حسنين رشيد..

هذا الذي ارتكب بدمٍ باردٍ جريمة قتل شنعاء استطاع إخفاءها خلف ستر الصمت في حق نبيل وستة معه آخرين..

هاهو ذا الآن وبكل وضوح ترونه.. قاتل نبيل الحقيقي.. الذي زيف حقيقة جريمته بتقريرٍ كاذب منذ عام مضى.. تحديداً في الثاني عشر من أغسطس العام 2014..

فلتتأملوا لحظة احتراق قناع كذبة اختلقها.. وارى تحتها حقيقة كانت لتعجز نيران الأرض كافة عن إجلائها..

ولتسمحوا لي اليوم أمامكم وعلى الهواء مباشرة من هنا.. أن أقدم بلاغي للنائب العام في شأنه.

كان يتكلم بصوتٍ لامس قلوب المتابعين جميعًا وسرى عبر آذانهم مخلفًا قشعريرةً عجيبةً على الأجساد..

قشعريرة لم يألفوها من قبل..

لم يتصنع اختلاجات صدره.. ولا تلك الدموع المترقرقة فوق عينيه من فرط الحماسة وهو يُكمل وكأن شيئًا في الحياة لا يعيقه على الرغم من مجموعة البذلات العسكرية التي دلفت إلى الأستوديو من خلف الكاميرات وامتلأ بها المكان في تلك اللحظة:

- حدثتكم فيما سبق عن شيء ناقصٍ يفصلنا عن البهجة لم أستطع تحديده..

عن عائقٍ وقف بنا على حافة الفرح ومنعنا من مواصلة الطريق إلى سعادة نرجوها..

والآن أخبركم وبكل الثقة عنه..

إن عائقكم هو الخوف يا سادة..

لقد أخطأنا جميعًا حين اعتقدنا أن للسعادة أسبابًا يمكن تعقبها.. وهي الحقيقة القائمة في كل ما يُحيط بنا خلف ستارٍ من الخوف والضعف والعجز والجبن واليأس والاستسلام..

لا تبحثوا بعد اليوم عن أسبابٍ للسعادة إن لم تنزعوا عنها كل القيود..

سعادتكم بداخلكم.. اما أن تتركوها مكبلةً.. أو تفضحوا مواطن القهر فيكم لفك قيودها واحدة تلو أخرى..

تحرروا.. فخلف كل قيدٍ على اختلاف صوره تقبع ضالتكم وتنتظر..

إن السعادة الحقيقية حريةٌ خُلقنا بها..

لن يمنحنا الخوف يوماً بهجتها..

ولن تسكن أبداً قلوب العاجزين..

****

.. النِّهَايَة..

أثرٌ ما تسلل من كلمات بلال عابرًا قلوب المتابعين ..

أثرٌ ما دفعهم - برغم انقطاع البث فجأةً بأوامر أمنيةٍ - للإسراع نحو أجهزة الكمبيوتر وهواتفهم الخلوية للولوج إلى الصفحة الخاصة بالفرقة ومشاهدة ما استكمله بيومي من العرض لحظة دخوله من وراء ياسر المشدوه مشهرًا المسدس في رأسه..

ما زال ياسر في غير استيعابٍ لما يحدث من حوله يتلفت ما بين وجهي المتطلع إليه في صمتٍ ووجه بيومي الذي ارتسم فوق ملامحه ارتياحٌ لا حدَّ له وهو يُراجع بصوتٍ مرتفعٍ تفاصيل يوم الجريمة..

هذا اليوم الذي شَعَرتُ فيه أنا بقهرٍ ظالمٍ أراه الآن أمامي وجلاً يرتعد..

أرى عينيه الجاحظتين في ارتباكٍ أمام ابتسامتي تلك التي شابهت ابتسامة بلال من داخل الأستوديو في ذات اللحظة وهو يستقبل أولئك الذين تقدموا نحوه بملابسهم الميري وأكتافهم المرصعة بالنجوم لاحتجازه..

صوره التي رصدتها الكاميرات وانتشرت على صفحات جرائد اليوم التالي أكدت ذلك واستفاضت في الحديث عن تحقيقات استمرت فيما بعد على مدى أسابيع مع شهودٍ كان من بينهم هناء وفتحي وغيرهم كثير..

يمكنكم رسم انفعالات الذهول التي سيطرت على ياسر وقت صدور الحكم بوقفه النهائي عن العمل قبيل اعتقاله بتهمة القتل مع سبق الترصد والإصرار..

بإمكانكم تخيل كافة المشاهد.. واستيعاب كل توابعها..

في استطاعتكم بالتدقيق استشعار لمحةٍ من الأمل باتت تسكن قلوب السائرين في شوارع المدينة حولكم..

أولئك المنهكين بحثًا خلف أسباب السعادة..

بمختلف المواقيت..

لقد انتهى العرض يا سادة..

ووصلت الرسالة..

أرى من فحواها فوق الوجوه علامات..

لم يعد الخوفُ هو المسيطر على الدكتورة هناء.. ظني أن شيئًا من نصائحها على عتبة الحافلة المدرسية لابنتيها سيختلف..

ستخبرهم أن يتمسكوا جيداً ببعض..

أن يأكلوا كامل شطائرهم.. وأن يلتزموا الأدب حيث كانوا..

ولكنها أبداً لن تنصحهم مرة أخرى أمام الظلم بالصمت.. ولا الاستسلام..

لا تستسلموا..

لا تستسلموا أبدًا..

لا تعيشوا فوق أرضكم هذه جبناء..

لم يعد الحزن هو الرفيق لمحمود.. يبدو مبتهجًا اليوم وهو يتهادى متأبطة ذراعه شادية في شوارع وسط البلد أمام محلات الملابس الجاهزة لانتقاء بذلة بيضاء جديدة استعدادًا لزفاف ابنته الذي اقترب..

عومل بيومي كشاهد ملك في القضية ونال حكمًا مخففًا بالسجن مع وقف التنفيذ.. ذكر لي أن أسما أتته زائرة على استحياء مباركةً على الحكم ثم رحلت..

قرأت في طي نواياه التي لم يصرح بها أمامي رداً منه لمعروف زيارتها.. ربما بعد أيام..

ستتجدد الثقة مع الوقت بينه وبين محمد ابنه.. تماماً كما تجددت في نفس بلال وهو يستقبل بعد انتهاء التحقيقات معه ذلك الكم الهائل من اتصالات رجال الصحافة والإعلام.. مسترجعاً معها مجدًا قديمًا كان ذات يوم له..

حوارات مختلفة.. ولقاءات صحفية متعددة.. وسؤال وحيد سيظل عالق دون إجابة عن صاحبة قناع المهرج التي ظهرت في العرض الأخير..

تلك التي توارت تماماً عن الحدث, وتواترت الأقاويل حول كونها فتاةً تم استبدال اسمها باسم نبيل في تقرير وفاة كتبته هناء ليلة حدوث الواقعة..

يتهامس القليلون حول حقيقة انتقالها للعيش مع فتحي في بيت والدته الذي عاد إليه أخيرًا وقد انمحى شعور الذنب من روحه وحل محله شعور بالرضا طال غيابه..

لقد انتهى العرض.. مخلفًا للجميع آثاره..

أرصدها أنا في صمتٍ كعادتي من شرفة غرفتي الجديدة في بيت عم فتحي.. وأستعيد من تفاصيل السعادة في مخيلتي ملامح الوجه الذي علمني كل شيء..

وجه نبيل..

ذلك الراحل دون غياب..

لقد احتفظت بكل عاداته.. كل طباعه.. وتجاربه التي رافقته بطول مسيرته مع الحياة..

حتى كنيته.. استبقيتها لنفسي تمامًا كما استبقى هو ذات يوم في مناداتي كنية رفيقته سلوى..

(بيلي)

كرروا الاسم ليظل باقٍ في العقول إلى الأبد.. تُحيط به وبقصته المثيرة علامات استفهام عالقة..

فلتتداول سيرته الألسن.. ولتختلف حول ماهيته وجهات التوقع والنظر..

على صفحات التواصل الاجتماعي..

في المواصلات العامة..

وعلى نصب المقاهي وفوق الأرصفة..

ليحيا في أذهانهم رمزاً لنصف حقيقة.. سيدفعهم شغفهم حتماً للبحث عن نصفها الآخر..

أنا..

تلك المجهولة التي ربما مرَّت ذات يوم بجمع لهم.. أو جاورتهم مقعدًا في الحافلة بمحض صدفة, ولم يكترثوا البتة لوجودها..

فهم بكل تأكيد, ومهما افسحوا من مجالات لتصوراتهم, لن يتوقعوا أبدًا.. أن الصوت الذي أيقظهم.. صاحت به فتاة في السادسة عشرة من العمر.. صمّاء..

لازال الوقت مبكراً على كشف أمري..

سوف أكتب الحكاية على أية حال.. وسأؤجِل أوان الإفصاح عنها لما بعد..

ربما بعد عام.. عامين.. وربما أكثر..

لن أحدد الآن شيئاً.. فأنا أدرك جيدًا..

أن بعض الأشخاص مثلي لا بد أن يظلّوا مجهولين..

وبعض النهايات في رأيي لا بد وأن تبقى مبهمة..

الإمضاء
شمس

أغسطس 2015

****

تمَّت بحمدِ الله

بيلي

بث مباشر